رواية

برنار فيربير

ثلاثية القطط ١

القطط غداً

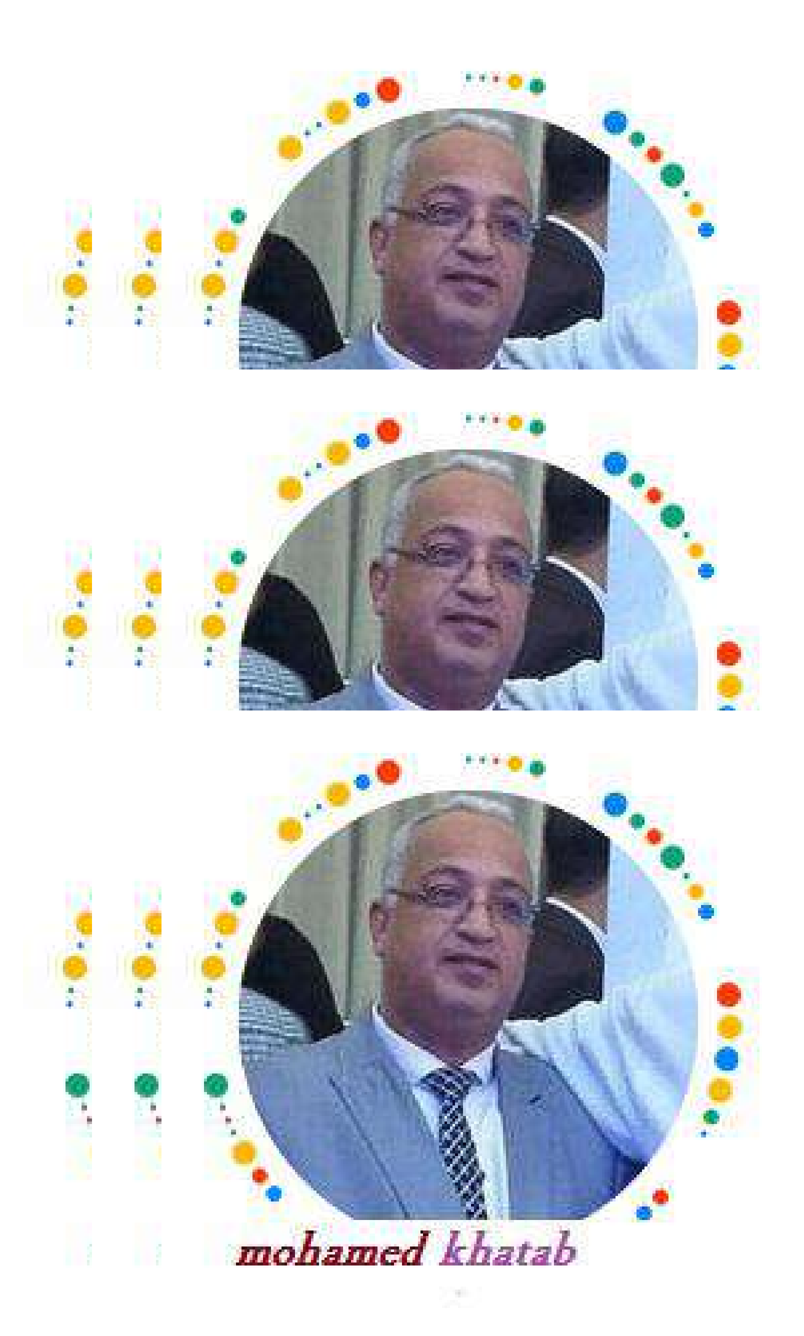




ترجمة: حسين عمر

مكتبة




mohamed khatab



Author: **Bernard Werber** | اسم المؤلف: برنار فيربر

Title: **Demain les chats** | عنوان الكتاب: القطط غداً

Translated by: **Hussein Omar** | ترجمة: حسين عمر

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون – شارع المدارس

Beirut Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

برنار فيربير

القطط غداً

ترجمة : حسين عمر



إلى صديقتي، الروائية ستيفاني جانيكو، التي أهدتني دومينو، القطّة التي تدوس فورًا على لوحة مفاتيح حاسوبي حالما ترى أنني أنقر عليها بسرعة (وهو ما يعني بالنسبة إليها أنني أجرؤ على الاهتمام بأمرٍ آخر سواها).

يقول الكلب في نفسه: «البشر يطعمونني، ويحمونني، ويحبّونني، لا بدّ أنّهم آلهة».

يقول القط في نفسه: «البشر يطعمونني، ويحمونني، ويحبّونني، لا بدّ أنّني إلههم».

مجهول

«ليس هناك سوى الخنازير يعاملوننا معاملة الندّ للندّ».

ونستون تشرشل (رجل سياسة)

«إنّ الكلبَ قادرٌ على أن يحفظ معنى ويتعلّم مدلول مئة وعشرين كلمة وتصرّف بشري. ويُجيد الكلب العدّ حتى عشرة ويستطيع أن يجري عمليات حسابية بسيطة مثل الجمع والطرح. إذًا، إنّ الكلب يمتلك تفكيرًا يعادل تفكير طفلٍ بشريٍ عمره خمس سنوات.

إنّ القطّ الذي يُعرَضُ عليه أن يتعلّم العدّ، أو أن يستجيب لكلمات محدّدة، أو يقلّد حركات بشرية، سرعان ما يوحي لكم أنّ ليس لديه وقتٌ ليضيّعه في هذا النوع من الهُراء. إذًا، إنّ القطّ يمتلك تفكيرَ... إنسانٍ بالغٍ عمره خمسون عامًا».

البروفيسور إدمون ويلز

(عالم وصاحب قطّ)

-1-

مهمّتي

كيف انتهى بي المطاف إلى فهم البشر؟

منذ طفولتي المبكرة، بدوا لي على الدوام غامضين ومثيرين في آنٍ واحد.

لشدّة ما راقبتهم وهم يتحرّكون في كلّ الاتجاهات أو يقومون بحركات غير مفهومة، بل ومضحكة، بدأ الفضول يتملّكني. كنتُ أطرح باستمرار على نفسي أسئلة، من قبيل:

لماذا يتصرّفون هكذا بغرابة؟

هل من الممكن خوض حوارٍ معهم؟

ومن ثمّ حظيتُ بفرصة اللقاء به «هو».

لقد ساعدني، «هو»، حقًّا في فهم تصرفاتهم وأخلاقهم، والأسباب العميقة التي تفسّر سلوكهم الغريب.

إنّ اللقاءات هي التي تغيّرنا دائمًا.

من دونه «هو»، ربّما لما كنتُ سوى قطّة كغيري من القطط. ربّما، من دونه «هو»، كلّ هذه المغامرات المذهلة التي حصلت لي لم تكن لتحدث أبدًا. بل ربّما، من دونه «هو»، كانت هذه الاكتشافات المذهلة ستفوتني.

الآن، إذا كان عليّ أن أحاول تذكّر اللحظة التي بدأ فيها كلّ شيء، سيتعيّن عليّ من دون شكّ أن أبدأ بأن أتذكّر حالتي النفسية والمزاجية في تلك الفترة. أعتقد أنّي كنتُ أضجر كثيرًا، وحيدة في بيتي، وأتاني الحدس بأنّه سيكون من المستحسن أن أتحادث مع المحيطين بي.

كنتُ في تلك الفترة مقتنعة بعمق أنّ:

كلّ من يحيا له عقل.

وكلّ من له عقل يمكنه التواصل مع الآخرين.

كلّ من يمكنه التواصل يستطيع التحاور مباشرةً معي.

كان التواصل يبدو لي إذًا على أنّه الحلّ لكلّ المشكلات ولا يعود هناك سوى أن أبدأ أنا بنقاشٍ مثمرٍ مع الآخرين. لحسن الحظّ، كان لديّ هذا الهدف، وإلّا ما الجدوى من حياتي؟ تناول الطعام؟ النوم؟ رؤية تناوب الليل والنهار دون أن أفعل شيئًا سوى الأكل والنوم في حين يواصل العالم الخفقان من حولي؟

مع ذلك، لا يكفي أن يكون للمرء مهمّة، بل ينبغي أيضًا أن تكون له استراتيجية تؤدّي إلى إنجازها.

كيف نتواصل مع الآخرين؟

هكذا بدأ كلّ شيء...

-2-

المحاولة الأولى

تركتُ أجفاني تنطبقُ ببطءٍ، وتنفّستُ بعمق، شعرتُ بجسدي، وفي رأسي، شعرتُ بدماغي وذهني.

كان ذهني أشبه بسحابة صغيرة كروية، قطنية الشكل ومائلة إلى اللون الفضّي، تعوم في وسط جمجمتي، وتتمتّع بالقدرة على النمو. ولأنّها لدنة ومرنة، تتوسّع وتتمدّد وتصبح قرصًا. وكلّما امتدّت أكثر، زاد إدراكي للفضاء المحيط بي أكثر. لم يكن ذهني كلّه سوى شرشفٍ واسعٍ خفيفٍ ورقيقٍ جدًّا بحيثُ يغدو على شكل غشاءٍ مستقبِلٍ.

أتلقّى الموجات التي تأتي من بعيد وتتلاقى حتى تصل إليّ. العشرات من الكائنات الحيّة بأحجامٍ مختلفة، وبأشكالٍ مختلفة ترتعش وتتنفّس وتفكّر وتُرسل رسائلها بلغتها الخاصّة، وتجعلني أهتزُّ مثلما يجعل طنين الذباب سطح شبكة عنكبوتٍ يهتزّ من بعيد.

أبقيتُ عيني مغمضتين، وأصغيتُ بكلّ حواسي الجسدية والعقلية.

هنا على سبيل المثال، أحسُّ بموجةٍ.

لا شكّ في أنّ هناك كائنًا يفكّر في دائرة إحساسي.

شعرتُ بوجود كائنٍ قلق الذهن.

فتحتُ عينيّ، بحثتُ عن مصدر الإرسال، تقدّمتُ في الاتجاه الذي تردُ منه الإشارة.

بعد ذهني، عيناي هما اللتان قامتا بتحديد باعثة التفكير القلق ذاك.

إنّي أراها الآن. إنّها جميلة جدًّا.

واصلتُ التقدّم، بخطوات صغيرة.

جهازي البصري وجهازي السمعي يكملان تحليلي الذهني.

كان عبقُ عطرها الطبيعي لطيفًا.

تتفحّص عيناها الواسعتان البنيّتان القلقتان الأرجاء.

تتناول بأطراف شفتيها قطعة من الحلوى المغطّاة بالكريما. وجهها رفيق وأسنانها بيضاء لامعة. أصابعها ذات الأظافر الطويلة المطلية باللون الأسود مضطربة، ومتوتّرة فوق قطعة الحلوى.

إنّها حقًّا في غاية الجمال.

لو أنّي رأيتُها سابقًا لربّما اعتقدتُ، في حالة مماثلة، أنّها كانت تتعمّد ألّا تنظر إليّ، وأنّها تُغيظني لكي تختبر ردّة فعلي. ولكن بفضل حالتي الجديدة من تنامي وعيي، رأيتها على شكلٍ بسيطٍ من الحياة المليئة بالطاقات، والتي عليّ أن أستطيع التواصل معها.

يكفي العثور على الطول المناسب للموجة.

فلنقترب أكثر.

ركّزتُ تفكيري وأطلقتُ فكرة متميّزة جدًّا تجاهها:

صباح الخير، آنستي.

ولأنّها لم تردّ على تحيّتي، أرفقتُ فكرتي بخطوةٍ إلى الأمام. طقطق خشب الأرضية، فأدارت رأسها وقزّت مرعوبةً لرؤيتي. انتابها القلق، ففرّت من المكان تاركة قطعة الحلوى خاصّتها. هربت بكلّ قوّة فخذيها الجميلين المعضّلين.

لحقتُ بها.

إنّها رياضية. ركضت بخطواتٍ واسعة.

حاولتُ ألا أتخلّف عنها بعيدًا. حتى أنّي نجحتُ في كسب أرضٍ. وأصبحتُ أرى الآن تفصيلًا كان قد فاتني حتى الآن، والذي يُساهم في سحرها الذي لا يُمكن إنكاره: كان لها ذيلٌ طويلٌ رفيعٌ ووردي.

أرسلتُ فكرةً جديدة وأنا أركزّ تفكيري جيّدًا:

صباح الخير، أيتها الفأرة.

أسرعتْ في ركضها.

هيه، *انتظري! لا أريد بكِ شرًّا، لا يهمّني أنّكِ كنتِ تسرقين الحلوى، أنا أودّ فقط أن أتكلّم معكِ.*

زادت من سرعتها.

لا، لا تذهبي!

كان ذيلها الوردي يستدير خلفها. حقًّا هذه الفأرة رشيقة جدًّا. أنا أحبّ الكائنات التي تحرّك جسمها بتناغمٍ.

حسنًا، سيكون عليّ أن أمسك بها إذا ما أردتُ التوصّل إلى حوارٍ مُرْضٍ. أسرعتُ بدوري، فأسقطتُ على الأرض الطاولة الصغيرة المدوّرة في المطبخ، ولامستُ مزهريةً في الصالون، وخمشتُ السجّادة بمخالبي حتى أتوقّف.

في غمرة حماستي، بالكاد تمكّنتُ من الانعطاف إلى اليسار، ومن ثمّ إلى اليمين، وانزلقتُ على الأرضية المصقولة دون أن أسيطر على نفسي تمامًا، واستعدتُ توازني من خلال التشبّث بمخالبي بالأرضية. كانت الفأرة قد أصبحت بعيدة، ولكنني كنتُ لا أزال أراها، متسلّلة لتختبئ خلف الباب الموارب للقبو.

أسرعت على الدرج المؤدّي إلى القبو. لحقتُ بها.

أصبحنا الآن بين الغسّالات وعربات الدفع والحقائب واللوحات القديمة وقوارير النبيذ. ليس هناك سوى ضوء شحيح –شعاعٌ رفيع خارجٌ من منفَس القبو–، ففتحتُ عيني وسع حدقتيهما قدر ما استطعت (فتحولّتا من شقّين رفيعين إلى دائرتين واسعتين) واستطعتُ بذلك أن أتحرّك وسط شبه العتمة السائدة.

نحن، معشر القطط، نجيد تحقيق هذا النوع من الإنجاز.

حتى أنّي استطعتُ أن أرى آثار بصماتها على الأرضية المغبرة. فتتبّعتها لبعض الوقت، ثمّ اختفت تلك الآثار من أمامي.

أغمضتُ عينيّ، وأذناي في أقصى درجات التأهّب لكي أحدّد مكان الفأرة بفضل سمعي المرهف. ومن ثمّ أطراف شواربي هي التي اهتزّت وأتاحت لي تدقيق المعلومة.

إنّها هنا.

أبعد بقليل، وجدتُ في الواقع آثار البصمات المؤدية إلى شرخٍ في الجدار، قريبًا جدًّا من كيس الحطب.

تقدّمتُ بخطوات متمهّلة لا يُسمَعُ لها صوتٌ.

هل أنتِ هنا، أيّتها الفأرة الصغيرة؟

سمعتُ صوت نبضات قلبها الذي يدقّ بقوّة. من شدّة القلق، كانت قد انتقلت مباشرة إلى مرحلة الذعر التامّ.

انحنيتُ ورأيتُ أنّها مختبئة في جحرٍ ليس أكثر سعةً من قطر كفّي.

كانت ترتعش بكلّ جسمها، وعيناها جاحظتان، وفكّاها مفتوحان بمقدار النصف، وذيلها ملتفٌّ على بعضه أمام كفّيها.

أيمكن أن أكون أنا من أرعبتُها إلى هذه الدرجة؟ فما أنا إلّا قطّة فتيّة.

أعتقدُ أنّ سنواتٍ من سوء التفاهم بين جنسينا لا تساهم البتّة في التغلّب على الريبة المتبادلة وعدم ثقة أحدنا بالآخر. ركّزتُ تفكيري وأرسلتُ رسالة تخاطرية متبوعة بخرخرة ذات أمواجٍ بترددات منخفضة.

لا أُريد قتلكِ وإنّما أرغب ببساطة أن أتحاور معكِ من عقلٍ واعٍ إلى عقلٍ واعٍ.

تراجعت أكثر لكي تلتصق بقاع جحرها. كانت ترتعش بقوّة كبيرة بحيث كنتُ أسمع صوت أسنانها التي كانت تصطكّ.

انتقلتُ إلى نمط الخرخرة، على تردّدٍ متوسّط.

لا تخافي.

أصبح تنفّسها أكثر عمقًا ودقّات قلبها أكثر سرعةً، كما لو أنّ هذه الفكرة، التي لوحِظَت، كانت تؤدّي إلى تأثيرٍ معاكسٍ للتأثير الذي كنتُ أسعى إلى إحداثه. ومع ذلك، أحسستُ أنّي أوشك على الوصول إلى غايتي.

لا تصدّقي أنّ...

وفي هذه اللحظة، جعلني دوي انفجارٍ أقفز من مكاني. وقد جاء الصوت من خارج منزلي، من الشارع. وقد تبعت الصوتَ مباشرة أصواتُ مفرقعاتٍ قويّة أخرى، ثمّ صرخاتٌ حادّة.

صعدتُ حتى الطابق الأوّل، وخرجتُ إلى شرفة الغرفة، وحاولتُ، من نقطة الرؤية المرتفعة تلك، أن أرى ما الذي يُثير هذا الاضطراب.

رأيتُ رجلًا يرتدي ثيابًا سوداء يلوّح بما يشبه عصًا يشعّ طرفها بومضات صغيرة باتجاه بشرٍ صغار يخرجون من عمارة كبيرة يعلو بابها علمٌ باللون الأزرق والأبيض والأحمر.

سقط بعضهم على الأرض ولم يقوموا بعد ذلك. وركض الآخرون في كلّ الاتجاهات بينما ظلّ الكائن البشري الذي يرتدي ثيابًا سوداء يُحدِثُ انفجاراتٍ بعصاه. وحينما بدا أنّ هذه العصا لم تعد تعمل، ألقى بها وسط البشر الصغار الذين صرخوا وانهاروا على الرصيف، ثمّ بدأ يركض.

لحق به بشرٌ آخرون في الشارع ونجحوا في الإمساك به، عمليًا أمام باب بيتي. تضاربوا بقبضاتهم وأقدامهم.

ظهرت في تلك اللحظة سيارات من كلّ حدبٍ وصوب، بينما دوّت أصوات الصيحات والآهات في كلّ الجهات.

ثمّ نُقِل الرجل ذو الثياب السوداء في سيارة صاخبة جدًّا يدور فوق سقفها ضوءٌ أزرق. في هذه الأثناء، تجمّع الحشد حول بيتي وحول العمارة ذات العَلَم. توقّفت الصيحات أخيرًا، ولكن البشر ظلّوا يتكلّمون بسرعة وقوّة، وأحسستُ بانفعالٍ مثل سحابة ملموسة: الألم. تأهّب بعضهم كلّ اثنين معًا، يتكلّم أحدهما وفي يده كرة، ويُضيئها الآخر بمساعدة جسمٍ يعلوه مصباح. يتحدّث البشر الذين يحملون الكرة بلغتهم، فقط قبالة الجسم، ثمّ ينطفئ المصباح.

وصلت شاحنة بيضاء يوجد فوقها أيضًا مصباحٌ أزرق وأصدرت بدورها ضجيجًا مريعًا. التُقِطَ الشبّان من على الأرض، ثمّ وضِعوا داخل هذه المركبة. وعلى نحوٍ غريزي، امتصصتُ ما استطعت من هذا السواد

ومن الأمواج المنبعثة من هذه الحادثة. امتصّ كلّ جسمي العدوانية والألم وإحساس البشر الحاضرين بالظلم. خرخرتُ لكي أنظّف المكان قبالتي. شعرتُ بكلّ الاهتزازات المحيطة، ولم أستطع الامتناع عن أن أحتار بشدّة.

يا لها من تصرفات غريبة. لم يسبق أن رأيتهم يفعلون هذا من قبل. ما الذي عساه أن يكون حدث حتى يتصرّفوا بهذه الطريقة؟

أحبّ البشر كثيرًا، ولكنني لا أفهمهم دائمًا.

-3-

خادمتي

البشر ليسوا مثلنا.

من الناحية الجسدية، هم أصلًا مختلفون. يسيرون على أرجلهم الخلفية في وضعية عمودية مستقرة تمامًا والتي ظلّت على الدوام تثير حيرتي. إنّهم أكبر حجمًا وأطول قامةً. تنتهي أذرعهم الطويلة بأيادٍ هي الأخرى تنتهي بأصابع ذات مفاصل، مع أظافر مسطّحة ليست قابلة للسحب. جلدهم مغطى بنُسجٍ، وآذانهم المسطّحة والمستديرة تقع على الجانبين، وشواربهم قصيرة جدًّا، وليس لهم ذيلٌ مرئي. وبدل المواء، يصدرون أصواتًا من حناجرهم مصحوبة بنقرٍ من اللسان. تفوح منهم رائحة تشبه رائحة الفطر. وهم، بشكلٍ عامّ، صاخبون ومتخبّطون، مع شعورٍ بالتوازن محدودٍ جدًّا.

لطالما قالت لي أمّي على الدوام: «لا تثقي بالبشر، إنّهم متقلّبون لا يمكن التنبؤ بأفعالهم».

في هذه اللحظة بالضبط، وصلت «كائنتي البشرية الخاصّة» وهي تشقّ طريقها بين الحشد المتجمّع أمام منزلي.

خادمتي نموذجٌ جميل من الإناث. لها شعرٌ غزيرٌ وطويل بنيّ ولامع، مضبوبٌ برباطٍ مطاطيّ أحمر جميل جدًّا.

اسمها ناتالي. عبرت الباب، وهي تُمسك بأقصى ما تملكه من قوّة بصندوقٍ كبيرٍ من الورق المقوّى بين ذراعيها. ولكي أُظهر لها بأنّي لو كنتُ أستطيع لساعدتها، ركضتُ أتعرّج بين قدميها، وأنا أطقطقُ بلطفٍ بأسناني.

تفاجأت وترنّحت وكادت أن تسقط أرضًا، ثمّ استعادت توازنها وأطلقت أصواتًا عديدة، سمعتُ من بينها اسمي «باستيت» (وقد استنتجتُ أنّ هذا هو اسمي من خلال طريقة توجّهها إليّ بالكلام). جعلتني نبرة صوتها أعتقدُ أنّها ترغب في أن تلعب معي. فتقدمتُ فجأةً خطوة إلى الجانب وفاجأتها. هذه المرّة، سقطت متمدّدة بكلّ طولها على الأرض مع صندوقها. بصراحة، يا لها من فكرة أن يسير المرء منفردًا على طرفيه الخلفيين.

اقتربتُ واحتككتُ بها وأنا أخرخر، على أمل أن توافق على أن تداعبني لكي تشكرني على هذه المزحة التي تُظهر المستوى العالي لتفاهمنا. تفوّهت ناتالي ببضع كلماتٍ بلغتها غير المفهومة. من خلال نبرة صوتها، أحسستُ أنّها هي أيضًا أُصيبت بالقلق من جرّاء ما حدث في الخارج. عرضتُ عليها في الحال لحظة استرخاء من خلال اللعب بحذاءٍ يتحرك والذي عضضته - شممتُ منه رائحة عرقٍ بشري حامضة بعض الشيء ولكنّها لطيفة جدًّا. ولكنّها، بدل ذلك، نهضتْ وهزّتْ الصندوق الكرتوني، كما لو أنّها تتحقّق من حال ما في داخله.

ولمّا اطمأنّت، واصلت سيرها متقدّمة نحو الصالون.

ما هي هذه اللعبة الجديدة، الثقيلة والمُربكة؟ لقد تخيّلتها: دبدوبٌ كبير، أو دمية مع جرسٍ، أو حتى كرة من الأسلاك الكهربائية. أنا أحبّ كثيرًا لعبة كرات الأسلاك الكهربائية.

بينما كانت تفتح الصندوق الكرتوني، لمحت أنّ بداخله لوحة ضخمة سوداء اللون بحوافٍ حادّة. وقد أمضت نصف الساعة التالية من الوقت في تثبيتها على الجدار. حينما انتهت من تركيبها، صعدتُ إلى الطاولة، وتفحّصتُ اللوحة عن قرب. ولمستها.

كانت عبارة عن قطعة من المونوليث[1] كئيبة وباردة، ولا تبثّ أيّ موجة.

تثاءبتُ لكي أجعلها تفهم أنّ هذه الهدية لا تهمّني في شيء.

في المقابل، بدت ناتالي، التي ظلّت مضطربة، منشغلة للغاية بالقطعة الجديدة التي اقتنتها.

1- المونوليث: قطعة ضخمة من الصخر موضوعة داخل مبنى. المترجم

حينما أشعلتها، انبعثت منها بقعٌ ضوئية ملوّنة ودوّت أصواتٌ غريبة. جلست في الأريكة واستخدمت علبة سوداء لتغيير الألوان والأصوات الصاخبة المنبعثة.

تثاءبتُ على نحوٍ ظاهرٍ أكثر وألمحتُ إلى أنّي جائعة. لا أحبّ أن أكون جائعة.

ومع ذلك، وبدل أن تهتمّ بي، جلست خادمتي أمام مصباحها الجداري الغريب وبدت أنّها مسحورة مثل فراشة مبهورة بلهب مصباح.

ركّزتُ على حالتها الذهنية وحاولتُ أن أفهم مشاعرها. بدت مصدومة. فنظرتُ إلى البقع الضوئية الملوّنة على اللوحة السوداء وأدركتُ أنّ الدوائر الحنطية هي وجوه بشرية تتعاقب مع صور سيارة أو بشرٍ يسيرون. ومن خلال التفحّص على نحوٍ أدقّ، استطعتُ أن أتعرّف على المشهد الذي شاهدته في وقتٍ سابقٍ من النهار. هناك المبنى مع العلم الثلاثي الألوان بالأزرق والأبيض والأحمر. بل ورأيتُ الشخص الذي كان يرتدي ثيابًا سوداء في اللحظة التي أُمسِكَ به وأُدِعَ في السيارة التي كانت تصدر ضجيجًا وتبعثُ ضوءًا أزرق. كان الصوت الصادر من هذه اللوحة السوداء هو تعاقبٌ لأصوات بشرٍ يتكلّمون بسرعة.

أظهر مشهدٌ، أطول من سواه بقليل، شبانًا ممدّدين وسط بُرَكٍ حمراء. تسارع الصوت على نحوٍ متزايد بنبراتٍ غاضبة.

لفرط ما ركّزتُ على ذهن خادمتي، واستمعتُ وشاهدتُ، أدركتُ فجأة أنّ منْ تراهم ناتالي داخل هذه النافذة المضيئة هم شبّانٌ ليسوا ممدّدين فقط، بل أمواتٌ تمامًا.

وقد استنتجتُ من ذلك أنّ البشر ليسوا خالدين أبدًا.

وكانت هذه معلومة مهمّة، كنتُ أجهلها حتى الآن.

تُرى هل اقتنت ناتالي هذا المونوليث لكي ترى الكائنات من نفس جنسها وهم يموتون؟

جلستُ على ركبتيها الفاترتين لكي أحسّ على نحوٍ أفضل بمشاعرها، وأحسستُ، في الواقع، بأنّها قلقة ومضطربة. كانت خادمتي في نفس الحالة

الارتعاشية التي كانت عليها الفأرة الصغيرة التي كنتُ ألاحقها منذ قليل في القبو. كانت مذعورة، ويتزايد انفعالها باضطراد، وتختلج تيارات الطاقة فيها بفوضوية. ولذلك، مثلما حاولتُ أن أتواصل مع الفأرة، خرخرتُ وبعثتُ رسالةً: *لا تخافي*.

ولكن، هنا أيضًا، حصلتُ على ردّ فعلٍ وتأثيرٍ عكسيين. فقد رفعت صوتها وارتكبتْ الفعل الأسوأ: أشعلتْ سيجارة.

أنا أكره السجائر. فهي تبعثُ دخانًا دبقًا يتسلّل إلى فروتي ويجعل لها مذاقًا مرًّا حينما ألعقها.

ولكي أُظهر لها احتجاجي على التدخين، غادرتُ ركبتيها وذهبتُ إلى المطبخ وقلبتُ وعاءَ طعامي وأخذتُ أموء لكي أذكّرها بأنّ عليها واجبات أكثر أهمية من قصص الكائنات من جنسها البشري مثل، على سبيل المثال، واجب إطعامي.

لم تحرّك ساكنًا، فأصبحتُ أموء بصوتٍ أقوى.

نهضت ناتالي أخيرًا، ولكن بدل أن تهتمّ بي وتنشغل بأمري، حبستني في المطبخ الذي كنتُ قد لجأتُ إليه في انتظار وجبتي. ثمّ سمعتها وهي تعود وتجلس في أريكتها وترفع صوت اللوحة المضيئة.

كم كانت هذه الأنانية من طرف فردٍ من المفروض أنّه يخدمني مرعبة! وأنا أكره أن يتصرّف كائني البشري بهذه الطريقة.

قفزت على الباب، وغرزتُ مخالبي في خشبه. ولكن عبثًا. وقد بدا لي تحسين تواصلي مع خادمتي البشرية هدفًا له الأولوية أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

وإذ لم أكن أعلم كم من الوقت ستبقى على هذه الحال، مخطوفة الأبصار إلى لوحتها المونوليث المضيئة، تسلّقتُ الخزانة ووصلتُ إلى كيس أطعمتي الخاصّة وحاولتُ أن أمزّقه بأنيابي. لسوء الحظّ، كان الكيس متينًا، واضطررتُ إلى أن أحاول مرارًا وتكرارًا قبل أن أعثر على زاوية الولوج إلى الأطعمة.

بالطبع، في اللحظة نفسها التي نجحتُ فيها أن أثقب الكيس، فُتِحَ الباب وظهرت ناتالي من جديد، مندفعةً، لكي تسكب الأطعمة في إنائي.

تناولتها وأنا أقرطُها بلذّة بين فكيّ.

حينما شبعتُ أخيرًا، عدتُ مرّة أخرى إلى الصالون.

جلست كائنتي البشرية من جديد أمام اللوحة المضيئة التي واصلت بثّ نفس المشاهد مرارًا وتكرارًا. لاحظتُ أنّ سائلًا شفّافًا يسيل من عينيها. وساءت ارتعاشاتها تدريجيًا. لم يسبق لي قط أن شاهدتها في هذه الحال.

صعدتُ على ركبتيها، ولعقتُ وجنتيها بلساني الخشن. كان لذلك السائل مذاقٌ مالح أحسستُ من خلاله بتأثّرها. انتهى التدفّق السائلُ إلى التوقّف: وعلى اللوحة الجدارية، تغيّر المشهد. وظهرت بعد ذلك مجموعة، تُرى من الأعلى، من البشر وهم يلعبون بكرة. كانوا يلاحقون بعضهم وهم يركلون الكرة بأقدامهم بدل الإمساك بها بأيديهم. وكانت تُسمع في الخلفية أصوات المئات من البشر الذين كانوا يشتمون على الأرجح هؤلاء البُلهاء.

في البداية، بدا أنّ هذا المشهد قد أحزن ناتالي، ثمّ شيئًا فشيئًا، أراحها، وفي النهاية أبهجها. بعد مضي بعض الوقت، انتهى بها المطاف إلى إطفاء اللوحة المضيئة، الأمر الذي قطع تلقائيًا الأصوات البشرية وجميع الأصوات الأخرى التي كانت تنبعث منها.

نهضت ناتالي، وذهبت إلى المطبخ، وتناولت طبقًا من الحساء الأخضر، وأطعمة أخرى، صفراء، ووردية وبيضاء، وشربت سائلًا أحمر، ووضعت صحنها في غسّالة الأطباق، وتحدّثت بالهاتف، واستحمّت استحمامًا سريعًا، ونتفت شعر شاربيها بملقط شعر (وهذا تصرّفٌ لن أفهمه أبدًا. فهي إذ تفتقر أصلًا للتوازن، إذا ما نتفت شعر شاربيها، سوف تسقط أرضًا أكثر من ذي قبل وستكون غير قادرة على تلقّي الموجات الخارجية)، ووضعت مرهمًا أخضر اللون على وجهها وراحت تنام وهي تُطلق تنهيدة عميقة.

وفي هذه اللحظة بالذات، تدخّلت. اقتربتُ بهدوء، وقفزتُ إلى السرير، وأخذتُ مكاني فوق صدرها. شعرتُ بقلبها يخفق بسرعة. أنا أعشق الإحساس مباشرة بقلوب الآخرين. تكوّرتُ على نفسي، وبدأتُ أخرخر وأنا أركّز تفكيري لكي أرسل إليها رسالة تخاطرية.

اهدئي.

بدت ناتالي مستمتعة بحضوري وخرخرتي. داعبتني بدورها ولفظت جملًا. من بين كلماتها، تعرفتُ على اسمي «باستيت»، وهي تهمسُ به بنبرات مختلفة. ثمّ قامت بحركة أعشقها: رفعت الفروة الموجودة تحت رقبتي بإصبعها. فرفعتُ ذقني لكي أقدّم لها أوسع مساحةً للمداعبة.

توقّفت، وتأمّلتني، ورمشت وابتسمت لي عبر المرهم الأخضر الذي يغطّي وجهها.

وانتهيت إلى أنّي أدركتُ أنّه حينما يميل فم كائنٍ بشري نحو الأعلى فهذا يعني أنّه سعيد. وحينما يتكلّم بقوّة ويردّد اسمي وهو يحرّك إصبعه، فهذا يعني أنّ الأمر ليس على ما يُرام.

تقلّبتُ وقدّمتُ لها بطني، ولكنّها لم تفهم في الحال الرسالة واستمرّت تداعب رقبتي. فهززتُ رأسي دون أن أكفّ عن الخرخرة وباعدتُ بين رجليّ. وكانت مشكلة ناتالي هي أنّها مدمنة على مداعبة فروتي على نحوٍ وسواسي، وهي تفعل ذلك كيفما كان ودون أن تأخذ بالحسبان رغباتي الآنية.

وافقت خادمتي في النهاية على أن تمرّر يدها على بطني، وهي تمنحني أحاسيس مريحة جدًّا. لعقتُ يدها ومن ثمّ الأماكن التي داعبتها لكي أمنح نفسي مذاقها ورائحتها. حينما نامت، تحرّرتُ من بين يديها وذهبتُ لأستقرّ فوق وسادتها، بجانب شعر جمجمتها، لكي أحاول أن أبثّها أفكاري.

في المستقبل، يا ناتالي، أتمنى:

1. أن أتحاور معكِ لكي تشرحي لي ما جرى في العمارة المقابلة مع ذلك الرجل ذي الثياب السوداء الذي كان يُصدر ضجيجًا.
2. أن تشرحي لي ما هذا المونوليث المضيء الذي نرى فيه بشرًا موتى ونسمع منه أصواتًا.
3. أن تقدّمي لي طعامًا حالما ألحقُ بكِ دون أن تدعيني أنتظر.
4. أن تكفّي عن إشعال السجائر التي يلتصقُ دخانها الدبق بفروتي.
5. أن تداعبي بطني حالما أقدّمه لكِ.
6. والأهمّ ألّا تغلقي الأبواب عليّ أبدًا، فهذا يحصرني في منطقة من الشقّة، وأنا أكره هذا.

كرّرتُ الرسالة مرّات عديدة لكي أزيد من فرصي في أن يُفهَم ما أقصده.

في الخارج، اكفهرّت السماء، فقد حلّ الليل. وبما أنّي كائنٌ ليلي، لم أنوِ البقاء جامدة في السرير مثل خادمتي. فذهبتُ إلى مرصدي الاستراتيجي للمراقبة، في توازنٍ على سلّم شرفة الطابق الثاني (كان هذا يجعل ناتالي في غاية الغضب بشكلٍ عامّ، ولكنني كنتُ أرغب في أن أُثير قلقها لكي أتأكّد من تعلّقها بي).

أصبح الشارع مغلقًا منذ تلك اللحظة بسياراتٍ تُرسلُ أضواءً زرقاء. تناثرت الموجات السالبة. مُدّت أشرطة صفراء حول المكان لمنع مجموعات البشر المُتجمعين على جانبي الشارع. حضر خمسة أشخاص يرتدون بذلات بيضاء وأخذوا يتفحّصون أرضية الشارع ويلتقطون مختلف الأشياء الصغيرة المتناثرة على الأرض. خطّ أحدهم رسومات بيضاء على الإسفلت، في حين غطّى آخرُ بُقع الدم المتناثرة بمسحوقٍ بلون الصوف.

رفعتُ رأسي، راقبتُ، ونخرتُ، وشممتُ، وأصغيتُ.

هبّت الرياح قويّة وهزّت أوراق الشجر. في حقل رؤيتي، تبيّنتُ شيئًا ما جديدًا ومثيرًا للاهتمام. كان البيتُ المجاور، المهجور منذ بضعة أشهرٍ، مُضاءً الآن. رأيتُ ظلًّا يتحرك خلف ستارة الطابق الثاني. اجتاز الخيال باب الشرفة الموارب وجاء يأخذ مكانه على حافة سور شرفته، في مواجهتي تمامًا.

عينٌ زرقاء، رأسٌ بفروة سوداء، وما تبقّى من الجسم مغطّى بوبرٍ رماديٍّ كاشفٍ، وأُذنان مدبّبتان. إنّه قطٌّ سيامي جاء هو الآخر يُراقب الشارع والرجال ذوي البذلات البيضاء. التفت نحوي وحدّق فيّ على نحوٍ جليّ.

-4-

جاري الغامض

أحبّ اللقاءات الجديدة.

إنّ ذكرًا ينظر إليّ بهذه الطريقة، لا بدّ أنّه يرغب في لفت انتباهي. هذا ليس الأوّل، ولن يكون الأخير. ومرّة أخرى، تحرّكت جاذبيتي رغمًا عني.

وافقتُ على أن أموء في اتجاهه، ولكن وسط دهشتي الكبيرة لم يبادلني القطّ الفاحش المواء. أنا أحبّ القطط السيامية، على الرغم من أنّه يجب الاعتراف في الوقت ذاته بأنّها قططٌ مغرورة ومتعجرفة.

اتّخذتُ وضعيتي الودّية: مصوّبة أذنيّ إلى الأمام على نحوٍ خفيف، وفاردة شعر شواربي واسعًا على الجانبين، ورافعة ذيلي بشكلٍ عمودي.

أمّا هو، فلم يغيّر شيئًا في وضعيته.

في الحالة الطبيعية، حينما يتمّ التقليل من احترامي في هذا الشأن، أنصرف. ومع ذلك، ليس لديّ شيءٌ أفعله في الليل وأنا فضولية بشكلٍ طبيعي، فابتلعتُ كبريائي واستعددتُ لكي أقفز إلى الشرفة المجاورة.

تكوّمتُ على نفسي، وحددتُ هدفي، وبعد دفعٍ وتمدّدٍ، انطلقتُ فوق الفراغ الممتدّ بين بيتينا، وباعدتُ بين أصابعي ومخالبي. حلّقتُ مدّة نصف ثانية. كانت المسافة طويلة، وأسأتُ تقدير قفزتي. تخلّفت لبضعة سنتمترات عن السور الذي كنتُ أنوي الهبوط عليه. سبحتُ في الهواء.

احتكّت مخالبي بالمعدن ولكنّها لم تجد ما تتشبّث به. ظلّ القطّ السيامي يراقبني دون حراك.

كانت الإهانة كاملة.

تمسّكتُ، لحسن الحظ، بالدالية المتعرّشة، وتمكّنتُ، بفضل المخالب الخادشة، من التسلّق إلى الشرفة.

ظلّ القطّ السيامي بدون أيّ ردّ فعلٍ.

وأخيرًا بلغتُ هدفي، فتسلّقتُ وسرتُ فوق السور، وتقدّمتُ نحوه وأنا أموء.

ظلّ لامباليًا تمامًا.

لمّا اقتربتُ منه، رأيته على نحوٍ أفضل. إنّه قطٌّ سيامي لا بدّ أنّه، نظرًا إلى منظره العام، في حوالي العاشرة من عمره (وبالنسبة إليّ التي لا أبلغ سوى ثلاث سنوات، يُعتبرُ قطًّا عجوزًا). لاحظتُ تفصيلًا مدهشًا، فقد كانت هناك لوحة بلاستيكية، بنفسجية اللون، مثبّتة على قمّة جمجمته.

متغلبةً على حساسيتي، شرعتُ في الحديث معه كما لو أنّ شيئًا لم يكن.

- أأنت الجار الجديد؟

لم يعطِ جوابًا. ومع ذلك أحسستُ بموجات دافئة جدًّا.

- هل يمكننا أن نتحادث معًا؟ أنا أسكنُ في الجوار وأنا سعيدة بأن يكون هناك قطٌّ في المنزل الأقرب إلى بيتي.

لعق كفّه ثمّ مرّره على أذنه اليمنى، في إشارةٍ إلى تفكيرٍ خفيف. واعتبرتُ ذلك قبولًا منه. لا بدّ أنني أعاني من صعوبات كثيرة في التواصل مع الآخرين حتى أفشل مع كائنٍ يتكلّم لغتي نفسها.

- ما هذه اللوحة البنفسجية في قمّة جمجمتك؟

حدّق فيّ ثمّ وافق أخيرًا أن يُجيبني.

- هذه عيني الثالثة.

- وماذا تكون «عينٌ ثالثة»؟

- إنّها عبارة عن قابس الناقل التسلسلي (يو إس بي) يتيح لي الاتصال بالحواسيب من أجل التواصل مع البشر.

هل سمعتُ جيّدًا؟

- إنّه... ماذا؟

لم أشأ أن أعترف بأنّي متخلّفة عن معارفه، ولكنّه لم يكلّف نفسه حتى عناء تكرار الاسم.

نزع القلنسوة البلاستيكية البنفسجية بكفّه، وخفض رأسه ودعاني للاقتراب لكي أتبيّن بنفسي.

انحنيتُ ورأيتُ فتحةً مستطيلة تمامًا محاطة بإطارٍ معدني منغرزٍ مباشرةً في داخل جمجمته.

- هل هذا جرحٌ ناجمٌ عن حادث؟ لا بدّ أنّه يؤلمك.

- كلا. هذا أمرٌ تطوّعي وعمليّ جدًّا.

- وماذا تقول للبشر بهذه العين الثالثة؟

واصل لعق كفّه وتمريره خلف أذنه.

- لا شيء.

- إذًا، ما فائدة هذا؟

- أنا لا أقول لهم شيئًا، ولكن، هم يعلمونني الكثير. وبهذا أستطيع أن أفهم كيف تسير الإنسانية، ومن خلالها كلّ الكون.

وقد لفظ هذه الجملة بنبرة منفصلة جدًّا بحيث إنّي تفاجأت بثقته وغروره. ولكن ليس ما رواه وإنّما الأسلوب الذي تحدّث به هو ما فرض عليّ الاحترام. هل من الممكن أنّه يستطيع بالفعل أن يفهم البشر؟

- أمّا أنا، فأحاول التحدّث إليهم، إلى البشر، ولا يفهمون سوى القليل من معاني كلامي. هذا المساء، نسيت خادمتي أن تُطعمني في الوقت المحدّد وحبستني في غرفة لم يكن بوسعي الخروج منها بمفردي. وكلّ هذا لكي تراقب لوحة كبيرة سوداء مثبّتة على الجدار، تبثّ ضوءًا وتصدر ضجيجًا. وأنا بدوري نظرتُ جيّدًا إليها، وفهمتُ في النهاية أننا نرى، في هذه اللوحة السوداء، بشرًا آخرين... موتى!

تنفّس القطّ السيامي مستلهمًا كما لو أنّه يبحث عن النبرة الأكثر ملاءمة لكي يتحدّث بها إليّ. أخرج لسانه الطويل الوردي ليبلّل شفتيه.

– إنّ لوحتك السوداء الجدارية تُسمى، في لغتهم «تلفزيونًا».

– لنقُلْ ذلك. في هذا «التلفزيون» كانت هناك صورٌ لأحداثٍ وقعت هنا بالذات، في الشارع. وقد حضرتُ تلك الأحداث بنفسي. بعد الظهيرة، حضر رجلٌ يرتدي ثيابًا سوداء واستخدم عصا لكي يُثير ضجيجًا.

– هذا يُدعى «بندقية»، وإذا كانت الانفجارات متتالية، فالأمر يتعلّق على الأرجح بـ«بندقية رشّاشة».

– سقط الشبّان الخارجون من العمارة ذات العلم على الأرض.

– العمارة ذات العلم هي «روضة أطفال» والبشر الصغار هم أطفال، تلامذة هذه المدرسة.

– ثمّ ألقى الرجل ذو الثياب السوداء الشيء الذي كان في يده وفرّ من المكان، والبشر الصغار الذين سقطوا على الأرض لم ينهضوا.

– هذا طبيعي. لقد أصابهم بجروحٍ أو أرداهم قتلى. لقد جاء تحديدًا لكي يفعل هذا.

– بعد ذلك أمسك بشرٌ آخرون بالرجل ذي الثياب السوداء ونُقِل بسيارةٍ ذات ضوءٍ أزرق.

– الشرطة.

– ووصلت شاحنة أخرى، كانت بيضاء ولها هي الأخرى ضوءٌ أزرق. خرج منها رجالٌ ليضعوا البشر الصغار على نقّالاتٍ ونقلوهم.

– سيارةُ إسعافٍ.

– ثمّ وصل بشرٌ آخرون وتوزّعوا مثنى مثنى ليضيئوا وجوههم.

– لا بدّ أنّهم صحافيون. هؤلاء هم الذين يعطون المشاهد التي شاهدتها خادمتكِ فيما بعد في التلفزيون.

– ما معنى هذا المشهد؟

– البشر يمرّون في أزمة. إنّهم واقعون في دوّامة من أعمال العنف التي تزداد حدّة يومًا بعد آخر والتي، من وجهة نظري، لن تتوقّف في وقتٍ قريب. إنّ أفرادًا مثل هذا الرجل ذي الثياب السوداء يأتون لكي يقتلوا عشوائيًا بشرًا آخرين. هذا يُدعى «الإرهاب».

– ما مصلحتهم في أن يقتلوا بعضهم بعضًا؟

– يُتيح هذا إحداث صدمة عاطفية قويّة جدًّا وبالتالي جذب انتباه الآخرين إلى قضيتهم، وخاصّة من خلال الصور التي يبثّها التلفزيون. هذا شكلٌ من التواصل.... حينما يشعر البشر بالخوف، يكونون أكثر حذرًا وأكثر قابلية للتلاعب بهم.

– لم أفهم.

– برأيي، ما يُحضَّرُ له هو أسوأ بكثير: الحرب. الإرهاب ليس سوى طُعم، لا يعني سوى بضع عشرات من الأشخاص، أمّا الحرب فهي من أجل إفناء مئات الآلاف منهم، بل والملايين. وأنا أعتقد أنّها ستُعلَن عمّا قريب.

حكّ أذنه بكفّه، بضرباتٍ خفيفة.

لم أكن متأكّدة من أنني أفهم كلّ الكلمات التي يستخدمها لأنّه لم يبذل أيّ جهدٍ للحصول على مفردات متاحة، ولكنني فهمتُ الفكرة العامّة، فاستمررتُ حتى لا أُظهِر له أنّ حديثه يتجاوز مستوى فهمي.

– ما أعرفه هو أنّ الإرهـاب والحرب يجعلان الماء يسيل من عيني خادمتي.

– هذا يُدعى «بُكاء». البشر يبكون حينما يكونون حزانى. وما يسيل من عيونهم ليس ماءً، إنّها «دموعٌ». لقد تذوّقتِ طعمها وكانت مالحة، أليس كذلك؟

عليّ أن أعترف بأنّ ثقته ومعارفه المدهشة أبهرتني.

– في تلفزيونها، ليس هناك فقط بشر موتى، هناك أيضًا بشرٌ كانوا يلعبون الكرة وآخرون من حولهم يصرخون. هل تفهم هذا الوضع أيضًا؟

– هذه «كرة القدم»، إنّها رياضة جماعية.

– ولكن لماذا ليست هناك كرة واحدة لكلٍّ منهم؟

– هذا أمرٌ متعمّد من أجل خلق رهانٍ ومنافسة.

– لا بدّ أنّ عدم وجود سوى كرة وحيدة لكلّ هذا العدد من الأشخاص يُصيبهم بالإحباط ويُثير غضبهم، ويمنحهم الرغبة في الجري في كلّ اتجاه، أليس كذلك؟

– في الواقع، إذا كانت هناك كرة واحدة فقط فهذا لكي يحاولوا وضعها في شباك مرمى الفريق الخصم. هذا يكسبهم نقاطًا، وهذا يُثير، بشكلٍ عامّ، إعجاب المشاهدين. حينما شاهدتْ خادمتكِ ذلك، توقّفت عن البكاء، أليس كذلك؟

– في الواقع، بدت أنّها مرتاحة وسعيدة في اللحظة التي فيها وصلت الكرة إلى الشبكة.

– يقول البشر إنّهم يكرهون الحرب وإنّهم يحبّون كرة القدم، ولكنّهم، برأيي، يُعجبون بالاثنتين. وإلّا لما قُدِّمَت بهذه الكثرة في الأخبار التلفزيونية. وهذه الألعاب لا تُقاطع بالإعلانات التجارية.

عبّر القطّ السيامي عن رأيه بصوتٍ محايدٍ كما لو أنّ كلّ هذا كان واضحًا وجليًا. راقبته. كان شعر شاربيه طويلًا ومتميّزًا، ويشي بالدفء.

– هل قلتَ إنّك تعرف هذا لأنّه لديك عينٌ ثالثة على رأسك؟

– في الواقع، هذا القابس لناقل المعلومات الذي ينتمي لأحدث جيلٍ يُتيح لي أن أكون موصولًا إلى حاسوبٍ وأن أستقبل معلوماتٍ. لقد سبق وأنْ أخبرتك بذلك بالفعل، على ما يبدو لي.

أزعجتني هذه النبرة الاستعلائية، فابتلعتُ ريقي امتعاضًا، ولكن الفضول كان أقوى من كبريائي.

– ماذا؟

– حاسوبٌ، وهو عبارة عن آلة إلكترونية معقّدة أصل من خلالها إلى المعرفة التفصيلية لعالمهم ولعالمنا أيضًا. قبل ذلك، كنتُ مثلكِ، جاهلًا. نحن معشر القطط، نفتقر إلى الرؤية، في الزمن كما في المكان. لا نصل في غالب الأحيان، سوى إلى مصدرٍ محدودٍ للمعلومات: ما نراه، وما نسمعه، وما نحسّ به من خلال حواسنا الجسدية وأحاسيسنا النفسية. وهذا حقلٌ صغيرٌ جدًّا للمعارف ينحصر بشكلٍ عام في شقّةٍ، وبعض الأسطح، وحديقة، وشارعٍ. أمّا البشر، فيمكنهم تلقي الأحداث من ما وراء حواسهم الجسدية بفضل العديد من الأدوات الحديثة: التلفزيون، المذياع، الحاسوب، الصحف، الكتب.

استأنف القطّ السيامي لعق كفّه وحكّ خلف أذنه بعدم مبالاةٍ. اعتقدتُ أنّه يسخر مني، ربّما لأنني جعلتُ نفسي مدعاة للسخرية بقفزتي الفاشلة والتي جعلتني أرسو على الدوالي المتعرّشة. نفضتُ نفسي وحاولتُ أن أستعيد هدوئي.

– أما أنا، فأريدُ أن أجري حوارًا مباشرًا معهم. من فكر قطّة إلى فكر إنساني. لن أتلقى فحسب، بل سوف أبثّ أفكارًا بالمقابل.

– هذا مستحيل.

أغاظني بغروره وعنجهيته. وحاولتُ ألا أفقد برودة أعصابي.

– لقد أجريتُ بالفعل حوارًا أوّليًا.

– ليست لديكِ عينٌ ثالثة. وحتى إذا كانت لديك واحدة، فأنا أضمن لكِ، يا جارتي العزيزة، بأنّها لن تفيد سوى في الاستقبال، وليس الإرسال. المعارف تصدر عن البشر إلى القطط، وليس العكس.

تنفّستُ عميقًا، في محاولة لكي أحافظ على هدوئي وعزيمتي:

– من خلال الخرخرة، أبثّ أفكارًا مهدّئة. فتكفّ خادمتي البشرية عن البكاء ويرتفع فمها من جانبيه.

واصل لعق كفّه الأيمن لكي يمرّره خلف أذنه كما لو أنّ حضوري لم يكن مهمًّا على الإطلاق.

فجأةً ناداه صوتٌ بشري من الطابق السفلي: «فيثاغورس! فيثاغورس!».

بعد أن أدار رأسه بلا مبالاة نحو الجهة التي منها صدر الصوت، نزل جاري عن سور الشرفة، وعبر النافذة وانصرف ذاهبًا على الأرجح إلى خادمته.

لم تبدر منه حتى إشارة وداع. شعرتُ بالغضب والاستياء.

قرّرتُ، من أجل العودة إلى منزلي، أن أجرّب القفز في الاتجاه المعاكس. بعد أن هدأتُ واستقررتُ جيّدًا، حدّدتُ اتجاهي وهدفي، ووضعتُ أقصى طاقتي في الاسترخاء، انطلقت، وتمدّدتُ، محلّقة في الفراغ بين البيتين. حلّقتُ في الهواء لمسافة بالكاد تزيد عن المسافة التي قطعتها في القفزة السابقة. وكان الوصول ناجحًا نجاحًا تامًّا.

للأسف لم يكن هناك أحدٌ لكي يُعجب بصنيعي. وهذه مأساة كلّ حياتي. حينما أنجح، لا أحد يكون موجودًا ليرى نجاحي، وحينما أخفق، هناك شهودٌ على الدوام على إخفاقي.

عبرتُ باب الشرفة الذي لم يكن مغلقًا وذهبتُ لأجد مجددًا ناتالي التي كانت تشخر بصخب. راقبتها وأنا أملّس شاربيّ.

يجب أن أنجح في خلق حوارٍ حقيقي معها، والذي لا بدّ أن يكون في الإرسال أيضًا وليس فقط في الاستقبال. وبهذه الطريقة، سوف يرى هذا الجار المتعجرف (ماذا كان اسمه؟ آه نعم... فيثاغورس، يا له من اسمٍ غريب) سوف يرى جيّدًا بأننا نستطيع التواصل في الاتجاهين مع أجناس أخرى من الحيوانات.

وبغية استرضاء شريكتي المستقبلية في الحوار بين الأجناس، قلتُ في نفسي بأنّه سيكون من المناسب أن أذهب إلى الفأرة في القبو وأجلبها لها. أنا متأكّدة من أنّه سوف يسعدها أن تراها بالقرب من قدميها، حينما تستيقظ. إنّ فأرةً لا تزال ترتعش هي أجمل هديّة يمكن لقطّةٍ أن تقدّمها لكائنٍ بشري.

-5-

عن صعوبة تقاسم الأرض

أشرقت الشمس وبدأتُ أغفو حينما لوى صراخٌ الشعر الطويل لأذنيّ.

لقد اكتشفت ناتالي هديّتي.

سوى أنّ هذه الصرخة لم تكن تشبه صرخة الغبطة. لقد سمعتُ اسمي يتكرّر عدّة مرّات بنبرة عاتبة. يبدو أنّها لم تُعجبها هديّتي. لحقتُ بها بعدم مبالاةٍ وقلق، في حين لا تزال الفأرة ترتعش رعشات الاحتضار اللذيذة والتي لا بدّ أنّها تثير الرغبة لدى أيٍّ كان في اللعب معها للحظةٍ، لأراها وقد أمسكت بمجرفة ومكنسة لكي تضعها في سلّة المهملات، وقد منعتني بذلك من تناولها لكي أقضي عليها. أمّام كلّ هذا الجحود، أبديتُ امتعاضي بالخرخرة.

لم تدع خادمتي نفسها ترتبك ووضعت بعصبية مأكولاتي في وعائي. اعتقدتُ أنّ هذه المأكولات كانت تعويضًا لي عن حرماني من الفأرة.

اعتقدتُ أنّ تصرفها الملتبس قد يكون مرتبطًا بالتأثير السيئ لهذا التلفزيون الذي أبكاها من خلال عرضه أمامها الإرهاب والحرب. أمّا بالنسبة إليّ، فقد أصبحتُ متحمّسة للغاية لكي أعرف من الآن فصاعدًا المعنى الدقيق لهذه المعلومات بفضل جاري فيثاغورس.

حينما ارتدت ناتالي ثيابها، غادرت المنزل. بقيتُ من جديد وحيدة في البيت، فاستغللتُ الفرصة، بعد أن شبعت، لكي أنام أخيرًا. فالنوم رغم كلّ شيء هو غرامي الأوّل. حلمتُ أنني آكل.

استيقظتُ كما هي عادتي بعد منتصف الظهيرة، في حين كان شعاعٌ من

الشمس يلعق جفني الأيمن. تمطّيتُ إلى الحدّ الأقصى، فطقطقت فقرات عمودي الفقري، وتثاءبت.

عليّ أن أعمل حركات التمدّد خاصتي حتى أكون متأكّدة من أنني لن أكرّر أبدًا، أبدًا وبتاتًا، القفزة الكارثية التي قفزتها يوم أمس. حركات مدّ وسحب المخالب لتحسين سرعة سحب سلاحي.

لعقتُ نفسي. أنا أعشق لعق نفسي (لطالما قالت لي أمّي إنّ «المستقبل سوف يكون لمن يلعق نفسه بسرعة»). واستغللتُ ذلك لكي أفكّر في ما سأفعله اليوم. نحن، القطط، نرتجل باستمرار. بكلّ تأكيد، كنتُ أرغب في مواصلة الحديث مع جاري السيامي، ولكنّه لم يبدُ أبدًا أنّه كان مهتمًا بشخصي، وأنا على كبرياءٍ بالغٍ لا يسمح لي بأن أستجدي أيًّا كان (وخاصّةً من ذكرٍ...). وبالتالي قررتُ أن أواصل بمفردي أبحاثي حول التواصل بين الأجناس وذلك بانكبابي على عينة أكثر بدائية:

السمكة الحمراء في حوضٍ موضوعٍ في المطبخ.

ذهبتُ إليها، وتفحّصتُها عبر الزجاج الذي يفصل بيننا. على الأرجح أنّها خافت، فقد تراجعت لتأخذ مكانها في أبعد ما يمكنها عنّي.

صباح الخير، أيتها السمكة.

وضعتُ كفيّ على الزجاج وأغمضتُ عينيّ لكي أُرسِلَ رسالتي التخاطرية. وبدأتُ بالخرخرة.

كانت ناتالي تناديها «بوسيدون». قلتُ في نفسي هذا يعني أنّ السمكة قد سمعتْ هذا الاسم مرات عديدة وبالتالي سوف تفهم على نحوٍ أفضل أنني أتوجّه إليها إذا ما أسميتها بشكلٍ صحيح في ذهني.

صباح الخير، يا بوسيدون.

غاصت سمكة كارب الصغيرة، البرتقالية ذات الزعانف الجانبية العريضة بسرعة في زخرفها المصنوع من الصخور الزائفة في الحوض بحيث أصبح من المستحيل تقريبًا أن أتبيّنها.

منْ عساه يجرؤ على ذكر أضرار الخجل؟

من جديد أرسلتُ رسالة محمولة على خرخرتي. ماذا قلتُ لها؟ «لا

تخافي»؟ كان من شأن هذا أن يشير إلى أنّه هناك بالفعل خطرٌ ما. يجب أن أجد شيئًا مختلفًا. لقد وجدتها، أعرف ما الذي يجب بثّه:

أنا مستعدة أن أتحاور معكِ على قدم المساواة، حتى وإن لم تكوني سوى سمكة.

هذه هي الرسالة المناسبة، ولكنّها لم تستجرّ ردّ الفعل الإيجابي.

هذه المرّة، غاصت بوسيدون في زخرفها الحجري عميقًا جدًّا بحيث لم يعد يُرى شيءٌ من جسمها. وكم كان محبطًا لي أن أتبيّن أنّ جهودي قد قوبِلت بهذه الطريقة السيئة جدًّا.

وإذ لم أشأ الاستسلام، ولكنني كنتُ مدركة لصعوبة مشروعي، وضعتُ كفيّ على حافة الحوض وضغطتُ بكلّ ثقلي إلى أن جعلتُه يميل قليلًا، الأمر الذي أتاح إفراغ القليل من ذلك الماء الذي يفصل بيننا. وفي ذهني أنّ الحوار سوف يجري على نحوٍ أفضلٍ بكثير إذا ما كان الاتصال مباشرًا.

ولكنني أسأتُ تقدير وزن الحوض الذي راح، على نحوٍ مفاجئ، ينقلب. وبالكاد حظيتُ بالفرصة لكي أقفز جانبًا لكي أتجنّب البلل. محمولةً بالماء، خرجت بوسيدون في النهاية من مخبئها ومن الحوض.

ها هي قد وقعت أخيرًا على الشرشف. كانت تتحرّك في كلّ الجهات، كما لو أنّها ترقص. هنا، قلتُ في نفسي إنّي على الأرجح قد خطوتُ خطوة كبيرة إلى الأمام وإنّي قد اكتشفتُ للتوّ طريقة التعبير عند الأسماك. لقد أدّت في الواقع، بشق الأنفس، سلسلة من القفزات الصغيرة وهي تفتح فمها وتغلقه، ولكن من دون أن تبثّ أيّ صوت. كانت خياشيمها تنبض بسرعة، كاشفة عن مناطق حمراء لامعة.

وأخيرًا سنستطيع أن نتحدّث، يا بوسيدون. شعرتُ بموجاتها ولكنني لم أنجح في تفسيرها.

استطاعت، وهي تتلوّى، أن تصل إلى حافة الطاولة. وإذ لم أفهم شيئًا مما أرادت أن تشير به إليّ، وضعتُ كفّي مباشرة عليها، الأمر الذي منعها من القفز وزاد من وتيرة حركات فمها.

وضعتُ نفسي في حالة الاستقبال القصوى.

أنتِ جائعة، هل هذا صحيح؟

راضيةً عن اكتشافي، قلبتُ الإناء المليء بالديدان المجفّفة التي كانت ناتالي تقدّمها لها كطعام.

ولكنّها لم تأكلها.

انتظرتُ، واختبرتُ، ولمستُها بباطن كفّي، ثمّ برأس مخلبٍ ممدود، وخرخرتُ.

اهدئي.

بعد مضي لحظة، توقّفتْ عن التخبّط. تمنّيتُ لو أنّها قد خضعت لأوامري، ولكن هيهات، انفتحت خياشيمها وانغلقت على نحوٍ متسارعٍ أكثر من ذي قبل. لم تبدُ في حالة جيّدة على الإطلاق. ومرّة أخرى كان مآل التواصل فشلًا. ومع ذلك احتفظتُ بالأمل في إيجاد نوعٍ حيٍّ آخر قادرٍ على خوض حوارٍ مرضٍ معي. في الوقت الحالي، يجب الإقرار بأنّ الأكثر تقبّلًا تبقى خادمتي البشرية، التي تستجيب على نحوٍ إيجابي لخرخراتي ذات التوتّر المنخفض.

في اللحظة التي فُتِحَ فيها باب المدخل، عادت ناتاليا. هذه المرّة، كانت تحمل ما يشبه حقيبةً مغلّفةً بشبكٍ تصدر منها أصوات حادّة. تساءلتُ في نفسي حول الهدية التي ستقدّمها لي. فتحتْها بسرعة لكي تُخرج منها قطًّا!

لقد نفختُ فيها الكثير من الراحة والهناء مساء البارحة من خلال الخرخرة لكي أُريحها وأساعدها على النوم بحيث باتت تعتقد أنّ القطط بشكلٍ عامّ هي التي تساعدها على أن ترتاح.

رأيتُ على السجادة قطًّا أبيضَ من فصيلة الأنغورا ذات العرق النقي. ابتسمت ناتالي لي وبدت مبهورة بعرض كرة الوبر هذه وهي تكرّر كلمة لا بدّ أنّها اسمه: «فيليكس». أيضًا هدية خائبة.

بدا الفرد غبيًّا بعض الشيء. حينما رآني، بدل أن يتقدّم مطأطئ الرأس لكي يُظهر بأنّه يُدرك أنّه على أرضي، ظلّ يحدّق فيّ بعينيه الصفراوين.

آه، كم أكره الأعراق النقيّة! علاوة على ذلك، كان لون فرائه غير جذّابٍ.

كان أبيض بالكامل. أنا على سبيل المثال، فرائي أبيض مع العديد من البقع السوداء الجميلة جدًّا والمتناثرة على كلّ أنحاء جسمي.

أمّا هو، فقد كان باهتًا. وبره طويل وسميك ودهني. كيف لناتالي أن تكون على هذه الدرجة من الذوق الرديء حتى تختار لي قطًّا ذكرًا من فصيلة الأنغورا أبيض الفراء وأصفر العينين؟

أظهرتُ في الحال عدم اهتمامي به من خلال رفع ذيلي وكشف مؤخرتي له. ولكن هذا الغبي أساء فهمي. وبدل أن يفهم رسالتي الرافضة له، اعتقد أنني راغبة في نكاح.

هذا هو بالضبط غباء الذكور من ذوي العرق النقي!

اضطررتُ إلى أن أضربه بكفّي، وأنا أمدّ مخالبي تجاهه، لكي أجعله يُدرك أنني أنا من يقرّر بشأن كلّ ما يجري هنا.

في هذه الأثناء، تحدّثت ناتالي بنبرة حميمية جعلتني أفكّر أنّها تعتقد أنّي مبهورة بواجب اقتسام كلّ شيء مع هذا الغريب الذي حضر هنا من مكانٍ مجهول. وكردٍّ على ذلك، سدّدتُ إلى القطّ ضربة أخرى بكفّي ومخالبي الممدودة وأعطيته إشارة بكلّ وضوح:

«أنت لا تُعجبني. اغرب عن وجهي».

وفي الحال، اتّخذ هيئة الخضوع. وفي كلّ الأحوال، من غير الوارد أن يُفرَض عليّ شريكي.

في هذه الأثناء، اكتشفت خادمتي البشرية مصير بوسيدون، وقبل أن تجرؤ على توجيه أيّ لومٍ إليّ (أنا أكره أن يحاول أحدهم أن يُشعرني بالذنب)، قرّرتُ مغادرة الغرفة لكي أنتقل إلى الطابق العلوي. فما جرى كان في الحقيقة خطأ تلك السمكة البليدة وليس خطئي أنا. لو أنّها تحاورت معي، لما وصلنا إلى ما نحن عليه.

اعتقد فيليكس أنني أريد أن أجعله يزور أقسام المنزل، فلحق بي وهو يقفز، منتصب الذيل.

حينما حاول القيام بمقاربة غرامية جديدة، قوّستُ ظهري ومُؤْتُ مكشّرًا

عن أنيابي في وجهه. اعتقدتُ بأنّه قد أدرك مع أيّ نوعٍ من الإناث يتعامل. ولكنّه أظهر هيئة خضوعٍ أكثر وضوحًا من ذي قبل، متحاشيًا نظراتي، ودافعًا أذنيه إلى الخلف، أملس الفرو، ضامًّا ذيله هذه المرّة قرب جسده، مقرفصًا، راح يموء بصوتٍ خافت.

آه! هؤلاء الذكور، إنّهم يتبخترون دائمًا ويختالون، ولكنّهم في النهاية هم جميعًا أفرادٌ ضعفاء، من السهل إثارة إعجابهم، حالما تكون الأنثى عارفة ما تريده، ولكن خاصّة حينما تعرف ما لا تُريده.

استغللتُ وضعيته لأتبوّل على رأسه، لكي يُدرك جيّدًا من يضع القواعد هنا (ومن ثمّ بهذه الطريقة، سوف يلتصق وبره بعينيه).

تكلّم معي، وبالكاد أصغيتُ إليه، ولكنني وافقتُ على أن أخوض بداية حوارٍ مع هذا الغريب الغبي لكي أجعله يعرف أنّ ليس لديه الحقّ في الاقتراب من وعاء طعامي وأنّ عليه أن يأكل طعامه بعد أن أنتهي من تناول طعامي.

وفي الوقت ذاته، ليس لديه الحقّ أن يتبوّل أو يتبرّز في صندوق فضلاتي. وإذا لم تفكّر ناتالي في تقديم صندوقٍ خاصٍّ إليه، سيكون عليه أن يمتنع عن قضاء حاجاته أو يخرج من البيت لفعل ذلك.

أشرتُ له إلى أنّ نافذة غرفة الطابق الأوّل تتيح تفحّص الشارع. انتبهتُ آنذاك إلى أنّ المدرسة لا تزال مغلقة الأبواب. لم يعد هناك شريطٌ أصفر يغلق الشارع، ولم يعد هناك رجالٌ يرتدون بذلات بيضاء يلتقطون قطع المعدن، وإنّما كدسٌ من باقات الزهور، وشموعٌ وصورُ بشرٍ صغارٍ أمام الباب. لا بدّ أنّهم وضعوا هذه الزينة أثناء نومي.

ألقى فيليكس نظرة سريعة على المشهد وسألنا عمّا يحدث هناك، ولكنني لم أكلّف نفسي عناء أن أشرح له ظاهرة معقّدة مثل ظاهرة الإرهاب. ليست لدي الموهبة التي يمتلكها فيثاغورس.

غيّرتُ الموضوع وأشرتُ له أنّ في الطابق الثاني هناك شرفة تتيح الوصول إلى أسطح المنازل المجاورة، ولكن عليه أن يكون حذرًا لأنّ المزراب ليس مثبّتًا بطريقة مُحكَمة.

وصلنا بعد ذلك إلى أمام غرفة ناتالي، وبفضل ضربة جديدة من مخالبي

خمشتُ جلد ذقنه، جعلته يفهم أنّه لا ينبغي عليه أبدًا أن يدخل إلى هذه الغرفة، ولا أن يأمل في أن ينام مع خادمتي. ولكي يكون كلّ شيء واضحًا بالفعل، وضعتُ في كلّ المناطق التي حظرتُ عليه دخولها بعض القطرات من البول الفائح بالروائح. وكان عليه هو أن يستنتج أنّه لا يستطيع أن يتحرّك إلّا في هذه المناطق التي حدّدتها له، إذا ما استطاع قطٌّ من فصيلة الأنغورا صافي العرق أن يمتلك أدنى حسٍّ بالاستنتاج.

نزلنا من جديد، وأريتُ فيليكس أين يوجد مكاني على الأريكة مع الوسادة المخملية الحمراء التي تحمل رائحتي. وأريته سلّتي، التي تحمل هي أيضًا رائحتي، والموضوعة على دعامة تعلو جهاز التدفئة. وبالطبع لا ينبغي له أن يقترب من أيّ من هذه الأمكنة.

في النهاية، راح يتكوّر على نفسه في ركنٍ من الممرّ، ولم يعد يُبارحه.

في المساء، اكتشفتُ نشاطًا بالقرب من باب مدخل المنزل. فركضتُ في الحال لأراقب ما يحدث. فتبيّن لي أنّ ذكرًا قد جاء لزيارة خادمتي. وكانت تردّد ما هو، على الأرجح، اسم الرجل «توماس».

كان أطول قامةً منها، وشعره أشقر، وعيناه خضراوان، تفوح منه رائحة مسكية لمزيل العرق. لديه يدان كبيرتان، وقدمان كبيرتان، وفي يده باقة زهورٍ. أثار امتعاضي حتى وهو لا يزال بعيدًا عنّي.

ومع ذلك، وبدل أن تشعر ناتالي بنفس رعشة النفور التي انتابتني أمام هذا الشخص، قرّبتْ شفتيها من شفتيه وانتهى فماهما بأن التصقا ببعضهما. لن أفهم أبدًا عادات البشر. ثمّ مسّد نهديها وردفيها.

وبدل أن تدفعه، ضحكت راضيةً، كما لو أنّها تشجّعه على الاستمرار في ذلك.

وفي النهاية، هدأ هياجهما، وراحا يجلسان في الصالون. وبعد انقضاء بعض الوقت، تناولا الطعام على صينية وهما يشاهدان اللوح الجداري الذي يسمّى التلفزيون. كانا يحدّقان بعيون مثبتة ويتنفّسان بسرعة. بدا ناتالي وتوماس متأثرين بمناظر تُظهر بشرًا مقطوعي الرؤوس وبشرًا آخرين

يصرخون ويردّدون معًا العبارات نفسها وهم يرفعون قبضاتهم. الآن وأنا أستطيع أن أفكّ على نحوٍ أفضل رموز هذه المناظر، تأكّدتُ أنّ الحشد لا يزال يصرخ بنفس النبرات التي تتعلّق بالحرب أو كرة القدم، وعلى الأرجح لتشجيع أفضل المشاركين فيها.

ارتجفت ناتالي، ثمّ انتهى بها المطاف بالبكاء. قبل أن أحظى بفرصة المجيء للعقها، ألصق ذكرها من جديد فمه بفمها، قبل أن يمسك بيدها ويقودها إلى الغرفة، التي أغلق بابها خلفهما.

من خلال الأصوات الصاخبة والروائح الفائحة، أدركتُ أنّهما منخرطان في فعلٍ تكاثري. لا بدّ أنّ هذه ردّة فعلٍ من الجنس البشري: حينما يموت البشر بكميات كبيرة، يحاولون أن يعوّضوا خسارة الأفراد من خلال إنجاب بشرٍ جددٍ.

ندمتُ للحظة على قسوتي مع فيليكس ودعوته إلى القبو. في عتمة ذلك المكان، الذي تفوح منه رائحة فضلات الفئران والغبار، كشفتُ له أنّ لديّ مشروع حياةٍ ضخم يتضمّن إقامة تواصلٍ بين الأجناس، وأنني أتمنى، في إطار هذا المشروع، أن أنجح ذات يوم في إعطاء الأوامر المباشرة إلى البشر، من خلال المواء بجملٍ، لكي لا يكون هناك غموضٌ.

كانت نظرته الصفراء فارغة. قال لي بأنّه لا يرى أهمية لفهم البشر، ولا التحدّث معهم. يا له من كائن محدود الأفق!

والأسوأ من ذلك، هو أنّه يبدو سعيدًا بما هو عليه: من دون طموح، من دون فضول، في عالمه الصغير البائس كقطّ أنغورا أبيض، دون أدنى رؤية بشأن العالم المحيط به.

كان فيثاغورس على حقّ، الكثير من بيننا يكتفون بالعالم الصغير الضيّق للمنزل الذي يقيمون فيه. يُطمئنهم جهلهم ويُقلقهم فضول الآخرين وحبّهم للمعرفة. يريدون أيامًا متشابهة، يكون الغد فيها أمسًا آخر، وكلّ ما يجري يتكرّر.

فتخلّيتُ عن فكرة توعية فيليكس وإشراكه في مشاريعي.

ولأنني أحسستُ أنّي متوتّرة قليلًا، عرضتُ عليه أن يجعل نفسه نافعًا وأن

يقوم بممارسة الحبّ مع جسدي. لم يتمنّع. أحسستُ أنّه يلج إلى داخلي. أحسستُ أنّ الشويكات النافرة لقضيبه تتصلّب داخل فرجي، وهو ما كان مؤلمًا بما فيه الكفاية ولكنني شدّدتُ على فكّي. هاج فيليكس وارتجف: اتّضح أنّه شريك جنسي رديء. لم يكن لديه أيّ حماسٍ متّقد، ولا أيّ خيالٍ، حتى أنّه لم يعضّ رقبتي في حين أنني أعشق أن أحسّ بأنياب حادّة وهي تنغرز في قفا رقبتي.

أثناء تصاعد الرغبة فكّرتُ في فيثاغورس لأستلهم.

ربّما هذا هو الاختلاف الرئيسي بين النشاط الجنسي للبشر والنشاط الجنسي للقطط. بالنسبة إلينا، نحن نحتاج إلى مشاعر لأجل ممارسة الحبّ، في حين أنّه بالنسبة إلى البشر ليس سوى فعلٍ متكرّر يُفيد في الارتخاء والارتياح عندما يكونون متوتّرين جدًّا أو قلقين من أجل إنقاذ النوع.

أُثير فيليكس سريعًا، مع طاقة أساء احتواءها.

لا يزال لا يجيد توجيه مشاعره اتجاهي. الاحتكاك يغيظني. أطلقتُ مواءً لأقول إنّ على الأنغورا أن يطلق صرخة نشوة. بلغ الذروة. كانت مدة العملية قصيرة، بالكاد تجاوزت بضع عشراتٍ من الثواني.

في الحالة الطبيعية، أرغب كثيرًا، بعد ممارسة الجنس، أن أتكلّم، ولكنني فضّلتُ هذه المرّة أن أبقى وحدي، فأشرتُ إليه أن يغادر المكان، ولحسن الحظّ، لم يُلحّ على البقاء.

فكّرتُ من جديد بالقطّ السيامي، فقد أثار بالفعل إعجابي، وراودني السؤال طيلة المساء: كيف يستطيع أن يعرف كلّ هذه الأشياء التي أجهلها؟ صعدتُ لأستقرّ على سور شرفة الطابق الثاني لكي أراقب الشرفة المجاورة. ولأنّه لم يَظهَر، مُؤْتُ لكي أناديه. أحسستُ أنني ألمح خيالًا ما خلف ستائر الغرفة، فتساءلتُ: تُرى أيكون «هو»؟

مع ذلك، ورغم أنّ النافذة كانت مفتوحة قليلًا، لم يُظهر نفسه لي. أنا متأكّدة من أنّه سمعني، وإذا كان قد بقي مختفيًا خلف الستائر فذلك لأنّه لا يرغب في استئناف النقاش معي.

ربّما أنّه ندم على تزويدي بكلّ هذه المعارف حول البشر.

إلّا إذا كنتُ أُرعبه.

كنتُ أودّ كثيرًا أن يستمر في شرح ماهية الإرهاب لي، وأن يتحدّث أيضًا عن هذه الحربِ التي ستصل تدريجيًا إلى هنا ولكننا لا نراها الآن إلّا في التلفزيون.

توقّفتُ عن المواء وأرجعتُ فيليكس لكي يُكرمني أكثر، لكي يُريحني. أمّا بالنسبة إليك أنت، يا فيثاغورس، فأنا أعرف أنني سوف أظفر بك، ذات يوم، لأنّه لا شيء يوقِف قطّة إذا عزمت على نيل شيء.

لا أُحبّ أن يزدريني أحدٌ.

-6-

في « منزله »

كلّ يوم، يحدثُ شيءٌ ما في العالم. وأشعرُ كلّ يوم أنّ عليّ أن أكون متنبهة لما قد يجلب لي هذا الحدث ما هو إيجابي أو ما هو سلبي.

بعد الهجوم على المدرسة، ووصول التلفزيون، وتذوّق دموع ناتالي، واللقاء مع فيثاغورس، ووصول فيليكس، اعتقدتُ أنني نلتُ نصيبي من الأحداث غير العادية في الأسبوع. ولكنّ القصّة، مع ذلك، واصلت تسارعها. تُرى هل يمكن أنّ الكون، في أعقاب القرار الذي اتّخذته في التواصل معه، يردّ عليّ من خلال إرسال إشارات إليّ؟

اليوم، استيقظتُ بعد الظهر وذهبتُ إلى الشرفة. جاء عصفورٌ، من فصيلة الدوري، يزقزق بالقرب منّي. كان تغريدًا رخيمًا جدًّا تشوبه رعشاتٌ ذات ذبذباتٍ خفية.

قلتُ في نفسي إنّ هذا الطائر ربّما يُريد التواصل وإننا معًا، وإذ نمثّل الأكثر جرأة بين جنسينا، سوف ننجح أخيرًا هنا حيث أخفقتُ مع الفئران والبشر والسمك.

مشيتُ في اتجاهه، في توازنٍ على حرف الشرفة. تركني العصفور الدوري أقترب وهو ينظر إليّ بالتناوب بعينه اليمنى وبعينه اليسرى (عيناه تقعان على جانبي رأسه وبالتالي لا يستطيع أن يحدّق في أيّ شيءٍ يقع قبالته مباشرةً).

خرخرتُ بتحيته: *صباح الخير، أيها الدوري.*

لم يتحرّك من مكانه وأجاب مزقزقًا بنغمةٍ أكثر تناغمًا من ذي قبل. تُرى هل يُمكن أنّه قد فهِم وهو يُجيبني الآن؟ واصلتُ الاقتراب منه.

ووسط دهشتي الكبيرة، تراجع قافزًا على قائمتيه الصغيرتين. فاقتربتُ أكثر بقليل.

هل يمكننا أن نتحاور مع بعضنا بعضًا؟

لم يُجب واستقرّ على طرف زاوية الشرفة. أعرف أنني سأصل قريبًا إلى منطقة أواجه فيها خطر السقوط. في الحالة الطبيعية، أستطيع أن أتمسّك جيّدًا، ولكن من هذا الارتفاع، الأمر ليس مضمونًا، ونحن القطط لدينا عظام رقيقة، وبالتالي هشّة.

تراجع أكثر قليلًا وأطلق زقزقة طويلة معقّدة مصمّمة جيّدًا: كما لو أنّها دعوة.

برز سؤالٌ على نحوٍ مفاجئ في جمجمتي: ألا يكون هذا الدوري على وشك أن يستغلّ رغبتي في الحوار بين الأجناس لكي ينصب لي فخًّا؟ كلّما أصغيتُ إليه وهو يزقزق، توصّلتُ إلى استنتاجٍ بأنّه لا يهتمّ بي على نحوٍ واضح.

بينما اقتربتُ من المنطقة الخطِرة، طار فجأةً، تاركًا إيّاي في حالة توازنٍ هشّ على حافة الشرفة. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المخلوق القذر أراد أن يستغلّ حبّي للتواصل لكي يحاول إسقاطي. التقطتُ أنفاسي (حتى وإن لم يكن هناك خوف، وحتى إن لم يكن هناك ضرر)، ومن هناك، أرغمتُ نفسي على التفكير في أمرٍ آخر حتى لا أدع غضبي يتصاعد.

تفحّصتُ شرفة بيت فيثاغورس. كم بدا لي ذاك المكان مثيرًا للاهتمام!

فجأةً، في الجهة المقابلة، انفتح باب المدخل وخرجت منه أنثى بشرية ذات شعرٍ أبيض، وخطت بضع خطوات في الشارع وجاءت ترنّ جرس بيتي.

سمعتُ وقع خطوات خادمتي وهي تسير في الرواق مسرعةً وتستقبلها. تحدّثت الأنثيان البشريتان بلغتهما غير المفهومة. ما كدتُ أن أنزل من مكاني المرتفع وأندسّ في الطابق الأرضي لكي أتمسّح بسيقانهما، حتى كانت ناتالي قد ارتدت معطفها، وخرجتا معًا. تجاوزت المرأتان المساحة

الصغيرة الفاصلة بين بيتيهما. لحقتُ بهما في الشارع. كان هناك المزيد من الزهور والشموع وصور الأمس أمام روضة الأطفال.

تسللتُ بين أقدامهما ودخلنا إلى منزله «هو». شممتُ روائح غريبة وسط ديكورٍ فريد.

جلست البشريتان على أرائك، وعرضت ذات الشعر الأبيض على خادمتي ماءً ساخنًا ذا لونٍ يميل إلى الأصفر (التقطتُ رائحته، ولم يكن بولًا) في أوعية. في هذه الأثناء، تمعّنتُ في مضيفتنا - ولاحظتُ أنّ خادمتي تناديها «صوفي». كانت عجوزًا بشرية مليئة بالتجاعيد، ولكنّها ذات عينين كستنائيتين حيويتين وسريعتي الحركة، وتفوح منها رائحة عطر من الورد. سمعتُها تنادي: «فيثاغورس!»، ولأنّه لم يظهر، راحت تجلبه، ثمّ ما أن عادت وضعته أمامي.

تولّد الأمل لديّ من جديد. تُرى هل ترغب خادمتانا أن تكون بيننا، نحن القطّان الجاران، علاقة عاطفية راسخة؟

تشمّمنا بعضنا بشكلٍ متبادل، متظاهرين بأننا نلتقي للمرّة الأولى، وبينما كنتُ أتهيأ للشروع بالحديث، غادر المكان. لحقتُ به إلى مطبخه واستفززته بتناول الطعام في وعائه (بالنسبة إليّ، لا ينبغي لأحدٍ أن يُغضبني، هكذا هو طبعي)، ولكنّه لم يتنازل لأن يمنعني من فعل ذلك، ولا حتى أن ينظر إليّ.

وعلى الرغم من أنّ أطعمته كانت أقلّ لذّة من أطعمتي، تظاهرتُ بأنني قد استمتعتُ بتناولها، ثمّ ذهبتُ وتبوّلتُ في صندوق فضلاته. هذه المرّة أيضًا، لم يفعل أيّ شيء لكي يمنعني من القيام بذلك. على العكس، اختفى كما لو أنّه لا يرى حتى أنني حاضرة. ذهبتُ أبحث عنه، وفي إحدى غرف الطابق العلوي، وقعتُ على قطّة من جنسي مختبئة خلف الباب المزجّج للخزانة. كانت قطّة ذات فراء شبيهٍ بفرائي.

وهي بالإضافة إلى ذلك، أنثى في نفس عمري.

أدركتُ في الحال لماذا لا يهتمّ فيثاغورس بي: لديه أنثاه في البيت.

اقتربت أكثر، وحينما أصبحتُ بقربها، تبيّن لي بوضوح أنّها تحمل صورة قلبٍ صغيرٍ أسود على خطمها وأنّ لها عينين خضراوين. وعلى الرغم من

أنّ فراءها كان من نفس لون فرائي، فإنّ كلّ شيءٍ في قيافتها قد نفرني منها. إنّها بذيئة ومتعجرفة. حدّقتُ فيها بثبات وتقدّمتُ نحوها، وفعلت هي أيضًا الشيء نفسه. اتّخذتُ وضعية التهديد والترهيب، مقوّسةً ظهري، ونافشةً فرائي، لكي أبدو في حجمٍ أضخم. فقلّدتني في ذلك.

كان عليّ الانتقال إلى المرحلة التالية. فمددتُ كفّي إلى الأمام بطريقة عدوانية، ففعلت هي أيضًا ذلك.

اقتربتُ ومُؤْتُ مكشّرًا عن أنيابي. ماءَت مكشّرةً عن أنيابها.

تضاربنا بأكفّنا، ولكن زجاج الباب منعنا من أن نجرح بعضنا بالفعل. كان الزجاج موجودًا لحسن الحظّ، وإلّا كنتُ سأقتلع شوارب تلك القطّة. استدرتُ ورفعتُ ذيلي لكي أُظهر لها ما هو رأيي فيها. وبالطبع، قلّدت نفس حركتي تمامًا.

تخلّيتُ عن إذلالها أكثر وعدتُ إلى الصالون حيث كانت الخادمتان تواصلان حديثهما الطويل. كان فيثاغورس لا يزال غائبًا عن المكان وبدأتُ أشعر أنّي أُهان بهذا الموقف. لماذا يُعاملني بهذه الطريقة؟ أهو بسبب أنثاه التي في الطابق العلوي؟ هل لأنّه يمتلك قلنسوة بلاستيكية بنفسجية على جمجمته والتي تسمح له بمعرفة أشياء عن البشر؟

أحسستُ بالإحباط والغضب، فجلستُ على فخذي خادمتي وتركتها تداعب جمجمتي الجميلة الخالية من عينٍ ثالثة، ثمّ انقلبتُ لكي أعرض بطني الذي داعبته أيضًا. وبذلك أظهرتُ للجميع أنني قد روّضتُ كائنتي البشرية لكي تلبّي رغباتي.

لدى عودتنا إلى البيت، طلبتُ من فيليكس أن يمارس الجنس معي من جديد. وقد استغللتُ ذلك لكي أصرخ بأعلى صوتي وبكلّ حبالي الصوتية لكي يسمع فيثاغورس كم أستمتع ويدرك ما فاته من جراء استعلائه عليّ (أنا متأكّدة من أنّ أنثاه لا تمارس الجنس ببراعة مثلي). ربّما صرختُ بقوّة مبالغ فيها، لأنّه في اليوم التالي، نُقِلَ فيليكس إلى الحقيبة المشبّكة، وحينما عاد بعد مضي بضع ساعات، كان رباطٌ يلتفّ حول حوضه. وقد رأيتُ في وعاءٍ ما ظننتُ في البداية أنّهما بذرتا حبّتي كرز...

حسنًا، عليّ أن أعترف بأنّ ذلك كان إجحافًا بحقّ فيليكس، ولكنني أفضّل أن يكون هو من يخضع للعقاب. ثمّ إنني لا أكنّ أيّ مشاعر لفيليكس. وحده فيثاغورس يُسحرني. بل يجعلني مهووسة به. ما الذي يفعله حتى يمتلك هذه المعرفة الدقيقة بأخلاق البشر؟

سرت رعشةٌ مزعجة في جسدي. تُرى هل يمكن أن أكون بالنسبة إليه مثلما يكون فيليكس بالنسبة إليّ؟ قطّة جاهلة؟ في مستوى من الوعي أدنى منه؟

هذه الفكرة جعلتني أكثر غيرة من تلك القطّة الأنثى.

إذا ما رأيتها في المرّة القادمة، لن أوفّرها.

-7-

منظرٌ من الأعلى

بدا أنّ خصيتي فيليكس العائمتان في الوعاء قد خدّرتاه.

من أين يأتي هذا الانسحار والانبهار من قبل الذكور بهاتين الكرتين الصغيرتين ذاتَي اللون الصوفي؟ كان ينظر إليهما كما لو أنّهما سمكتان، مع فارق أنّهما لا تسبحان، ولكنّهما تدوران على نفسيهما تحت تأثير حرارة جهاز التدفئة القريب.

منذ إجراء العملية له، لم يكفّ فيليكس عن تناول الطعام بشراهة، فسمِن وزاد وزنه. أصبحت نظرته فارغة وأحسستُ أنّه قد أُصيب بدرجة إضافية من عدم الاهتمام بالعالم المحيط به.

أمّا أنا، وعلى العكس منه، أصبحت الأحداث الأخيرة تُثير اهتمامي على نحوٍ متزايد، وأصبحتُ أُراقب من طرف حرف الشرفة ما يحدث في المنزل المجاور، وفي المبنى المقابل الذي يرتفع فوقه العلم. لم أميّز أيّ شيءٍ خاصّ ومتميّز، إن لم يكن شبكة عنكبوتٍ في زاوية من سور الشرفة والتي منحتني الرغبة في أن أحاول مرّة أخرى أن أُقيم حوارًا بين الأجناس.

اقتربتُ من الفرد العنكبوتي ذي اللون البني والحجم المتوسط، المزوّد بثماني أرجل وثماني أعين. جرّبتُ أن أقترب منه مقاربة لطيفة، ركّزتُ تفكيري، ثمّ خرخرتُ: *صباح الخير، أيها العنكبوت*. ولأنّ العنكبوت انطوى على نفسه في زاويةٍ، أخرجتُ مخالبي ومزّقتُ الشبكة التي كانت ذبابة صغيرة عالقة فيها وتصارع من أجل الإفلات منها، والتي لم توجّه لي حتى كلمة شكر.

أعتقدُ أنّ كلّ الأفعال التي نقوم بها تؤدّي حتمًا إلى رضا بعضٍ واستياء آخرين. إنّ العيش والتصرّف يفسدان حتمًا الأنظمة القائمة. أظهر العنكبوت تشنجّات غضبٍ جعلته يرقص على آخر قطعة طافية في الهواء من حطام شبكته. أحسستُ أنّه لا يزال أقلّ حماسةً لحوارٍ محتملٍ، ولكنني لم أشأ أن أستسلم. اقتربتُ منه أكثر، متهيّئةً للمسه، حينما جذب مواءٌ عدواني فجأةً انتباهي.

أعرف هذا الصوت.

انحنيتُ أكثر بقليل نحو اليمين، مجازفةً بالسقوط، ولمحتُ من بعيد فيثاغورس جاثمًا على الأغصان العالية لشجرة كستناء. كان محاصرًا هناك: كان كلبٌ ضخم ينبحُ بشراسة تحت الشجرة.

ماءَ القطّ السيامي بعنف مكشّرًا عن أنيابه وقوّس ظهره، ولكن ما عساه أن يفعل قطٌّ عجوزٌ نحيل في مواجهة كلبٍ بريٍّ ضخمٍ يُعادل أربعة أضعاف حجمه؟

لمحتُ عند الحيوان الذي ينتمي إلى نفس جنسي موجةَ هلعٍ.

من دون أدنى شكّ، لم يكن هناك سواي يستطيع إنقاذه.

لقد حصل اتصالي الأوّل مع الكلاب في متجر الحيوانات الأليفة الذي قضيتُ فيه طفولتي. حينما سمعتُ الجراء تنبح، سألتُ أمّي: لماذا تُصدر هذه الحيوانات كلّ هذا الضجيج. وقد شرحت لي قائلةً: «لأنّها تخاف ألا يتمّ تبنّيها من قبل البشر». بدا لي ذلك أمرًا غريبًا. الخوف من ألّا تؤخذ من قبل البشر! إذًا، هل كانت تفتقر إلى الكرامة؟ هل كانت غير قادرة على تقدير قيمة الوحدة والحرية حتى تحتاج، إلى هذه الدرجة، إلى البشر لكي يعتنوا بها؟

وقد شرحت أمّي لي بأننا أسياد البشر، وأنّ البشر أسياد الكلاب.

ولكن الكلاب أسيادُ مَنْ؟ فأجابتني: «أسياد براغيث تتجمّع على ظهرها حينما تنسى أن تلعق نفسها لكي تنظّف جسمها».

اكتشفتُ فيما بعد، وأنا أتجوّل في أطراف المنزل أنّ الكلاب بدائية جدًّا إلى درجة أنّها تطرح روثها في الشارع، مباشرةً في وسط الرصيف،

حتى دون أن تطمرها بالتراب! ليس لديهم أدنى مبدأ في الحشمة أو في الصحّة والنظافة.

ولكن في الوقت الراهن، الأولوية الطارئة هي إبعاد هذا النموذج المكشّر عن أنيابه والذي يُرعِبُ جاري. عليّ أن أرتجل سريعًا استراتيجية سوف تعوّض دونيتي بقوة شخصيتي.

نزلتُ إلى الطابق الأرضي وخرجتُ إلى الشارع عبر باب الهرّة. هرولتُ لكي أصل إلى مكان الحادثة. للوهلة الأولى، ولكي أقوم بإلهائه، مؤتُ وكشّرتُ عن أنيابي مقوّسةً ظهري.

التفت الكلب واتّخذتُ في الحال وضعية القتال. ثبّتُ أنظاري وضيّقتُ حدقتي عينيّ، وقدّمتُ شواربي إلى الأمام، ولويتُ شفتيّ، وجعلتُ شعر كتفيّ منتصبًا، ورفعتُ مؤخرتي لكي أكون جاهزة للوثوب، خافضة ذيلي إلى الأسفل لكي أكسب الديناميكية الهوائية.

قرأتُ التردّد في نظرة الكلب. ولكي أساعده في تحديد خياره، قفزتُ إلى سقف السيارة الأقرب لكي أصبح مطلّةً عليه. حدّقتُ فيه بطريقة أكثر استفزازية وأنا أموء.

لا أخاف منك.

ثمّ حاكيتُ ضرباتٍ بمخالبي في الهواء، وأضفت:

تعال وقاتل، أيها الكلب.

وقرّر الكلب البري في النهاية أن يلحق بي.

حتى وإن كنتُ نحيفة، رشيقة وسريعة، نادرًا ما أركض في الشارع، وعليّ أن أعترف بأنّ من مطاردي كان موهوبًا بطبيعة الحال بقوّة عضلية فائقة. ركضتُ بسرعة فوق حجارة الرصيف لكنّ الكلب حقّق انتصارًا.

منْ هؤلاء البشر الذين يتركونه في الشارع هكذا، دون قيودٍ أو رقابة؟

حلّلتُ سريعًا الموقف واستخلصتُ منه بأنّه عليّ أن أعتمد على خصائصي المتميّزة. أنا أتحكّم على نحوٍ أفضل بالتغييرات المفاجئة للاتجاه لأنني أمتلك إمكانية إرجاع مخالبي، على العكس من الكلاب. لدي بالتأكيد

تماسكٌ أكثر في المنعطفات. ولذلك انحرفتُ نحو شارعٍ مغطّى بالإسفلت وراوغتُ بين عجلات السيارة المتوقّفة.

ظلّ الكلب يركض خلفي، نابحًا، ومحدّدًا لي بذلك موقعه من دون الحاجة إلى أن ألتفت إلى الوراء.

انخرطتُ في رسم مساري، أخرج في بعض الأحيان قليلًا من بين العجلات لكي أخطو بضع خطوات في المنطقة التي تسير فيها السيارات مسرعةً. لم يعد يعرف مُطاردي أين يركض لكي يُمسكَ بي دون أن يعلَق هو نفسه. في مرّات عديدة، مرّت المركبات قريبة جدًّا منه حتى كادت تلامسه، وانتهى به الأمر إلى الاصطدام بدراجة سكوتر. توقّف، وزمجر، ثمّ استسلم.

التفتُّ إليه ومؤْتُ عليه من بعيد:

هه، أيها الكلب! هل تعبتَ؟

ثمّ عدتُ بهدوء، وأنا أهرول وأحاول في الوقت نفسه أن أرى إن كانت قطط أخرى قد أُعجِبَت بي أثناء هذا السباق. وفي هذه الحالة، أتمايل برأسي متفاخرة. حتى وإن كنتُ أحرز دائمًا انتصارًا متواضعًا، آمل كثيرًا أن تُدعم واقعة انتصاري بأقوال شهودٍ أيًّا كانوا.

لا أعتقد أنّ العلاقات بين القطط والكلاب يمكن لها أن تشهد تغيرًا في العمق من خلال هذا اللقاء القصير، ولكنني قلتُ في نفسي بأنني مع ذلك قد ذكّرتُ هذا الكلب بأنّها ليست مصادفة أن يطيعنا البشر.

لدى عودتي، كان فيثاغورس قد اختفى، دون أيّ إشارة امتنانٍ تجاهي. عدتُ إلى بيتي، محبَطة. ولم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ على فيليكس حينما سألني إلى أين ذهبت.

وفقط عند هبوط الليل، بينما نامت خادمتانا، سمعتُ نداءً صادرًا عن المنزل المجاور. انتظرتُ لقليلٍ من الوقت، بالطبع، قبل أن أقبل بإخراج طرف خطمي.

كان فيثاغورس هناك، على طرف سور الشرفة المجاورة.

وقفتُ أمامه على شرفة بيتي وتفرّسنا في بعضنا.

وجدتُه متميّزًا جدًّا بعينيه الكبيرتين الزرقاوين وبما يحمله على رأسه. ماءَ:

– تعالي!

لم أدعه يكرّر طلبه. ولأنني لم أشأ أن أجازف بالفشل في قفزتي إلى المنزل، نزلتُ وخرجتُ من باب الهرّة ومن ثمّ التحقتُ به في منزله مرورًا من باب الهرّة خاصّته.

استقبلني على عتبة الباب، ولأنّ خادمته كانت نائمة، عرض عليّ أن أستقر قبالة نار المدفأة التي كانت جمراتها لا تزال متّقدة. وكان وميض الأضواء البرتقالية ينعكس في عينيه.

– شكرًا لأنّكِ أنقذتِني. وأعتذر عن سوء استقبالي لكِ في المرة الماضية، ولكنني لم أشأ أن أعطيك الكثير من المعلومات دفعة واحدة. هذا خطئي، لدي الميل في بعض الأحيان إلى عرض اكتشافاتي للتأثير على محدّثي، وخاصّة إذا كنتُ أتحدّثُ إلى أنثى، حتى وإن كنتُ لا أعرفها جيّدًا. ثمّ ألوم نفسي على كوني لم أُجِد أن أكون أكثر تحسّبًا.

– لقد علّمتَني أشياء كثيرة وأشكركَ على ذلك.

– كان يجب عليّ أن أُبدي المزيد من اللطف حيالك.

– أنتَ مرتبطٌ. وأنا أفهم أن تكون حذرًا من أنثى غريبة، وإنْ كانت جارتك.

– كلا، ليست لديّ أنثى.

– لقد رأيتُ تلك التي تعيش في غرفتك.

– ولكن ليس هناك قطّ غيري في هذا البيت!

– وتلك، التي في الطابق العلوي، من تكون؟

ولأجعله يتأكّد من ذلك، صعدتُ إلى الطابق العلوي. لحق بي. كانت القطّة السوداء والبيضاء لا تزال موجودة. بل وكان برفقتها قطٌّ آخر، وهو قطٌّ سيامي يشبه فيثاغورس تمامًا.

شرح لي:

– هذه «مرآة». هذا شيءٌ يخصّ البشر يسمح بانعكاس صورة من يقف أمامه. وهذه القطّة التي ترينها، هي أنتِ، والقطّ الذي بجانبها، هو أنا.

اقتربتُ. هذه أوّل مرّة أرى نفسي لأنّه في بيتي لا توجد «مرآة».

تفحصّت نفسي في أدقّ التفاصيل. وأعادت أنا الأُخرى، في المقابل، بالضبط الحركات نفسها التي قمتُ بها.

– إذًا تلك هي... «أنا»؟

وجدتُ تلك القطّة فجأة أقلّ بذاءةً. ربّما كنتُ قد أسرعتُ في الحكم عليها. فيها الكثير من التميّز. بل إنّها ساحرة. تفحّصتُها بالتفصيل.

وجدتُ نفسي أكثر جمالًا مما كنتُ أعتقد.

لقد انبهرتُ بصورتي. يعني لو أنني لم آت إلى هنا لربّما عشتُ حياةً كاملة من دون أن أعرف ماذا أشبه، ولا كيف يراني الآخرون حقًّا.

يا له من اكتشاف.

أمّا فيثاغورس، الذي بدا مبتهجًا بانعكاس صورته، فوضع أحد كفّيه الأماميين على المرآة. فقلّدتُه في تلك الحركة.

– بالنسبة إلى منْ لديه الطموح في التواصل مع كلّ الكائنات المحيطة به، سيكون عليك البدء بمعرفة ذاتك.

– كيف عرفت ما هي المرآة؟

– أخبرتني **عيني الثالثة** بذلك.

– وكيف حصل أن مُنِحتَ هذه **العين الثالثة**؟ لماذا أنا ليست لديّ واحدة منها؟

– لديّ سرّ. تعالي، لنخرج!

تجوّلنا جنبًا إلى جنب في الشوارع المجاورة. كان لا يزال القليل من الناس يسيرون فيها في ذلك الوقت من الليل. وعلى الرغم من أنّه كان قد انتقل حديثًا للعيش في هذه المنطقة، بدا فيثاغورس يعرف تمامًا الحيّ وقادني في العديد من الأزقّة المضاءة بالمصابيح الطرقية حتى وصلنا إلى ساحةٍ يجلس فيها الكثير من البشر. في وسط الساحة، ينتصب مبنى أبيض اللون، جدرانه أكثر ارتفاعًا من الأشجار المحيطة، تعلوه ما يشبه حبّات كمثرى. أشار لي فيثاغورس إلى معبر تحت سياجٍ شبكي يتيح الوصول إلى

منفَس القبو في الجزء السفلي من المبنى. ووصلنا بذلك إلى صالة عالية وواسعة فيها نوافذ زجاجية رائعة، ولوحات فنية وتماثيل منحوتة.

سألني:

– هل سبق وأن جئتِ إلى هنا؟

قلتُ، مبهورةً:

– كلا.

قادني نحو سلّم متعرّج على شكلٍ حلزوني، سلكناه صعودًا. كانت المسافة طويلة ومتعبة، ولكننا وصلنا في النهاية إلى نقطة مرتفعة جدًّا تمتّعنا فيها بإطلالة مدهشة على المدينة.

تجرّأت على إلقاء نظرة إلى الأسفل وتأكّدتُ من أنّ سقوطًا من هذا المكان سيكون مهلكًا لي. كان هذا البرج أعلى من عدّة أشجار موضوعة فوق بعضها.

تلاعبت الرياح، من ذلك الارتفاع، بفرائي وأحدثت أمواجًا في الوبر الرمادي لبني جنسي. حتى شعر شواربي رزح تحت عبء الرياح الهوجاء، وكان ذلك إحساسًا مزعجًا جدًّا.

– أحب المراصد العالية.

– وهل لهذا السبب كنتَ في أعلى الشجرة حينما هدّدكَ الكلب؟

– أنا أتّخذ مكاني على الدوام عاليًا. والحال أننا نملك مخالب لنصعد بها لا لكي ننزل، الأمر الذي يرغمنا على القفز... ولكن ما العمل حينما ينتظرك كلب الراعي الألماني، مزمجرًا، في الأسفل؟

نظرتُ إلى المنظر من حولنا. كانت أضواء صفراء صغيرة وثابتة تشعّ في كلّ مكان، كما كانت هناك أضواء أخرى، بيضاء أو حمراء، تتحرّك في الأنحاء.

قال:

– هذه هي المدينة «خاصّتهم». مدينة البشر.

– نادرًا ما أبتعد عن بيتي. لا أعرف سوى باحتي، والشارع المقابل لبيتي، وبعض الأسطح المجاورة.

– يبني البشر هذه البيوت بالآلاف. بعضها بالقرب من بعضٍ. على مدّ النظر. هذه المدينة تُدعى «باريس».

ردّدتُ الاسم:

– باريس.

– هذه الهضبة هي عبارة عن حي مونمارتر، وهنا حيث نكون الآن هو أحد صروحهم الدينية: كنيسة القلب المقدّس.

– هل تعرف كلّ هذا بفضل عينك الثالثة؟

لم يُجب على سؤالي. نظرتُ إلى الإطلالة الواسعة المتاحة أمامنا. لم أفهم كلّ ما قاله فيثاغورس لي، ولكنني ربّما لكثرة إصغائي إليه، سوف أنتهي بشكلٍ طبيعي إلى القيام بمقارنات تتيح لي فهمًا أفضل لمعنى جُمَله.

تضاعفت شدّة الرياح وزعزعتنا، فغيّرت نقطة ارتكازي.

– أريد أن أتعلّم كلّ ما تقوله.

– البشر لديهم مدن أخرى مثل هذه، مبعثرة على أرضٍ شاسعة من سهولٍ، وحقولٍ، وغاباتٍ والتي تشكّل بلدًا يسمّونه فرنسا، والذي يقع هو نفسه على ما يشبه كرة ضخمة، وهو كوكبٌ يُسمى الكرة الأرضية.

– ما أُريد أن أعرفه هو لماذا أنا موجودة، لماذا أنا هكذا، وما الذي عليّ أن أفعله على الكرة الأرضية؟.

– لقد حدّثتكِ للتوّ عن الجغرافيا، ولكن ربّما أنتِ تهتمين أكثر بالتاريخ.

تنفّس بعمقٍ، لعق كفّه الأيمن، ومرّره خلف أذنه، ثمّ رفع رأسه.

– سيكون هذا إذًا درسي الأوّل في التاريخ. لقد بدأ كلّ شيء منذ 4,5 مليار سنة، حينما خُلِقَتْ الكرة الأرضية.

لم أجرؤ على أن أسأل ما هو المليار، ولكنني اعتقدتُ أنّه لا بدّ أن يكون رقمًا أكبر من كلّ ما أعرفه.

بينما كنّا ننظر إلى السماء المطرّزة ببروقٍ متناثرة، مرّ سهمٌ خاطفٌ، وهو يشقّ السماء من اليسار إلى اليمين.

– في البدء لم يكن هناك سوى الماء.

– ما كنتُ لأحبّ العيش في تلك الحقبة، فأنا أكره الماء.

– ومع ذلك الماء هو ما جاء كلّ شيءٍ منه. ظهرت الحياة على شكل طحالب صغيرة تحوّلت إلى أسماك. وذات يوم، خرج طحلبٌ من بينها من الماء لكي يدبّ على الأرض الصلبة.

لم أطرح أسئلة عليه كي لا أقطع خيط سرده. ولكن حينما تحدّث عن السمك، هل كان يعني حيوانات مثل... بوسيدون؟

– نجحت هذه السمكة الأولى في النجاة وفي التناسل. تحوّلت ذريتها إلى سحالي، والتي أخذت تنمو وتكبر على نحوٍ متزايد. وقد سُمّيت «ديناصورات».

– كم كان حجم هذه الديناصورات الكبيرة؟

– كان بعضها بعلو هذا البرج الذي نتواجد فيه حاليًا. وكانت مفترسة. أسنانها ومخالبها ضخمة جدًّا. والحيوانات الأخرى كلّها تخاف منها. وقد تحوّلت تدريجيًا وعلى نحوٍ مضطرد إلى كائنات ذكية واجتماعية.

توقّف فيثاغورس لبرهةٍ، وتنهّد، ولعق شفتيه.

– ومن ثمّ وُجِدت هذه الصخرة التي جاءت من السماء والتي غيّرت الجوّ والطقس. ماتت الديناصورات كلّها. ولم تنج سوى السحالي والثديات.

– ما هي الثدييات؟

– إنّها أولى الحيوانات التي كان لها دمٌ حارّ، وشعر، وضرعٌ قادر على تقديم الحليب. نحن ننتمي إلى هذه الحيوانات. قبل سبعة ملايين سنة ظهر الأسلاف الأوائل للبشر والأسلاف الأوائل للقطط. وكان أسلاف القطط هم أيضًا ينقسمون إلى صغارٍ وكبار.

– هل تعني أنّه في السابق كانت هناك قطط كبيرة؟

– نعم، لا تزال هناك قطط كبيرة في أماكن أخرى. البشر يسمونها أسودًا. ولكن لم يعد عددها كبيرًا.

– وكم حجمها؟

– على الأقل أكبر حجمًا منكِ بعشرة أضعاف، يا باستيت.

حاولتُ أن أتخيّل قطًّا بحجمٍ هائل.

– لكنّ التطوّر فضّل الأصغر حجمًا، والأكثر ذكاءً. وبعد ذلك، تطوّر فرع البشر الصغار وفرع القطط الصغيرة بالتوازي حتى قبل عشرة آلاف عامٍ. في تلك الحقبة، اكتشف البشر الزراعة: فنّ تجميع النباتات لزراعتها. وأخذوا يموّنون مخزونات من الحبوب، ولكن هذا جذب الفئران التي جلبت بدورها...

– أسلافنا؟

– حينما اكتشف البشر أنّ القطط تسمح لهم بالحفاظ على الغذاء سليمًا، أصبحوا يكنّون لها تقديرًا رفيعًا.

– لقد أصبحنا إذًا ضروريين بالنسبة إليهم... وبالتالي وافقوا على أن يُطيعونا، أليس كذلك؟

– بحكم الضرورة، كان البشر والقطط، في تلك الحقبة، يتفاهمون جيّدًا مع بعضهم.

– إذًا، لقد اقتربت القطط من البشر طواعية، إذا ما فهمتُ بشكلٍ صحيح، أليس كذلك؟

– لقد اخترناهم، وساعدناهم على أن يعيشوا على نحوٍ أفضل، ومن ثمّ كانوا هم منْ قرّروا أن يقدّموا لنا المسكن والطعام. لقد عُثِرَ في جزيرة قبرص على قبرٍ قديمٍ يعود إلى قبل سبعة آلاف وخمسمئة عام، فيه الهيكل العظمي لإنسانٍ إلى جانب الهيكل العظمي لقطٍّ.

– ماذا يعني قبر؟

– ما أن يموت البشر، بدل أن يُترَكوا لتأكلهم الحيوانات الأخرى، بل وأن يأكلوهم هم بأنفسهم، يضع البشر جثث بني جنسهم تحت الأرض.

– والديدان هي التي تأكلهم؟

– هكذا يتعاملون فيما بينهم. ووجود هذا القطّ في هذا القبر يشير إلى أنّ...

–... إلى أنّهم يكنّون لنا التقدير على أننا مهمون.

– لقد عرفتِ ما فيه الكفاية اليوم، يا باستيت. في المرّة القادمة، سوف أروي لكِ تتمّة التاريخ المشترك للقطط والبشر.

- متى؟

- إذا أردتِ، يا باستيت، يمكننا أن نلتقي من وقتٍ إلى آخر، وسوف أعلّمكِ ما أعرفه عن عالم البشر. ربّما سوف تُدركين أنّه قبل محاولة التحاور معهم بصيغة الاستقبال / الإرسال، يمكننا أن نبدأ بفهم وتمثّل معارفهم من خلال صيغة الاستقبال البسيطة. لأنّ هذه المعارف هي غريبة جدًّا ومدهشة بالنسبة إلى قطّة (قال في نفسه: «جاهلة»)... ليست لديها **عينٌ ثالثة**.

وبينما بدأ القمر يتوارى ببطء خلف الغيوم، اقترح أن نموء معًا من أعماقنا. أعجبني ذلك. في هذا الارتعاش الصوتي الرخيم الذي خرج من فمي وتردّدت أصداؤه في كلّ عظامي، انتابني إحساسٌ مكثّف ومجهول، كما لو أنّ اتحاد صوتينا يجلب لي الإشباع والانشراح.

هبّت الرياح على فرائي وشواربي. وتماوج وبري في أمواج.

أحسستُ بارتياحٍ كبير وبقينا لوقتٍ طويلٍ نموء إلى أن نال منّي الإنهاك، فاكتفيتُ بالخرخرة بلذّة وأنا أراقب باريس التي انطفأت أضواؤها الصغيرة تدريجيًا.

بالطبع، وددتُ لو أنّ فيثاغورس يشرح لي ما هو سرّ هذه **العين الثالثة** التي تسمح له أن يحصل على كلّ هذا الكمّ الهائل من المعلومات الدقيقة، ولكنني كنتُ أعلم أنّ لا جدوى من إلحاحي عليه. استعدتُ في ذاكرتي كلّ ما علّمني اليوم. أصبحتُ بفضله قطّة تفهم على نحوٍ أفضل ما يحدث حولها، قطّة تعرف تاريخ أجدادها. اكتشفت أنّه كلّما أتعلّم أكثر، أستطيع أن أفهم بسهولة المعلومات الجديدة. وقد أحببتُ ذلك.

نزلنا من برج الكنيسة وتقدّمنا في شوارع هضبة مونمارتر.

وجدتُ رفيقي رشيقًا وجميلًا.

ولكي أقطع الصمت الذي ساد بيننا، سألت:

- والحرب التي يشنّها البشر، أين أصبحت، حسب مصادرك؟

- إنّها من سيئ إلى أسوأ. ما حدث في روضة الأطفال ليس ظاهرة منعزلة. على العكس من ذلك. كلّ يوم، يتجلّى الإرهاب بأشكالٍ أخرى. من

المهمّ بالنسبة إليكِ وإليّ أن نكون طيلة الوقت على علمٍ بتطوّر حمّى تدمير الذات هذه لدى جيراننا البشر.

لعقتُ سهوًا أحد كتفيّ.

- إنّهم ليسوا سوى بشرٍ يقتلون بعضهم، وهذا لا يخصّنا.

هزّ رأسه، معترضًا:

- لا تخدعي نفسك. لا تزال مصائرنا مرتبطة ببعضها. نحن نعتمدُ عليهم، وهناك خطرٌ حقيقي في أن ينقرض البشر، كما انقرضت الديناصورات من قبل.

- أشعر أنني جاهزة تمامًا للعيش من دونهم.

- سوف يُرغمنا هذا على القيام بأعمالٍ لم نقم بها أبدًا حتى الآن.

- حسنًا، سوف نتطوّر.

لمسني بكفّه لكي يرغمني على التوقّف وحدّق فيّ.

- الأمر ليس بهذه البساطة، يا باستيت. الحرب التي تمتدّ وتنتشر باضطّراد مُقلقة حتى بالنسبة إلى القطط.

لاحظتُ أنّ فيثاغورس لفظ اسمي عدّة مرّات. ربّما أكون، من الآن فصاعدًا، مهمّة بالنسبة إليه. أصبحتُ مقتنعة بأنّه بدأ يُدركُ أنني أيضًا قطّة مميّزة.

سرتُ بافتخارٍ إلى جانبه، منتصبة الذيل. بعيدة عن إثارة قلقي، أشعرتني كلّ هذه المعرفة الجديدة بالطمأنينة، بطريقة ما. الآن أصبحتُ أعرف أفضل بكثير منْ أكون، وكيف أبدو، وأين أعيش، وما يجري من حولنا.

بدا لي أنْ أكون متعلّمة هو أكبر المزايا وأصبحتُ أُشفقُ على الذين يعيشون في الجهل.

-8-

مخدّر مضيء

كانت ناتالي تشخر، وفمها مفتوح، وشعرها أشعث، وجفونها ترتعش على نحوٍ خفيف.

بدأتُ أخرخر بالقرب من أذنيها.

نامي، أيّتها الخادمة البشرية، بينما عالمكِ على وشك أن ينهار تحت ضربات الإرهاب والحرب. لا تقلقي، نحن، فيثاغورس وأنا، موجودان هنا، ونحن متعلّمان وجاهزان للتصرّف.

بينما كان الفجر يطلع، قرّرتُ أن أخلد أنا أيضًا إلى النوم لبعض الوقت لكي أستجمع أفكاري وقواي. استقررتُ في سلّتي وغططتُ عميقًا في النوم وأنا أفكّر في فيثاغورس. لم أستطع التصديق أنّه يكفي أن يكون في رأسنا ثقب حتى نفهم البشر.

كلّا، هناك حتمًا أمرٌ آخر. لقد تحدّث عن سرٍّ، وأريد أن أكتشفه.

يعرف فيثاغورس أسماء وأغراض الأشياء البشرية، أسماء الحيوانات، ومغزى سلوك البشر. أمّا أنا، فلا أعرف سوى أسماء الأشخاص المحيطين بي، لكثرة ما أسمعها وهي تتكرّر على مسامعي.

انتهى بي المطاف إلى أن نمتُ تمامًا.

في منامي، رأيتُ أسماكًا تشبه بوسيدون تخرج من الماء لكي تزحف على الأرض الصلبة. لمستها بكفّي. ثمّ رأيتُ هذه الأسماك وهي تتحوّل إلى سحالي. أمسكتُ بها وقطعتُ أذنابها، لكنّها نَمَت من جديد. ورأيتُ بعد ذلك

السحالي تكبر حتى تصبح عملاقة. هربت. ثمّ جاء نيزكٌ يضرب الأرض. أصبحت السماء سوداء وماتت كلّ السحالي. وظهر حينئذٍ بشرٌ صغار وكبار وقططٌ صغيرة وكبيرة يخرجون من بين الأعشاب. أُجليَ البشر الكبار من قبل البشر الصغار. وطُرِدت القطط الكبيرة من قبل القطط الصغيرة. أطعم البشر الصغار القطط الصغيرة التي ساعدتهم من خلال قتل الفئران التي قدّمتها القطط للبشر، وقد شكرها هؤلاء بالمقابل من خلال النوم في جحورٍ تحت الأرض إلى جانبها.

ثمّ ظهر في حلمي فيثاغورس ملاحَقًا من كلب، أنقذته، ثمّ مارسنا الجنس.

عضّ فيثاغورس رقبتي.

استيقظتُ على صوت صرير باب المدخل.

تثاءبت، وتمطّيت، وشعرتُ أنني في أحسن حال.

مرّة أخرى، كان توماس، ذكر خادمتي. وبالتأكيد لم أحبّ هذا الرجل أبدًا. تكلّما بلغتهما البشرية، ثمّ ذهبا إلى المطبخ لكي يتناولا أطعمة كستنائية اللون تفوح منها رائحة اللحم الساخن، مع شرائط بيضاء ورخوة لم تكن لها أيّ رائحة. بعد ذلك، غرفا ملعقتيهما في وعاءين مليئين بقشدة صفراء أكلاها بشغف. فكّرت خادمتي أن تُطعمني، وأن تُطعم فيليكس أيضًا، ولكنني أحسستُ أنّها تتردّد تحت تأثير حضور ذكرها. من جهتي، كنتُ أنتظر حلول الليل لكي أقابل ذكري.

قرّرتُ أن أدور حول ساقيهما لكي أحتكّ بهما وأغمرهما برائحتي. ولأنّهما واصلا تناول الطعام دون إبداء الاهتمام بي، أخرجتُ مخالبي وخرمشتُ خشب الكرسي. وافق توماس أخيرًا أن يهتمّ بي. لفظ اسمي وأخرج من جيب سترته أنبوبًا فضيّ اللون. كرّر لفظ اسمي ثمّ بعث فجأةً من أنبوبه... دائرة ضوئية حمراء أضاءت الأرض في الحال. لم يكن ذلك جميلًا جدًّا فحسب، بل علاوة على ذلك تحرّك في كلّ الاتجاهات بطريقة لم تدع لي المجال لأن أكون لامبالية. قفزتُ، ولكن ما كدتُ أقترب من الدائرة الحمراء، حتى انتقلت إلى الجدار. قفزتُ عاليًا، أصبحت الدائرة الحمراء على الستارة، ثمّ على الكرسي، وبعد ذلك على الأريكة، ثمّ أصبحت أمامي،

لتبعد بعد ذلك عنّي، لتنتقل بعدها إلى السقف، ثمّ... على ذيلي. هذه المرّة، لم أعد أرغب في تركها تفلتُ منّي، فعضضتُ بقوّة على ذيلي، الأمر الذي جعلني أصرخ ألمًا. واختفت الدائرة الحمراء...

أشار الكائنان البشريان إليّ بإصبعهما وأصدرا طقطقة بفمهما، صاخبة جدًّا.

كنتُ غاضبة ومستاءة وفي الوقت نفسه خجلتُ ممّا أظهرته من ضعف بانخراطي في هذه اللعبة الغبية.

ليس لأحدٍ الحقّ في إهانتي بهذه الطريقة. ناهيكم عن بشرٍ من المفترض أنّهم يخدمونني فقط. أويتُ إلى زاويتي أجترُّ انتقامي في حين أنّ الكائنين البشريين، وقد انتهيا من تناول الطعام، ذهبا من جديد إلى الصالون ليشاهدا مرّة أخرى تلفزيونهما البغيض.

راقبتُ أنا أيضًا تعاقب المناظر. أصبحتُ الآن أعرف، بفضل فيثاغورس، أنّ البشر هم الذين يقتلون بعضهم بعضًا بعيدًا جدًّا من هنا، في مدنٍ أخرى. تخلّل مشاهدَ الحرب تدخّلُ مذيعٍ جالسٍ، يتحدّث بنبرة رتيبة، بكتفين متوازنين، وشعرٍ مطلي فوق رأسه، كما لو أنّه لم يكن بالفعل معنيًا بالمناظر الصادمة التي كانت تتوالى، فقد ظلّ يبتسم باستمرار.

هذه المرّة، تمالكت ناتالي نفسها ولم يسل أيّ سائل من عينيها. في الواقع اعتقدتُ أنّها اعتادت على العنف.

ثمّ ظهرت من جديد مشاهد لكرة القدم وأحسستُ أنّهما في غاية الإثارة. تحدّث توماس متوجّهًا إلى التلفزيون. نهض، وتنهّد، وبدا أنّه يعيش شيئًا ما أكثر إثارةً من الناحية العاطفية من الحرب.

استغللتُ لحظة الإلهاء هذه لكي أقوم دون انتظارٍ أكثر بانتقامي، وأتبوّل في حذائه الذي كان قد وضعه في المدخل، كما هي عادته، لكي لا يوسّخ أرضية البيت.

وبعد ذلك، أخذتُ موقعي في مكانٍ بعيدٍ عن متناوله: قمّة الثلاجة، وانتظرتُ هناك. حينما اكتشف توماس هديّتي الصغيرة، حصل ما كنتُ أتوقّعه. صرخ، ركض، ركل بقدمه، استشاط غضبًا، عرَض الحذاء على ناتالي، وهو يلفظ اسمي بنبرة عدائية صريحة. ردّت عليه ناتالي بجملٍ تكرّر

فيها اسمي من جديد، ولكن بطريقة أكثر لطفًا بكثير. لم يقنعه ذلك. بحث عنّي في كلّ مكان، وتقوقعتُ على نفسي أكثر بقليل لكي لا يراني.

تصاعدت نبرة الحديث بين الكائنين البشريين، وأصبح توماس أكثر شراسة على نحو متصاعد. وفي النهاية، خرج من البيت وهو بالجوربين، ويمسك بحذائه في يده، وصفق الباب غاضبًا.

بعد برهةٍ من الوجوم، هوت خادمتي على الأريكة وبدأت بالبكاء. نزلتُ من الثلّاجة، واقتربتُ منها بخطواتٍ صغيرة. صعدتُ إلى ركبتيها وفركتُ أنفي بأنفها، ولكنّها لم ترغب في أن تقبّلني. بدأتُ أخرخر بتردٍ صوتي منخفض بشيءٍ يعني:

هذا الذكر غير جديرٍ بكِ.

واصلت ناتالي في بثّ مشاعر حزينة في حين لعقتُ دموعها على خدّيها وخرخرتُ بفكرة أخرى: *وفي المقابل، سوف يمكنكِ على الدوام الاعتماد عليّ.*

ولأنّها لم تبدُ أنّها قد ارتاحت بعد، اعتقدتُ أنّه لا بدّ أنّ لها سحرًا في فئتها من البشر (شخصيًا، أنا أجد كلّ البشر قبيحين للغاية، ولكنهم ينخرطون في أفعال التكاثر، وأستنتج من ذلك أنّهم لا بدّ أنّهم يجدون في بعضهم سحرًا ما).

شرحتُ لها أنّ إعادة الذكور ليست مسألة معقّدة، إذ يكفي الخروج إلى التنزّه خارج البيت والسير هناك عارضةً مؤخّرتها جيّدًا. إذا كانت وردية ومتورّمة بعض الشيء، يساهم هذا الأمر في التأثير الجذّاب. انبعاث الروائح الجنسية والرسالة يصلان إلى الذكور الشبقين، الذين يأتون راكضين بسرعة للتناسل. لم تعجز عن فهمي وترفض عرض مؤخّرتها وهي تصرخ فوق الأسطح كما نصحتها فحسب، بل واصلت إخفاء لحم جسدها تحت عدّة طبقات سميكة من النسيج.

لا يزال هناك الكثير من العمل الذي ينبغي القيام به لتحسين تواصلنا. وكأنّ هذا لم يكن كافيًا، قامت ناتالي من جديد بما هو أسوأ: أشعلت سيجارة.

لن أفهمها أبدًا. لماذا تُدخِلُ طواعية هواءً ملوّثًا في رئتيها؟

متقززة ورافضة أن تتغلغل هذه الرائحة الكريهة بين وبري، صعدتُ إلى الطابق الثاني، واستغللتُ أنّ باب النافذة كان مفتوحًا لكي أذهب وأستقرّ في المكان الذي رأيتُ فيه فيثاغورس، البارحة.

مؤتُ لكي أناديه. عدّلتُ في نبرات صوتي عدّة مرّات، فظهر شبحه أخيرًا. بإشارة، اتّفقنا على الذهاب إلى كنيسة القلب المقدّس لكي نتناقش هناك في المكان العالي.

حينما التقينا في الشارع، لامسنا جبين بعضنا، وحككنا أسفل أنفينا ببعضهما، ثمّ سلكنا الطريق.

حينما وصلنا إلى الساحة، تسلّقنا قمّة أعلى برج. كان الطقسُ باردًا، والرياح، في المساء، أقوى من المرّة الأولى التي وقفنا فيها على البرج. كانت الرياح تعبث بكلّ فرائي، ولكنّه لم يكن من الوارد أن نذهب إلى مكانٍ آخر.

قلتُ له:

– اليوم أُهِنتُ بضوءٍ أحمر.

– ضوءٌ ليزري؟ أنا نفسي وقعتُ في هذا الفخّ من قبل. هناك حاجة إلى الكثير من الإرادة لمقاومته، ولكن بقليلٍ من التدريب، ينجح بعضهم في ذلك.

– وعلاوة على ذلك، أصدرا نقرات بفمهما.

– هذا يُسمى «الضحك».

غيّرتُ موضوع الحديث:

– ما الذي يدفع البشر إلى أن يقتلوا بعضهم بكلّ هذا الهيجان؟

– هناك أسباب عديدة: امتلاك أراضٍ أوسع، سرقة ثروات جيرانهم وإناثهم الشابّات ذوات خصوبة، وإدخالهم إلى دين ربّهم.

– ما هو «الربّ»؟

– يُقصَدُ به شخصية خيالية. ويتمّ تصويره غالبًا على شكل كائنٍ عملاق يعيش في السماء. له ثوبٌ أبيض ولحية. وهو الذي يحدّد ما هو خيرٌ وما هو شرّ. هو الحَكَم والفيصل. وهو الذي يقرّر كلّ ما سيحدث للبشر.

- وهل قلتَ إنّها شخصية ابتكروها؟

- إنّهم يحبّون كثيرًا الشخصيات الخيالية لكي يكونوا مستعدين لأن يقتلوا أو يموتوا في سبيلها. في الواقع، ولكي أكون دقيقًا، إنّ الربّ، منذ بعض الوقت، هو السبب الرئيسي للإرهاب والحروب.

- ولكنّك قلتَ لي بأنّه لم يلتقِ به أيّ كائن بشري.

- بالنسبة إلينا، نحن القطط، يمكن لهذا بالطبع أن يبدو غير منطقيّ، ولكن قد يبدو أنّهم خلقوا الربّ لأنّهم لم يتحمّلوا أن يكونوا أحرارًا ومسؤولين عن أفعالهم. بفضل هذا المبدأ، يمكن للبشر أن يتصوّروا أنفسهم بأنّهم كائنات لا تفعل سوى الخضوع لسيّد. وإنّ كلّ ما يحدث هو فقط إرادته «هو». كما أنّه وسيلة بالنسبة إلى المتدينين الذين يزعمون أنّهم ينطقون باسمه لكي يقوموا بإخضاع النفوس الأكثر ضعفًا. أمّا نحن، القطط، فإنّنا قادرون على أن نشعر بأننا مسؤولون عن أفعالنا وأننا قادرون على أن نتحمّل أن نكون أحرارًا. لا نحتاج إلى أن نتخيّل أنّ قطًّا عملاقًا في السماء يراقبنا.

فكّرتُ في كلماته وأنا ألعق جسمي. أنا لا أعتبر أيّ شخصٍ آخر مسؤولًا عمّا يحدث لي، أحاول دائمًا بمفردي أن أحسّن حياتي.

يبدو أنّ فيثاغورس قد عرف ما أفكّر فيه، لأنّه أردف:

- ولكن مع ذلك، تبقى هناك أسبابٌ للخوف من السماء... ففي الماضي، ضرب الموت فجأةً الجميع وفي كلّ مكان. وقد حدثت خمسة حوادث انقراض كبيرة. إنّها لحظاتٌ هلك فيها تقريبًا كلّ ما كان حيًّا. وقد حدثت آخر حادثة انقراض قبل ستة وستين مليون سنة، وأدّت إلى القضاء على سبعين بالمئة من الحيوانات، من بينها الديناصورات.

- وحسب رأيك، هل يمكن أن تحدث سادس حادثة انقراض للأجناس؟

- الإرهاب. الحرب... يمتلك البشر الآن القدرة على التدمير على نحوٍ واسعٍ وسريعٍ. ما يحدث الآن يكشف أنّهم مثلكِ أثناء وقفتكِ الأولى أمام المرآة ولقائكِ بنفسكِ للمرّة الأولى: يريدون أن يقضوا على ما هو مماثل. وإذ لم يعد لديهم خصومٌ، يُديرون عدوانيتهم صوب أنفسهم.

هززتُ رأسي وأكمل هو شرح فكرته:

– حتى أنني أتساءل أحيانًا إن كان عددهم الكبير على هذا الكوكب هو الذي دفعهم لا شعوريًا إلى تقليص عددهم بغية الحفاظ على الأجناس الأخرى.

لعق فيثاغورس كفّيه ومرّرهما الواحد بعد الآخر خلف أذنيه.

وأنا تشوّقت بنفاد صبر إلى أن أعرف بقية الحكاية.

– هل أنتِ جاهزة لتلقي الدرس الثاني في التاريخ، يا باستيت؟

تكوّمتُ على أرجلي وثنيتُ ذيلي تحت بطني في وضعية مريحة.

– بعد قبرص، تأتي مصر. بلدٌ بعيدٌ وحارّ، يتكوّن في جزءٍ كبيرٍ منه من الصحراء. بلدٌ أسّست فيه الحضارة المصرية، في عام 2500 قبل ميلاد يسوع المسيح (هذا اسم رجلٍ يُعد تاريخ ميلاده معلمًا بارزًا في الزمن. ولِدَ قبل ألفي عام، وبالتالي، في عام 2500 قبل ميلاد يسوع المسيح، يعني قبل أربعة آلاف وخمسمئة عام)، أسّست دينًا قائمًا على عبادة سخمت، وهي إلهة برأس لبوةٍ. ولكن اللبوات كان لديها ميل إلى... التهام القساوسة الذين كانوا يقدّمون لها الطعام. وقد مات من المصريين الكثير إلى درجة أنّهم ابتكروا أختًا للإلهة سخمت، وهي إلهة برأس قطّة، أسموها... باستيت.

– ولكن هذه أنا! أنا أحمل اسم إلهةٍ مصرية عبدها البشر سابقًا!

– كان المصريون قد اكتشفوا أنّ القطط أكثر أهميةً من الأسود. أوّلًا لأنّها كانت أقلّ إزعاجًا، وأقلّ تعقيدًا في غذائها، وتستسلم للمداعبة بسهولة أكبر. ومن ثمّ لأنّها كانت تصطاد كمية أكبر بكثير من الفئران والجرذان، وبالتالي كانت تحمي على نحوٍ أفضل مخزون الحبوب. وأخيرًا، لأنّها كانت تحمي أيضًا المنازل من العقارب، والثعابين، والعناكب الضخمة السامّة.

حاولتُ أن أتخيّل هذا العالم الذي يبني فيه البشر المعابد من أجل عبادتنا.

– في ذلك العصر، كانوا يسموننا «ماو». في الحقيقة، جديرٌ بالإشارة إلى أنّه، في معظم البلدان، سُمّينا بكلماتٍ لها نغمة قريبة من صوتنا.

– تابعْ الحديث عن باستيت، أريدُ أن أعرف ما كانت تمثّله.

– كانت إلهة الجمال...

أمرٌ طبيعي.

-... والخصوبة. بالطبع.

- عبادة باستيت كانت تُمارس بشكلٍ خاصّ في المعبد المشيّد بالجرانيت الأحمر في مدينة بوباستيس المصرية. كان هذا المعبد مأهولًا بمئات القطط وكان يجري فيه كلّ عام احتفالٌ كبير يأتي إليه ألوف البشر من كلّ مكان من أجل الاحتفال بالإلهة وتقديسها وتقديم الهدايا إليها.

هذا يليق بي.

- كان البشر يرقصون، ويغنون وهم يردّدون بكلّ الأنغام اسم باستيت. كانوا يأكلون ويشربون وكانوا سعداء في عبادة الإلهة برأس قطّة.

- في النهاية، لا أمانع طالما أنّ هذا هو الدين.

- كانوا يعتبرون أيضًا أن باستيت تُعالج أمراض الأطفال وتسهر على راحة الموتى. وأرادت النساء المصريات في الواقع أن يشبهن جسديًّا القطط الإناث. كنّ يُحدثن خدوشًا على خدودهنّ ليقلّدن شواربنا، وشقوقًا في أذرعهنّ، كنّ يسكبن فيها قطرات من دم القطط على أمل أن يكتسبن جمالنا وذكاءنا.

- يا له من عصرٍ مثيرٍ للاهتمام!

- كان المصريون يُلبِسون أسلافنا أيضًا زيًّا مثل زيّهم. فقد كانوا يُلبِسونهم حُليًّا، وقلائد وأقراط الأذنين. وحينما كانت تموت، كان للقطط المصرية في ذلك العصر الحقّ في إقامة جنازة خاصّة لها.

- حتى وإن كان خَدَمها لا يزالون أحياء؟

- وكان البشر، في علامة على حدادهم، يحلقون شعر حواجبهم. وكانت القطط تُحنّط، وتُحاط أجسامها بالضمادات، ويُغطّى وجهها بقناعٍ يرمز إليهم.

وبصورة عرضية، استنتجتُ ممّا قاله لي فيثاغورس أننا نحن أيضًا يمكن أن نموت.

- وإذا ما أساء كائنٌ بشري إلى قطٍّ، كان يُجلَد. وإذا ما قتل قطًّا، كان يُنحَر.

- أعشق هذا البلد. هل لا يزالُ موجودًا؟

– تظهر مصر جيّدًا على خارطة العالم اليوم، ولكن الحضارة التي كانت تحمل هذه القيم زالت بالتحديد بسبب الحرب. في عام 525 قبل الميلاد، حاصر ملك الفُرس، قمبيز الثاني، مدينة بيلوز الكبيرة دون أن يتمكّن من الاستيلاء عليها. وعندما علِمَ أنّ المصريين يقدّسون القطط، أمرَ جنودَه أن يربطوا على دروعهم قططًا حيّة.

– هذا غير ممكن.

– وهكذا، لم يجرؤ المصريون على إطلاق السهام التي كانت تجازف بإصابة حيوانهم المقدّس وفضّلوا الاستسلام من دون قتال. ونصّب قمبيز نفسه فرعونًا جديدًا، وعذّب الفرعون القديم حتى الموت، وقتل جميع الكهنة والأرستقراطيين المصريين. دمّر جميع المعابد، بما فيها معبد بوباستيس المكرّس لباستيت، وأمر أن تُقدَّمُ القطط المنبوذة التي كانت تشغل الأمكنة كقرابين لآلهة الفرس. وهكذا انطفأت عبادة القطط وباستيت في مصر.

يا له من أمرٍ فظيع! لعقتُ نفسي وشعرتُ بأنني أقتلع من فرائي قذارة هذه الحكاية الحزينة.

– لماذا يُجيز البشر لأنفسهم أن يقرّروا مصيرنا؟

– لأنّهم أقوى منّا.

– ولكنني مع ذلك سيّدة خادمتي البشرية.

– أنتِ تخدعين نفسكِ. إنّهم هم منْ يمتلكون السلطة. وهذا لأسبابٍ عديدة: السبب الأوّل هو أنّهم أكبر حجمًا، والثاني هو أنّهم موهوبون بأيادٍ لها أصابع متقابلة تسمح لهم بأن يصنعوا أشياء معقّدة جدًّا وقويّة جدًّا، والثالث هو أنّهم يعيشون وسطيًا ثمانين عامًا في حين أننا نموت بعد أن نبلغ الخامسة عشرة من عمرنا. وهذا يمنحهم خبرة أكبر في الحياة. وأخيرًا، السبب الرابع هو أنّهم ينامون حوالي ثماني ساعات في اليوم في حين أننا ننام لمدّة اثنتي عشرة ساعة في اليوم وسطيًا.

– هذا يعني أنّهم يكرّسون ثلث وقتهم للحلم، في حين أننا نكرّس نصف وقتنا لذلك...

– كما أنّه ينبغي أن نتأكّد إن كان الحلم ميزة تطورية.

– نحن نجيد الصعود إلى الأشجار ونركض أفضل منهم. لديهم عمود فقري صلب، في حين أنّ عمودنا الفقري مرنٌ ورشيق. لدينا ذيلٌ لنحافظ به على توازننا. نحن نرى في الظلام. ونستشعر الأمواج بشواربنا. بل إنّهم لا يُجيدون الخرخرة!

– هذه مزايا ثانوية وقاصرة. أنتِ لا تدركين أهمية الميزة المذهلة التي تمنحها الأيادي! يمكنهم باستخدام أيديهم...

– ماذا؟

– يستطيعون، يستطيعون... «العمل»!

– وما هذا، أيضًا؟

– إنّه النشاط الذي تمنحه خادمتكِ لنفسها عندما تغادر المنزل في الصباح. عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال عملها، أن تُساهم في إنتاج، أو خلق أو صيانة شيءٍ ما.

تدافعت كلّ هذه المعلومات في رأسي، وتساءلتُ، مرّة أخرى، كيف يستطيع هذا القطّ أن يمتلك كلّ هذه المعرفة عن العالم البشري.

– هل هذا يعني أنني قد أكون أقلّ ذكاءً من خادمتي؟

– لا يزال هناك الكثير الذي ينبغي عليكِ أن تتعلّميه... ولكن هذا يكفي اليوم. أرغب في العودة إلى البيت والتفكير بمفردي في كلّ هذه الأشياء المدهشة والرائعة. حفظتُ في ذاكرتي على وجه الخصوص أنني أحمل اسم إلهةٍ مصرية قديمة ممثّلةٍ بامرأةٍ ذات رأس قطّة كان كلّ البشر يقدّسونها.

-9-

رعب العمل

أنا أحلم.

حلمتُ أنني باستيت الإلهة ذات الجسد البشري ورأس قطّة. منتصبة على ساقيّ. أرتدي ثوبًا أزرق وبرتقاليًا، وتزيّن رقبتي ومعصميّ كمية كبيرة من الحُليّ. لدي يدان جميلتان ورديتان، مزوّدتان بمخالب وكفّين، ولكنّها مزوّدة أيضًا بأصابع ذات مفاصل تشبه أرجل العنكبوت. من حولي، في معبد بوباستيس، يتجمّع الألوف من البشر الذين يردّدون اسمي ويهتفون به.

«باس-تيت! باس-تيت!».

وبدل أن تكون لديّ خادمة واحدة، كانت لديّ المئات منهنّ. يحملن جميعهنّ إليّ الطعام، عبارة عن أحواضٍ مليئة بالفئران التي لا تزال ترتجف، وأطباقٍ مليئة بالحليب، وصحونٍ مليئة بأطعمة القطط.

ومن بين البشر الذين جاؤوا يقدّمون لي القرابين، كان هناك شخصٌ واحدٌ جذب انتباهي. كان له جسدٌ بشري ورأس فيثاغورس. أمسكتُ بيده ثمّ اقتربتُ منه إلى أن تلامَس فمانا لكي نستطيع أن نشبك بين لسانينا. وقد وجدتُ ذلك أقلّ إزعاجًا ممّا اعتقدتُه للوهلة الأولى.

همس فيثاغورس في أذني: «خادمتك تذهب كلّ يوم إلى العمل»؛ «العمر المتوقّع للبشر هو ثمانون عامًا، في حين أننا نموت في نهاية خمسة عشر عامًا»؛ بهذه الطريقة يسير اتجاه التطوّر: «الأسماك، الديناصورات، البشر».

ثمّ أراني حشد الذين يعبدوننا وماءَ: «ومن بعدهم، يأتي دور منْ؟».

كانت قرابين عبدتنا المصريين لا تزال تتدفّق ولكن فجأةً ظهر رجلٌ يرتدي بذلةً غريبة. كان له وجه توماس ومحاطًا برجالٍ مسلّحين لهم دروعٌ رُبِطتْ عليها قططٌ كانت تحاول الإفلات وتموء. وقد قُتِلَت هذه القطط في المعركة غير المتكافئة التي وقعت بين عَبَدتنا وهؤلاء الرجال المسلّحين. ثمّ قتل الغزاة خادمتينا، ودمّروا تماثيلنا العملاقة، وأعدموا فيثاغورس.

فشعرتُ حينها بحزنٍ شديد، وسال من عيني ماءٌ مالحٌ، كما يحصل مع البشر.

أيقظني فيليكس الذي جاء يلعق جفوني. ولكي أعاقبه على تحدّيه للمحظور واقترابه من مخدعي، وجهتُ له ضربة بمخالبي على خدّه. لم يلحّ عليّ، واتّخذ هيئة خضوعٍ وطاعة.

انتصبتُ، وقفزتُ إلى الأرض، وتمطّيتُ، وتثاءبتُ، ولعقتُ نفسي لكي أزيل لعابه.

استيقظتُ باكرًا لكي أرى خادمتي التي تتهيّأ للخروج من المنزل. كنتُ متشوّقة جدًّا ويغزوني الفضول، ولذلك قرّرتُ أن ألحق بها إلى الخارج لكي أرى ما هو «عملها» على نحوٍ دقيق.

حينما أطبقت الباب، مررتُ من باب الهرّة، فأصبحتُ مباشرةً في الشارع.

كانت المرّة الأولى التي أبتعدُ فيها عن بيتي هي تلك التي تصرّفتُ فيها بطريقةٍ بحيث يلحق بي الكلب الذي كان يهدّد فيثاغورس، ولكن لم يكن لديّ آنذاك ما يكفي من الوقت لكي أستمتع بذلك الخروج.

كان رصيف الصباح مليئًا بروائح بول وبراز الكلاب. لم يكن هناك أيّ رائحة للقطط. ومن حولي تمامًا ومن كلّ الجهات، كان هناك بشرٌ يسيرون بسرعة. في لحظة ما، نزلت خادمتي إلى نفقٍ حيث واصلتُ ملاحقتها خفيّةً.

كان هناك المئات من البشر الذين يحتشدون وهم يطقطقون بنعالهم. تسللتُ بين جموع السيقان، ولم يتنبه إليّ أحدٌ.

توقّف حشد البشر أمام حفرةٍ وانتظر هناك، بلا حراك. فجأةً، دوّى

ضجيجٌ في عمق النفق المظلم. تساءلتُ أيّ وحشٍ سينبثق من العتمة عندما ظهر ضوءان لا بدّ أنّهما عيناه. كان الوحش ضخمًا ومهيبًا. تُرى هل يمكن أنّ هناك ديناصورات نجت من الانقراض الخامس؟ اقتربت العينان المضيئتان أكثر، ثمّ رأيتُ وجه الوحش. له خطمٌ مسطّح وليست لديه قوائم. وهو طويلٌ جدًّا. فجأةً انفتحت خاصرتاه، فاندفع البشر، ومن بينهم خادمتي، إلى داخله وتكدّسوا فيه. لحقتُ بهم. شممتُ العديد من الروائح النفاذة. كانت ناتالي لا تزال تنظر بثبات. ويداها متدليتان، دون أن تتحرّك. وكأنها تكاد تنام وهي واقفة.

كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أنام حيث كان هناك الكثير من الضجيج المزعج، والأبواب التي تُغلَق وصرير المعدن. من حينٍ إلى آخر، يتوقّف الوحش، تنفتح خاصرتاه مرّة أخرى فيخرج منه أو يدخل إليه بشرٌ آخرون، وأحيانًا يفعلون الأمرين في الوقت نفسه، وهم يتدافعون.

وأخيرًا نزلت ناتالي من الوحش وسارت في نفقٍ ينتهي بسلّمٍ يصعد إلى السطح. تقدّمت بسرعة، توقّفت حتى تمرّ سياراتٌ، ثمّ غيّرت الرصيف، وتجنّبت فضلات كلابٍ، وسارت بخطوات تسارعت تدريجيًا. ظللتُ أهرول وراءها. وصلتُ إلى مكانٍ غريبٍ مليءٍ بالرمل والطين على الأرض. كانت هناك على مساحة شاسعة مركبات أحيانًا تكون ضخمة وتطرح أدخنة سوداء وأبراجٌ رفيعة معدنية ترفع قضبانًا. وفي الوسط، يتنقل بشرٌ يرتدون جميعًا خوذًا صفراء. انضمّت ناتالي إلى مجموعة منهم وهزّت أياديهم وهي تلفظ اسمها.

اعتمرت بدورها خوذة صفراء وأعطت توجيهات لبشرٍ آخرين ينقلون مكعّبات رمادية اللون أو قطعًا من الخشب أو قضبانًا طويلة سوداء. وعلى مبعدة من المكان، كانت آلاتٌ تحفر الأرض. في لحظة، اجتمع الجميع وسدّوا آذانهم بأصابعهم وحدّقوا في عمارةٍ قديمة. ضغطت ناتالي على زرٍّ أحمر، فانفجرت العمارة من أربعة أمكنة على نحوٍ متزامن قبل أن تنهار على نفسها وتختفي خلف سحابة من الغبار. تعمل خادمتي في تفجير المنازل. وحالما انقشعت سحابة الغبار، بدأت الآليات بدفع الأنقاض.

وكم كانت حسرتي كبيرة لأنّ فيثاغورس لم يكن معي لكي يشرح لي بالتفصيل ما يعنيه هذا الاضطراب البشري. أهذا هو العمل، إذًا؟ هذا النشاط الذي تقوم به كلّ يوم خادمتي حينما لا تنشغل بي؟ ولكي أفهم على نحوٍ أفضل، تجوّلتُ في الموقع. وكنتُ غارقة جدًّا في تأمّلي بحيث لم ألاحظ وجود آلية كانت ترجع إلى الوراء وكادت أن تسحقني. لم يتّسع لي الوقت سوى لأن أقوم بقفزة جانبية. فسقطتُ في بركة سوداء، مليئة بسائلٍ يشبه زيتًا لزجًا كان قوامه لزجًا جدًّا بحيث أبطأ من حركاتي. وقد تغطّى جسمي بالكامل بتلك المادة الهلامية التي منعتني من النهوض. كافحتُ للخروج ومؤتُ، وانتهى الأمر بي إلى أن جذبتُ انتباه بعض البشر.

أمسكت بي أيادٍ وأخرجتني من الدبس الأسود لكي تلفّني بمنشفة. تركتهم يفعلون ما يشاؤون. أطلق الرجلان اللذان أنقذاني صرخات صغيرة (ما كان يسميه فيثاغورس «الضحك») وتشكّل تجمهرٌ من حولنا شيئًا فشيئًا. حينما تعرّفت عليّ ناتالي، وقد فوجئت في البداية ثمّ ثارت غضبًا، أمسكت بي من جلد رقبتي. بقيتُ لا أقاوم، وقد ذكّرني ذلك بطفولتي عندما كانت أمّي تنقلني وهي تمسك بي بهذه الطريقة.

توقّعتُ الأسوأ، وبالفعل، حدث ما هو أسوأ.

أخذتني ناتالي إلى مكانٍ مزوّدٍ بمغسلة، وهناك، دون أن تتركني، فتحت الصنبور بيدها الفارغة. مؤتُ بأعلى صوتي بحيث كادت حبالي الصوتية تنقطع، ومرّة أخرى استطعتُ أن أقدّر مساوئ عدم النجاح حتى الآن في إقامة حوارٍ مجدٍ. واصلتْ بلا هوادة حركاتها التي لم تدع مجالًا لما يبشّر بالخير في اللحظات التي ستلي ذلك. رغم أنّها كانت تعلم أنني لا أحتمل أدنى بللٍ، ناهيكم عن التماس المباشر مع الماء. هذه المرّة، تحرّكتُ بعنف وحاولت الإفلات منها، لكنّها أمسكت بي بصرامة ولم تخفّف من قبضتها المحكمة.

ثمّ صبّت في المغسلة مسحوقًا أبيضَ تحوّل إلى رغوة، ثمّ استطعتُ، حتى وأنا في حالة الذعر تلك، أن أخرمش بمخالبي يديها، فارتكبت ما لا يمكن إصلاحه و... غطستني في ذلك الحمام الصغير. يا له من إحساسٍ فظيع!

غطستني في الماء، وغمرتني به. تثاقل وبري الأسود والأبيض ولكي تُزيد من عذابي، بدأت تفركني بالرغوة البيضاء التي طفت على الماء. ذاب الزيت الأسود وتلاشى تدريجيًا. كنتُ أعتقدُ أنني قادرة على قضاء حياة كاملة من دون أن أستحمّ مرّة واحدة، وها هو فضولي، رغبتي في اكتشاف ماهية العمل البشري، يُسفر عن هذا العقاب الأليم.

وأخيرًا، رفعتني ناتالي، والتقطت لي صورة وأنا مبلّلة بالكامل وجففتني وهي تردّد اسمي بطريقة ساخرة بينما جاء البشر الآخرون يحضرون المشهد، مستمرين في الضحك. ثمّ وضعتني في صندوقٍ مغلق. وطالما كان الوقت نهارًا، ولكي أنسى هذه الإهانة، نمت في ذلك السجن الرطب. (راودني سؤالٌ بإلحاح: هل سوف أجفّ تمامًا في يومٍ ما أم أنني سأبقى طيلة حياتي رطبة على نحوٍ خفيف؟).

حينما استيقظتُ، كنتُ لا أزال في الصندوق، ولكنها كانت قد فتحت فيه ثقوبًا واستطعتُ أن أرى مكان عملها في خارج الصندوق. خَفت الضوء وبالتالي مال النهار إلى نهايته. رأيتها عبر واحدة من الثقوب وهي تنزع خوذتها الصفراء. سأعود أخيرًا إلى بيتي، إلى الأريكة القريبة من نار المدفأة، وأتخلّص من هذه المادة الهلامية التي هي هذا الماء. حتى مسألة تناول الطعام بدت لي أمرًا ثانويًا.

ما الذي جعلني أرغب في اكتشاف ما يفعله البشر خلال النهار؟ في صندوقي، أدركتُ أننا نصعد إلى بطن الوحش الذي يسير تحت الأرض.

وأنا ألعق نفسي، أحسستُ بالطعم المزعج للصابون، ومذاق الزيت الأسود الذي سقطتُ فيه، ومذاق الماء، ومما زاد الطين بلة، ما كدنا نصل إلى البيت حتى أشعلت ناتالي سيجارةً!

ثمّ شغّلت التلفزيون وظهرت صور بشرٍ كانوا يتكلّمون، وصور بشرٍ يرقدون موتى وسط برك الدماء، وبشرٍ يركضون، وبشرٍ غاضبين جدًا يصرخون ويلوّحون بأعلامٍ سوداء...

بدت ناتالي أكثر عصبيّة وغضبًا مما كانت في العادة ولكن انتقامًا منها

على تجرّئها على إخضاعي إلى (إهانة عمري)، لم أُقدم على الخرخرة على صدرها لطمأنتها.

لقد لاحظت خادمتي على الأرجح عتبي عليها، لأنّها، وفي محاولة منها لتكفّر عن ذنبها، أمسكت بمجفّف شعرها الكهربائي وبدأت تسلّط هواءً ساخنًا على فرائي. فضّلتُ أن أفرّ إلى فوق الثلّاجة. ومن خلال نافذة المطبخ، لمحتُ أنّ الشمس قد مالت إلى المغيب وأنّ الظلام سيحلّ قريبًا، ولكنني خجلتُ كثيرًا من أن أقابل فيثاغورس بسبب وبري المبلّل.

فليكن. قرّرتُ النزول من مكاني العالي لكي ألتهم بعض الطعام.

ألقى فيليكس التحيّة عليّ، وسألني إلى أين ذهبت. رغبتُ في أن أروي له القصّة ولكنني سرعان ما أدركتُ أنّ قطًّا من فصيلة أنغورا نقية العرق لن يفهم شيئًا من مفاهيم دقيقة إلى هذه الدرجة مثل العمل أو الحرب أو الديناصورات أو المصريين أو الضحك أو الله.

كدتُ أن أشفق عليه، فعالمه يقتصر على وعاء طعامه والمطبخ والصالون وخادمتنا. عالمٌ ضيّق لذهنٍ محدود الأفق.

حتى أنّه لا يعلم أنّ باستيت كان اسم إلهةٍ مصرية ذات جسدٍ أنثى بشرية ورأس قطّة.

هل عليّ أن أثقّفه؟ في الوقت الراهن، تكمن الأولوية في مواصلة تعليمي، ولا أرى سببًا لأن أقلقه بمفاهيم تتجاوز قدرته على الاستيعاب.

ما الذي بوسعي أن أخبره به؟

في النهاية فيليكس سعيد لأنّه جاهل.

أنا أشفق عليه وأحسده في آنٍ واحد.

رآني أراقبه وأهزّ رأسي، فقاده تفسيره الخاطئ للعالم إلى الاعتقاد بأنني أعاتبه على كونه لم يعد يمارس الجنس معي، فوثب بقفزة واحدة على الرفّ الذي يوجد فوقه المرطبان الذي يحتوي على خصيتيه اللتين خسرهما ودلّني عليه بحسرة وحنين.

آه، أيّها الذكور، يجب على الدوام أن يعيدوا كلّ شيء إلى هذا الأمر.

أدرتُ له ظهريَ رافعةً ذيلي لكي أشير له إلى عدم اهتمامي وغادرتُ

لأعود إلى مراقبة ناتالي. كانت تتحدّث عبر الهاتف في الصالون، وذهبت نحو المطبخ، وتناولت الطعام الأصفر الذي كان يتصاعد منه البخار. ذهبت إلى غرفتها، ونزعت ثيابها، وتوجّهت نحو حمامها. لحقتُ بها عن بُعد. اغتسلت (بالماء والصابون، ولكنّها بدت أنّها تستمتع متعة منحرفة وهي تبلّل بالماء)، ثمّ وقفت أمام المغسلة، وأزالت مكياجها، ووضعت على وجهها مرهمها الذي تفوح منه رائحة الأعشاب، وراحت تستلقي.

نادتني ولكنني تظاهرتُ بأنني لم أسمعها. لن آتي لكي أخرخر عند قدميها، ولا حتى أستلقي بالقرب منها لكي أساعدها على أن تنام.

وبدل ذلك، تقدّمتُ نحو شرفة الغرفة ولمحتُ زميلي السيامي. أطلقتُ مواءً قصيرًا، حزينًا جذب انتباهه.

– كنتُ أودّ كثيرًا أن أراك، يا فيثاغورس، ولكنني لم أكن حسنة المنظر. اضطررتُ إلى أن أخضع إلى... حمّامٍ.

– لستُ هنا لكي أقاضيكِ، يا باستيت. تعالي، هيا لنتجوّل معًا في شوارع مونمارتر، فهذا سوف يساعدكِ على أن يجفّ وبركِ.

حينما التقينا في الأسفل، بدرت منه حركة ودودة وتلامسنا بخطمينا لعدّة مرّات. أحسستُ بأسفل أنفه الوردي والرطب وهو يلامس أسفل أنفي وأثار هذا شحنات كهربائية خفيفة في خطمي. ممّا لا شكّ فيه، انتبهتُ إلى أنني شعرتُ بشعورٍ قويٍّ جدًّا تجاهه. وكلّما قاومني أكثر، نما هذا الشعور أكثر.

إنّه لقاءٌ بين ذهنينا، وقد سحرني ذهنه.

ابتلعتُ ريقي وامتنعتُ عن التعبير له عن انجذابي إليه.

بينما كنّا نمشي، منحتني الرياح التي تسلّلت بين فرائي الرطب إحساسًا لا يُقاوم بالانتعاش. ارتعشت.

وصلنا إلى قمّة برج كنيسة القلب المقدّس ورويتُ له حينئذٍ عن التحرّي الذي أجريته حول العمل البشري والنهاية المرعبة للغاية لذلك التحرّي.

–... وقد ضحكوا!

علّق فيثاغورس، قائلًا:

- أمّا أنا فأتمنّى لو أنني أُجيد الضحك.

- لدينا الخرخرة.

- يخال لنا في بعض الأحيان أنّ الضحك يمنحهم متعة مفرطة، تكاد تكون متعة جنسية. تستمتع خادمتي بنفس الطريقة تمامًا عندما تضحك وعندما تمارس الجنس.

فجأةً، شاهدنا، من بعيد، انفجارًا.

- لقد رأيتُ هذا، اليوم، في الورشة، ولكنني لم أكن أعلم أنّهم يعملون في الليل أيضًا.

- كلا، إذا كان هذا يحدث في الليل، فهذا يعني أنّه ليس انفجارَ «عملٍ». هذا هجومٌ إرهابي. نظرًا إلى موقع الانفجار، يبدو لي أنّ المكتبة الكبيرة هي التي أُصيبَت. منذ أن توسّعت الحرب في العالم، يحاول الإرهابيون أن يزعزعوا استقرار مدينتنا بارتكابِ المذابح وإراقة الدماء. لقد وقعت الكثير من هذه الهجمات في هذه الفترة. في بعض الأحيان، كما رأيتِ ذلك، يُطلقون الرصاص على تلاميذ المدارس، وفي بعض الأحيان يقومون بتفجير أنفسهم وسط حشود الناس، وبشكلٍ عامّ في الأماكن الثقافية.

- لماذا يتصرّفون بهذه الطريقة؟

- إنّهم يخضعون لأوامر.

تحول الانفجار، في الموقع البعيد، إلى حريقٍ.

- منْ يأمرهم بأن يتصرّفوا بهذه الطريقة؟

لم يُجب فيثاغورس على سؤالي. تمطّيتُ في عدّة أوضاع لكي أحافظ على رباطة جأشي، ثمّ غيّرتُ الموضوع.

- ما يُزعجني هو أنّ خدمنا من البشر يتّخذون قراراتٍ من دون أخذ رأينا بالاعتبار. تذكّرتُ الطريقة التي التقيتُ بها مع ناتالي. كنتُ حينها قطّة صغيرة وأعيش في الريف. كنتُ أركض بين الأعشاب، وأتسلّق الأشجار، وأخالط الحلزونات والقنافذ والسحالي. ثمّ اقتُدنا ذات يوم، أمّي وأنا، إلى مكانٍ

مليءٍ بالأقفاص والحيوانات من كلّ نوع، بطيورٍ كانت تتكلّم، وبأسماكٍ متعددة الألوان، وبكلابٍ، وبسناجب وأرانب.

– على الأرجح هو «متجر للحيوانات الأليفة»...

– مرّت عدّة أيام ثمّ فُصِلتُ عن أمّي ووضعني وسط قطط صغيرة أخرى خلف واجهة زجاجية شفّافة تطلّ على الشارع.

– يضعون الأكثر جمالًا ولطفًا في الواجهات الأمامية لجذب الزبائن.

– وذات صباحٍ ظهرت ناتالي. استعرضت كلّ القطط الصغيرة المحيطة بي، ثمّ أشارت في النهاية بإصبعها نحوي ونطقت بجملةٍ.

– لا بدّ أنّها قالت: «أريدُ هذه».

– فأمسكت يدٌ بي و.. وُضِعتُ بين ذراعيها.

– مصيرٌ طبيعي لقطّةٍ.

– بعد ذلك، نظرت إليّ وبدأت تُردّد هذه الكلمة، «باستيت».

– لا بدّ أنّ الكثيرين يحسدونك على مكانكِ. فالقطط الصغيرة التي لم تُؤخَذ، على الأرجح... قُتِلَت. وتُسمى هذه القطط «غير المباعة».

واصل فيثاغورس النظر إلى النقطة المضيئة في المكان الذي حدث فيه الانفجار والتي كان اللهب لا يزال يتصاعد منها.

– لا أدري إن كنتِ شعرتِ بذلك، يا باستيت، وأنتِ تشاهدين الأحداث في تلفزيون خادمتكِ، لكن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. يزداد عدد القتلى باضطراد، ويزداد عدد البشر الذين يريدون قتل بني جنسهم باضطراد.

قلتُ:

– برأيي، قد يستطيع الدِّين إنقاذهم.

– الدِّين؟ في الوقت الراهن الدين هو الذي ينخر فيهم ويدفعهم إلى التدمير الذاتي.

– لأنّهم يخدعون أنفسهم بالإله الذي ينبغي عبادته. أنا مع عودة عبادة باستيت.

هزّ رأسه ولاحظتُ إلى أيّ درجة كان تفجير المكتبة الكبرى قد أزعجه.
سألني:

– هل ترغبين في تلقي درسك الثالث حول تاريخ البشر والقطط؟

جلستُ على مقعدي الخجري بأكثر ما استطعتُ من راحة، ومددتُ أذني جيّدًا إلى الأمام. هذه هي اللحظة التي أفضّلها.

– كان المصريون يشكّلون إذًا حضارةً كانت قد عرفت تطوّرًا باهرًا قبل أن تُدمّرها الحرب.

– مع قمبيز الثاني الرهيب، قاتل القطط.

– وتحرّر اليهود، الذين كانوا قبل ذلك عبيدًا في مصر، وفرّوا نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى أراضي يهودا حيث استقرّوا، وبنوا مدنًا وطوّروا التجارة انطلاقًا من موانئهم.

– وما هي التجارة؟

– إنّها أحد أقدم أشكال العمل، والتي تشتمل على مبادلة الغذاء أو الأشياء الواردة من مكانٍ بسلعِ مكانٍ آخر. وقد أسّس اليهود، قبل ثلاثة آلاف سنة، تحت قيادة ملكيهم داوود وسليمان، أسطولًا من السفن التجارية، ولكنّهم اكتشفوا أنّ مخزونات الغذاء التي ينقلونها تُتلفُ غالبًا من قبل الجرذان والفئران. فأمر الملكان أن ترافقهم قططٌ بشكلٍ دائم.

– وبهذه الطريقة بدأت القطط تسافر على مسافات كبيرة؟

– في البداية، عبر البحر الأبيض المتوسّط، ومن ثمّ على الأرض اليابسة في قوافل الجِمال.

– ولم نكن نُستخدَم إلّا من أجل حماية الغذاء البشري من القوارض؟ يبقى هذا الأمر مع ذلك مخيّبًا للآمال بعض الشيء.

– وأينما كان يبحر التجّار، كانوا يتركون القطط الصغيرة المولودة حديثًا على متن السفن. وقد عرفت هذه القطط الصغيرة الكثير من النجاح لدى المجموعات البشرية التي لم تكن تعرفها بعد. ومع ذلك، وبقدر ما انتشرت القطط، ظهر انقسامٌ بين البشر الذين كانوا يحبّون مرافقة القطط وأولئك الذين كانوا يحبون مرافقة الكلاب.

في البعيد، كان حريق المكتبة الكبرى يفقد تدريجيًا زخمه ويخمد.

– كان هواة القطط يحبّون بشكلٍ عام ذكاءها، في حين كان هواة الكلاب يحبون القوّة. كان المنتمون إلى المجموعة الأولى يحبّون الحرية، بينما يحبّ المنتمون إلى المجموعة الثانية الطاعة. بعضهم يحبّ الظلام، والآخرون يحبّون النور.

– المعسكران يكمّلان بعضهما إذًا.

– هم لا يرون الأمور بهذه الطريقة. حتى في ذلك العصر، كان الذين يحبّون الكلاب يطلبون في حالات كثيرة من كلابهم أن تُطارد القطط. في بعض القرى، كانت هناك فرقٌ بحثٍ للقبض عليها وقتل أكبر عددٍ ممكن منها.

– لقد قلتَ إنّ أجدادنا كانوا يُبحرون على متن السفن، ولكنّهم لم يكونوا يجيدون السباحة، أليس كذلك؟

– بالضبط، كان البشر على متن السفن يعرفون أنّ القطط سوف تفعل كلّ شيء لكي لا تغرق السفينة. وأصبحت القطط مع الوقت أكثر ذكاءً: كان لا بدّ من مساعدة البشر على التنبّؤ بالمشكلات التي قد ترغمهم على مواجهة المياه. كانت القطط تشعر بحدوث العواصف مسبقًا.

– في الواقع، طالما أنّك تعرف كلّ شيء، أودّ أن أعرف لماذا تجيد الكلاب السباحة، وليس نحن؟.

– بحسب ما أعلم، يكمن السبب في اختلاف جلدنا ووبرنا. ولكن يبدو أنّ بعض القطط تحبّ الماء. شخصيًا أنا مثلكِ، أكره فكرة حتى أن أكون مبلّلًا.

ارتعشتُ عندما تذكّرتُ الحمام الذي تعرّضتُ له قبل فترة قصيرة. لقد عرفنا، نحن الاثنين، لحظاتٍ صعبة خلال هذه الأيام الأخيرة.

– لقد تبعثرت القطط إذًا انطلاقًا من يهودا. تذكر نصوصٌ تعود إلى 1020 سنة قبل ميلاد يسوع وصول أولى القطط إلى الهند.

– الهند؟ ما هذه، أين تقع؟

– إنّه بلدٌ كبير في الشرق. بدأ تجارٌ بمبادلتنا مقابل توابل. ما أن اكتشفَنا الهنود، بدأوا بعبادتنا. استأنفوا عبادة إلهةٍ بجسد بشري ورأس قطّة ولكنّهم منحوها اسمًا مختلفًا: ساتي. لقد اعتُبِرَت هي أيضًا إلهة الخصوبة.

– لا بدّ أنّ هؤلاء البشر الهنود لطفاء جدًّا وحاذقون للغاية حتى استعادوا بهذه الطريقة عبادتي «أنا».

– كانت تماثيل ساتي جوفاء وعيونها مُضاءة بمصباح زيتي موضوعٍ في داخلها في سبيل إخافة القوارض وطرد الأرواح الشريرة.

– لا بدّ أنّ هذا جميلٌ جدًّا.

– يعتقد الهنود أنّ القطط هي التي علّمت البشر ممارسة اليوغا (رياضة بدنية قائمة على حركات التمدّد الجميلة مثل حركاتنا) والتأمّل (المستمدّ من غفواتنا العميقة).

منحتني هذه الجملة الأخيرة الرغبة في أن أقوم بحركات تمدّد جديدة، فمرّرتُ كفي الأيمن فوق رأسي لكي ألعق بطني.

– في عام 1000 قبل الميلاد، وصلت القطط إلى الصين: وهو بلدٌ أكثر بعدًا في الشرق، وأكبر حجمًا. وقد بادل التجارُ أجدادَنا بأنسجة حريرية رقيقة وناعمة، وبالتوابل، والزيت، والنبيذ والشاي. جعلت سلالة زو الحاكمة في تلك الحقبة من القطط رمزًا للسلام والسكينة، وجالبة للحظّ. وقد خلقوا هم أيضًا إلهةً تمجيدًا لنا، الإلهة لي شو، التي كانت على هيئة قطّة.

– استمرّت عبادة باستيت إذًا.

– لم تحتلّ القطط بلدان الشرق فقط، بل أيضًا بلدان الشمال. في عام 900 قبل الميلاد، يُذكَر وصول أسلافنا إلى الدانمارك. وقد أوجدوا عبادة إلهة الخصوبة فريا، التي كانت عربتها تُجَرُّ من قبل قطّتين مقدّستين. كانت القطّة الأولى تُسمى «حبّ»، والثانية تُسمى «حنان».

أنا لا أعرف ما هي الدانمارك ولا الصين ولا الهند، ولا يهودا أيضًا، ولكن ما فهمته من سرد فيثاغورس هو أنّ القطط، التي كانت موجودة فقط في مصر في عصرٍ من العصور، استخدمت البشر المسافرين لبسط تأثيرها على البلدان الواسعة باضطراد.

للمرّة الأولى، طلبتُ من فيثاغورس أن يعود إلى سرده لكي يشرح لي كلّ كلمة لم أفهمها. طلبتُ منه أن يصف لي صورة وألبسة ومظهر وطعام الشعوب البشرية التي ذكرها. لم يتلكّأ في إرضاء فضولي. من الآن فصاعدًا، لا أريد أن تُلفَظَ كلمةٌ من قبله دون أن أفهمها.

لم يبدُ فيثاغورس متفاجئًا بطلبي. كان صبورًا، وعاد إلى كلّ عبارة وشرح لي الذهنية البشرية التي تستند عليها حتى يتوّسع حقل استيعابي وفهمي لها.

سألتُه مرّة أخرى، كيف استطاع أن يعرف كلّ هذا.

حرّك رأسه تمايلًا، كما لو أنّه يتردّد في الإجابة، ثمّ بدا أنّه مستعدٌ لأن يكشف لي ما يخفيه عنّي منذ لقائنا الأوّل.

في تلك اللحظة، دوّى صوتُ انفجارٍ قريبٍ جدًّا.

أشار إليّ أن ألحق به. ما أن نزلنا سلالم البرج بسرعة، اتّجه بسرعة في اتجاه المكان الذي بدا أنّ هذا الصوت المُقلق قد أتى منه. هرولنا ووصلنا إلى جادة واسعة منارة بإنارة قويّة. كان هناك الآلاف من البشر المتجمّعين في مجموعتين متواجهتين. دلّني فيثاغورس إلى أننا سوف نرى على نحوٍ أفضلٍ من مكانٍ عالٍ على أغصان شجرةٍ. فتسلّقنا شجرة دلبٍ.

– أهذه هي الحرب؟

لم يتفضّل فيثاغورس بالإجابة على سؤالي وأشار إليّ أن أرى كيف يتصرّف هؤلاء الأفراد.

كان أفراد المجموعة التي تقف إلى اليمين يلوّحون بأعلامٍ سوداء ويردّدون الجملة نفسها.

وفي مواجهتهم، كان أفراد المجموعة التي تقف إلى اليسار عبارة عن بشرٍ يرتدون جميعًا ثيابًا زرقاء داكنة ويعتمرون خوذًا عليها أشرطة صفراء. كانوا يحملون دروعًا وعصي. وهم لم يكونوا يحملون أعلامًا وكانوا يلتزمون الصمت. بدا أنّ المجموعتين تنتظران شيئًا ما. كانت تفوح رائحة الهرمونات الذكورية قويّةً، وأحسستُ بين شواربي بموجة من النشوة المحضة.

ألقيَتْ زجاجة مشتعلة باتجاه المجموعة المرتدية للثياب الزرقاء الداكنة، التي تفرّقت في الوقت المناسب. انفجر المقذوف على الأرض وتناثر في بقعة مضيئة.

وفي الحال، ردّ الآخرون بإلقاء عبواتٍ نشرت خيوطًا طويلة من الدخان.

– كلا، هذه ليست الحرب، ليس بعد. ما ترينه هو مجرّد بوادر المواجهة.

هؤلاء الذين يرتدون الزيّ الموحّد هم المدافعون عن النظام القائم. والآخرون هم الذين يريدون تدمير هذا النظام.

– منْ منهم على حقّ؟

– هل حقًّا لهذا الأمر أهمية؟

فجأةً، هاجم حاملو الرايات السود مُرتدي الزيّ الموحّد الأزرق. وقع صدام المجموعتين اللتين باتتا الآن تشتبكان مع بعضهما بالأيدي.

اشتعلت حاويات القمامة، وأصبح دخان المقذوفات مزعجًا. صاح البشر وصرخوا وركضوا وتضاربوا باللكمات والركلات، وعضّ بعضهم بعضًا آخر. كشّروا وتجشّأوا ومزّقوا ثيابهم.

أصبح الهواء واخزًا، وآلمني بطني، فتقيّأت.

– وتقول إنّ «هذا» ليس الحرب بعد بالفعل؟

– لم يعد الأمر مجرّد إرهابٍ، ولكنّه لم يتحوّل بعد إلى حربٍ أهلية. هذه فقط «مظاهرة خارجة عن السيطرة». لا يستخدم حتى هذه اللحظة سوى قنابل المولوتوف أي (الزجاجات الحارقة) والقنابل المسيّلة للدموع (المقذوفات التي تطرح الدخان). سوف تعرفين أنّ الأمر قد تحوّل إلى حربٍ عندما ترين أنّ الجميع، في المعسكرين، يرتدون زيًّا موحّدًا باللون الأخضر، بدل ما ترينه الآن من زيّ موحّدٍ أزرق من طرف، وثياب عادية من طرفٍ آخر.

ذُهلتُ للضراوة التي بدأ البشر يحطّمون بعضهم بعضًا بها.

مُؤتُ:

– أعاني من صعوبة في التنفّس. هذا الدخان أسوأ بكثير من دخان سجائر خادمتي. لماذا اصطحبتني إلى هنا؟

– أردتُ أن تتحقّقي من هذا عن كثب. يجب أيضًا أن تعرفي أنّ ما يحدث هنا يحدث أيضًا في مدن كبيرة أخرى في فرنسا وأوروبا والعالم. هذا أشبه بحمى هستيرية من العدوانية التي تُصيب جميع المدن. يعتقد بعض البشر أنّ هذا قد يكون مرتبطًا ببقعٍ شمسية تزعزع حواسهم وتدفعهم إلى الاقتتال.

يبدو أنّ هذا يحدث كلّ أحد عشر عامًا. على أيّ حال، ما رأيته هو الدليل على ذلك: إنّهم في طورٍ من التدمير الذاتي. وهذه المرّة، أخذ الأمر حجمًا غريبًا. أشعر أنّهم وصلوا إلى الحلقة الأخيرة من تطوّرهم.

بقيتُ أراقبهم، مذهولةً بالمشهد، على الرغم من الحرقة التي أصابت عينيّ ورئتي. بعد فترة من الوقت، هززتُ أذنيّ: لقد حان وقت العودة.

فتركنا أولئك البشر في «مظاهراتهم» وعدنا إلى ملاذنا في بيتينا حيث انصرف كلٌّ منّا إلى بيته.

مررتُ من باب الهرّة وتسلّلتُ إلى سلّتي. وأخيرًا أصبح لديّ هدفٌ طموحٌ في الحياة: أن أستعيد هنا والآن، في هذه البلاد وكلّ البلدان الأخرى، عبادة الإلهة ذات رأس قطّة.

وهكذا سيكون البشر من جديد في سلامٍ، متّحدين في عبادتي.

-10-

حوادث في باريس

نمتُ كثيرًا ولوقتٍ طويل.

ربّما ليومٍ كامل، أو يومين. وقد سبق وأن حدث أن نمتُ ثلاثة أيام متواصلة دونَ أن أشعر بذلك.

ومع ذلك، استيقظتُ بينما كانت الشمس لا تزال مشرقة، وكنتُ منهكةً تمامًا.

تشممتُ نفسي، وتبيّن لي بأنّه لا تزال هناك بين وبري روائح الغازات المنبعثة من العبوات التي أُلقيت أثناء المظاهرة. لعقتُ فرائي في الأماكن التي كانت الروائح أكثر فوحًا فيها. ثمّ لفظتُ كرات الوبر التي تدحرجت أمامي.

استعدتُ التفكير في ما قاله لي فيثاغورس في آخر مرّة التقينا فيها. سيكون عليّ أن أجد الوسيلة لحفظ المعلومات جيّدًا وتذكّرها لكي أستطيع ذات يوم أن أثقّف بدوري كلّ بني جنسي.

في الحقيقة، لو أنّ فيثاغورس كشف عن معارفه لقططٍ أخرى أقلّ ذكاءً، لما اعتبرته هذه الأخيرة مجنونًا فحسب، بل ربّما كانت ستريد القضاء عليه.

بالنسبة إليّ، أنا تطوّرت، وأستطيع أن أفهم، ولكن بالنسبة إلى الآخرين، كان من شأن هذه المعارف أن تبدو بالتأكيد... غريبة... مجرّدة... بل ومحض جنون.

حينما يعتاد المرء على الأكاذيب، تبدو الحقيقة مريبة.

كان فيليكس يتناول طعامه في وعائه الخاصّ: ما الذي يمكن لقطٍّ مثله أن يفهم من الاكتشافات الاستثنائية التي تمتّعتُ بها؟

المعرفة تُرغم على تغيير طريقة التفكير ولا أحد يُريدُ أن يُشكِّك في رؤيته المحدودة للعالم.

تقيّأتُ من جديد شيئًا لاذعًا من أعماق حلقي (اللعنة، الحرب ليست مفيدة بالفعل للصحّة لأننا نشعر بآثارها الضارّة حتى في اليوم التالي. أعتقد أنني لا أهضمها).

انضمّ فيليكس إليّ، ولم يكن قد تجرّأ على إيقاظي وبدا في غاية السعادة لكونه استطاع أخيرًا أن يلقي عليّ التحية.

لقد مضت الآن أسابيع عديدة وأنا أعيش معه ولاحظتُ أنّه قد سمِنَ كثيرًا. هذا هو ما خسره جنسنا من جراء تحالفه مع البشر: نسيان ضرورة بذل الجهد. لا نركض بما فيه الكفاية، ولا نشعر بالخوف بما فيه الكفاية، ولم نعد نطرح على أنفسنا تحدّيات، ولا نفعل سوى تدبير حياةٍ يومية مريحة ومكرّرة على نحوٍ رهيب.

إذا لم يتحرّك شيء، ربما سوف أنتهي أنا أيضًا مثله: سمينة، جامدة بلا حركة، من دون أيّ مشروعٍ للحياة، وعلاوة على ذلك... راضية بالحال التي أنا فيها.

صعدتُ إلى غرفة خادمتي، ودخلتُ إلى الحمام وتسلّقتُ على المغسلة حيث بدا لي أنني امتلكتُ مرآة. الآن وأنا أعرف فيما تُفيد، لا أخشى من الوقوف أمامها وأنا أقف في توازنٍ على الحافة الخزفية للمغسلة. نظرتُ إلى نفسي.

يا إلهي! اكتشفتُ أنني أيضًا قد ازداد حجمي! هل أنا مريضة؟ لقد تقيّأتُ هذا الصباح، وعلاوة على ذلك، سمنت.

أغمضتُ عينيّ وحلّلتُ مشاعري الداخلية: فجأةً أصبح الأمر واضحًا.

أنا... حامل.

فكّرتُ، هل يمكن أن يكون هذا من فعل فيليكس؟ نعم على الأرجح.

فجأةً، لم يعد لديّ سوى رغبة واحدة: أن أمنح السبق في إعلان هذه المعلومة إلى جاري السيامي.

ولأنني كنتُ ثقيلةً جدًّا بما لا يسمح لي أن أقفز من شرفة إلى شرفة، نزلتُ وخرجتُ من باب الهرّة. ومن ثمّ ولجتُ إلى بيته.

– فيثاغورس! يا فيثاغورس! سأصبح أمًّا.

لم أتلقّ أيّ جواب. ولم تكن هناك أي علامة على حضور خادمته صوفي أيضًا.

هل يمكن ألا يكونا هنا؟ كيف سأستطيع أن أعرف تتمّة قصّة البشر والقطط؟

فتّشتُ البيت. كان هناك شيءٌ ما ليس على ما يُرام.

كان الموزّع الآلي لطعامه فارغًا، ووعاء شربه ناشفًا، وصندوق فضلاته نظيفًا. صعدتُ إلى الغرفة، كان سرير خادمته مرتّبًا، ولم أرَ أيّ أثرٍ يدلّ على حضور حديثٍ هنا.

نظرتُ إلى نفسي في مرآة غرفته على أمل أن تعطيني هذه المرآة معلومات مختلفة. ولكن هيهات، لم يكن هناك أدنى شكّ، لقد كبر حجمي. علاوة على ذلك، بدأتُ أشعر أنّ «أشياء» تتحرّك داخل بطني. وكانت حلمات أثدائي تحكّني، فلعقتها لكي أهدّئها.

قلتُ في نفسي: كم أنتِ بائسة، يا باستيت، من دون فيثاغورس ستصبح حياتكِ أكثر مللًا.

«باستيت!»

جاء الصوت من منزلي.

لقد عادت ناتالي إذًا. مررتُ من جديد من خلال بابي الهررة، وهرولتُ حتى وصلتُ إلى الصالون والتقيتُ فيه بخادمتي.

كانت تحمل في يدها كيسًا صغيرًا، ومن خلال الطريقة التي داعبت بها رأسي، خمّنتُ أنّ هناك أيضًا مفاجأة لي.

ونظرًا إلى النوعية النسبية لهداياها الأخيرة، خفّفتُ من حماستي.

فتحت جرابًا بلاستيكيًا وأخرجت منه طوقًا مع قلادة مذهّبة على شكل كرة.

لم أعرف كيف ينبغي أن أُقدِّر هذه الهدية. تُرى هل أدركت أخيرًا من أكون؟ أتكون هذه الهدية عبارة عن قربانٍ يقدّم لي؟

تحدّثت ناتالي معي ولفظت العديد من الجمل وهي تلفظ اسمي بوضوح، ولكن لكوني لم أكن مزوّدة بعينٍ ثالثة، لم أفهم شيئًا من رطانتها.

ثمّ جلستُ أمام التلفزيون واستنتجتُ بأنّه يجري الحديث فيه عن الأحداث التي وقعت مساء البارحة. وقد عُرِضَت الأضرار التي نجمت عن التفجير عن كثب. وشاهدتُ بعد ذلك مشاهد مصوّرة من المواجهة بين الرجال الذين كانوا يرتدون الزيّ الموحّد باللون الأزرق الغامق والآخرين الذين كانوا يلقون... ماذا كان اسمها؟ آه حسنًا! «قنابل مولوتوف».

ارتفع مستوى توتّر ناتالي إلى ذروته. وقد بدرت حركة منها لم يسبق لي قط أن رأيتها تقوم بها من قبل، شيءٌ من الجنون تمامًا: قضمت أطراف أظافرها بأسنانها وانتزعت منها قطعًا صغيرة لفظتها على الأرض.

وأصبح يُشاهدُ على شاشة التلفزيون الآن بشرٌ يتحدّثون بنبرات شديدة القسوة.

أحسستُ أنّهم يتوجّهون مباشرةً إلينا. كانت لبعضهم لحى طويلة، ولآخرين ربطات عنق، كانوا يرفعون قبضاتهم ويصرخون ويعبسون. تحسّرتُ على أن لا يستطيع فيثاغورس أن يُعلمني بآخر تطوّرات الوضع.

حينما انتهت ناتالي من قضم أظافرها، أشعلت سيجارةً وصبّت لنفسها مشروبًا كانت رائحة الكحول تفوح منه بقوّة.

من جديد، دهمني الغثيان. لم أكن في مزاجٍ للتخفيف عن خادمتي لأنني أحسستُ أنا أيضًا بالاضطراب.

مررتُ بالقرب من فيليكس، النائم، ثمّ تسللتُ إلى الطابق العلوي لكي أنفس عن غضبي وذلك بأن دسستُ مخالبي في إحدى أذني إلى أن أخرجتُ منها وبرًا أبيض.

أحسستُ أن أيامًا أكثر صعوبة تنتظرنا.

كم أحسستُ أنني حمقاء.

وكم رغبتُ في أن أصبح ذكية.

-11-

خارج أحشائي

مرّت قرابة ثلاثين يومًا لم أكفّ خلالها عن النوم والسمنة. أحسستُ بأنني غير قادرة أبدًا على التحرّك خارج منزلي. وإذا كنتُ أستيقظ، فذلك فقط لكي أتناول طعامي، وأنا أصادف أحيانًا خادمتي أو فيليكس.

إنّ ثلاثين يومًا من دون تلقي التعليم من فيثاغورس هي ثلاثين يومًا مهدورة، وبدا كلّ شيء في ذهني مبهمًا. لم يعد ذهني سحابةً، بل ضبابٌ مبعثر. شعرتُ بأنني غير قادرة على التفكير في الحرب أو بالتاريخ. ولم تعد لدي الرغبة في الخروج من البيت.

قرّرت الكائنات التي تعيش في بطني أن تخرج وتظهر.

لعقتُ بطني.

أحسستُ بنتوءٍ صغيرٍ يتحرّك بالقرب من سرّتي. «أهو الجيل الجديد»؟.

لا ينبغي أن يبدأ هؤلاء بمضايقتي حتى قبل أن يولدوا.

لم تكن لي حاجة بأن أنظر إلى نفسي في مرآة الحمام حتى أعرف بأنّ حجمي قد تضاعف. كما أنني لن أستطيع في الواقع أن أقف في توازنٍ على حافة المغسلة. ضخمة؟ كلا، العبارة الدقيقة سوف تكون بالأحرى بدينة. أصبحتْ أدنى حركة تتعبني، وأصبحتُ ألهث، وأشعر بالإنهاك والجوع.

كان الذهاب إلى وعاء طعامي هو الشيء الوحيد الذي أستطيع القيام به. وكانت الكائنات في داخلي تتحرّك بعنف. هل كانت تلعب لعبة الغميضة داخل بطني أم ماذا؟ هل كانت تلعب بالكرة بكليتيّ؟ أحسستُ بأنّها تتعارك.

هنا، والآن، ما الذي سيُسعدني بالفعل؟ أن تخرج هذه الكائنات كلّها من جسدي.

ظهرت نتوءات جديدة تقع تحت سماكة جلد بطني. أحسستُ وكأنّها تريد أن تمزّق الجدار الداخلي لبطني لكي تخرج.

حدث أوّل انقباض. ثمّ حدث الانقباض الثاني. أصبحت التقلّصات والانقباضات أكثر إيلامًا لحظةً بعد أخرى. أصبح كلّ انقباضٍ يبرم أحشائي.

لقد قضي الأمر، سوف أضع صغاري.

مؤتُ بقوّة إلى درجة كادت حبالي الصوتية تتمزّق.

هيّا يا ناتالي! تعالي بسرعة! يجب أن تعتني بي في الحال!

ولكن خادمتي تسمّرت مرّة أخرى أمام تلفزيونها. أذهلتني أنانية هذه المخلوقة البشرية. إنّها لا تفكّر بالفعل سوى بنفسها.

ارتميتُ بينها وبين الشاشة، ولكن بدل أن تداعبني أو تلحق بي، رفعتني وأزاحتني كي لا أضايقها.

كأنني أتحدّث إلى سمكة حمراء. فاضطررتُ إلى فعل «ذلك» بمفردي، في سلّتي. مرّة أخرى، تأكّد الحدس بأنّ المرء يعيش في الحياة دائمًا وحيدًا وأنّه لا يمكنه الاعتماد على أحدٍ.

عرض عليّ فيليكس أن يساعدني ولكنني كنتُ أعلم أنّه لن يفيد في شيء. إذا كان ذلك فقط لسحب قوائمي، فإنّ هذا سوف يزعجني أكثر من أيّ شيء آخر.

نظر إليّ قطّ أنغورا الأبيض بثبات بعينيه الصفراوين وبوجهه المصدوم تمامًا.

سمحتُ له بأن يبقى إلى جانبي ولكنني أمرته بألّا يزعجني. حتى وإن كان هو الأب، فهو ليس أيّ شيء آخر سوى «هذا».

بات بطني الآن نهبًا لحركات تشنجيّة تزداد إيلامًا لحظة تلو أخرى. وتسارعت التقلّصات. شعرتُ أنّ فيليكس يتعاطف معي، ولكن كيف لذكرٍ أن يستطيع بالفعل أن يفهم ما تحسّ به أنثى في هذه اللحظات؟ ثمّ أحسستُ أنّ شيئًا ما ينزل نحو أسفل جسمي.

اتّخذت وضعيةً أكثر راحةً في سلّتي، وبعد انقضاء برهةٍ من الوقت، برز رأسٌ مبلّل بعينين مغمضتين من جسمي، طرحته بثلاث انقباضات أكثر شدّةً. ها قد قضي الأمر. لقد وضعتُ للتوّ قطًّا صغيرًا. حرّكت الكرة الصغيرة السوداء ببطءٍ أرجلها، بينما كانت عيناها لا تزالان مغمضتين. وعلى نحوٍ غريزي، قطعتُ الحبل السرّي بفمي. كان له مذاقًا متميّزًا، ولكن في النهاية كان له طعمٌ لذيذ، فابتلعته. استمتعتُ بتناول لحم جسدي! ثمّ لعقتُ السائل الذي خرج مني والذي وجدته هو الآخر لذيذًا.

بينما كنتُ أذهب لكي ألعق القطّ الصغير، شعرتُ بتشنّجٍ جديد. هناك قطٌّ صغيرٌ آخر قد وصل. خرج بنفس الطريقة، وتبيّن بأنّه أبيض اللون بالكامل، هذه المرّة.

أنجبتُ ستّة قططٍ صغيرة في الإجمال.

قطٌّ واحدٌ أسود اللون، وقطٌّ واحد أبيض اللون، وقطّان صغيران أبيضان فيهما بقعٌ سوداء، وقطٌّ رمادي، وواحدٌ... برتقالي اللون.

كانت عيون الصغار مغمضة وأجسامهم مغطّاة بمادة لزجة خرجت من جسمي. لعقتهم واحدًا تلو الآخر.

واحدٌ فقط من بينهم لم يتحرّك، وهو الرمادي. عرفتُ بداهةً ما الذي يجب أن أفعله في هذه الحالة (يجب أن آكله)، ولكنّني لم أحظ بالشجاعة الكافية لفعل ذلك.

دفعتُه بعيدًا بعض الشيء وساعدتُ الخمسة الآخرين على أن يأخذوا مكانهم بالقرب من حلمات ضرعي التي كانت تحكّني.

تسلّق كلّ صغاري، وعيونهم مغمضة، وقد قادتهم الرائحة على الأرجح، لكي يلصقوا أفواههم ببطني.

رضعوا بشغفٍ من حليبي. إنّه إحساسٌ جديد، لذيذٌ وفي الوقت نفسه مؤلمٌ بعض الشيء (كان القطّ الصغير البرتقالي اللون يعضّني. وهذا الصغير، لم أرتح له أبدًا).

شعرتُ بأنني قد أُفرِغت ولكنني ارتحتُ. سرت فيّ موجةٌ لطيفة للغاية. أصبحتُ سعيدة، سعيدة جدًّا.

في النهاية، أسعدتني فكرة أن يكون لديّ أطفال، وهكذا، بعد كلّ هذا الانتظار وكلّ هذا الألم، اختارتني الحياة لكي أستمرّ من خلال ذريتي.

جاء فيليكس يلعق جبيني. عليّ أن أعترف بأنّ تلك اللفتة الواضحة، في تلك اللحظة، كانت ممتعة جدًّا.

– هل يمكنك أن تتولّى أمر الصغير الرمادي، من فضلك؟

التقط الجسد الصغير واختفى. حينما عاد، انحنى بلطف فوق كرات الوبر الخمس.

قال بتأثرٍ:

– هؤلاء أطفالنا.

لم أجرؤ على أن أُخبره بأنني أقمتُ علاقاتٍ أخرى مع ذكورٍ في الحي قبل بضعة أيامٍ من المرّة الأولى التي قمنا فيها بممارسة الجنس مع بعضنا.

أضاف:

– إنّهم رائعون.

حرّكتُ أذنيّ في محاولة لكي أعرف ما الذي تفعله ناتالي وسمعتُ صخب التلفزيون. كانت لا تزال مفتونة بالحرب إذًا.

لقد انطفأت طاقة الحياة لديهم، لكنّها انبعثت منّي.

– ماذا فعلت بالصغير الرمادي، يا فيليكس؟

– وضعته أمام ناتالي. حينما تصبح أقلّ انشغالًا، لا بدّ أنّها ستراه وتفهم الأمر.

في الواقع، سمعتُ في تلك اللحظة بالذات صياحًا، يشبه الصرخة التي أطلقتْها حينما اكتشفتْ الفأرة التي قدّمتها هديةً لها. سمعتُها وهي تركض، مضطربةً، ورأيتها تمسك بمجرفة وكيسٍ بلاستيكي.

وأخيرًا وافقت على أن تهتمّ بي. لم أشعر لا بالعتب ولا بالاستهجان. ابتسمت لي وداعبت قمّة جمجمتي ورفعت عدّة مرّات بإصبعها الوبر تحت ذقني.

اعتقدتُ أنّ ذلك كان بمثابة تقديم التهاني. وقد جاء ذلك في الوقت المناسب، إذ كنتُ أحتاج آنذاك إلى أن أشعر بأنّ هناك من يساندني ويشجّعني.

داعبت جبيني وقدّمت لي كوبًا من الحليب (لا بدّ أنّها اعتقدت بأنّ تقديم الحليب لي سوف يساعدني على إنتاج الحليب لصغاري). قمتُ بلعق الحليب لكي أُسعدها.

فكّرتُ مرّة أخرى بالصغير الرمادي الذي وضَعتُه في الكيس. ربّما تكون فكرة أن تأكل الأمّ صغارها قد أفادت، في الماضي، في إنقاذ حياة أمّهات جائعات ومنهكات. ولكن الآن وقد أصبحتُ (متحضّرة)، بدت لي هذه الفكرة غير لائقة. بل واعتبرتُ أننا، نحن القطط، لنا الحقّ في أن نُحنَّطَ بعد موتنا، وأن نُغطّى بأشرطة وأن يوضَع لنا قناعٌ يجسّد وجهنا، وأن نُدفَن ببعض المراسم الخاصّة.

سيكون من المناسب على سبيل المثال أن تحلق خادمتي شعر حاجبيها لإظهار حزنها على فقدان وليدي الجديد، الرمادي.

في هذه الأثناء، بدتْ أنّها، بدل ذلك، مشغولة بالتقاط صورٍ لقططي الصغيرة بهاتفها الذكي وبإجراء مكالمات هاتفية حيث سمعتُ خلالها مرات عديدة وهي تذكر اسمي بنبرة مرحة.

وفي تلك اللحظة ظهر فيثاغورس.

لا بدّ أنّه قد دخل إلى بيتي عبر باب الهرّة. اقترب ببطءٍ منّي.

– أحسنتِ.

ماء وهو يلعق قليلًا ظهري، الأمر الذي أسعدني.

– أين كنتَ؟

وحينما أدركَ فيليكس أنني أرغب في أن أبقى وحيدة مع القطّ السيامي، لم يعاتبني على ذلك ووافق على أن يذهب إلى حيث وعاء طعامه لكي يترك لنا شيئًا من الحميمية.

وقد راق لي هذا اللطف منه.

اعترفتُ له:

– لقد اختفيتَ، وقد أقلقني ذلك، وخشيتُ من ألّا تعود إلى هنا مرّة أخرى، أبدًا.

- كانت خادمتي بحاجة إلى إجراء اختبارات محدّدة عليّ. لقد أخذتني معها إلى منزلها الريفي لكي تُجري هناك اختبارات بوساطة مادّة خاصّة لا تمتلكها هنا.

- اختبارات؟

- رغبتْ في أن تطوّر أكثر عيني الثالثة.

- لكي تجعلكَ أكثر ذكاءً؟

- لكي تجعلني أكثر قدرةً على فهم عالمهم. لأنّ التاريخ يتسارع ويجب أن أكون جاهزًا للتدخّل.

اتّخذ من جديد تلك الهيئة الغامضة التي تؤثّر فيّ. لم أعرف عن ماذا يتحدّث، ولكنّه بدا أنّه منخرطٌ في عملية تتجاوز مداركي.

- متى عدتَ؟

- بالكاد قبل دقائق. لقد شعرتُ بأنّه عليّ أن آتي لمقابلتكِ.

بدوره، ودون أن يطلب مني الإذن، قام بلعق صغاري.

أشرتُ إليه على الأكثر عدوانية من بينهم، الصغير البرتقالي اللون.

- فيليكس -الذي هو الأب على الأرجح- أبيض اللون، وأنا بيضاء وسوداء. كيف يُمكن لهذا الصغير أن يكتسب هذا اللون؟

قال مناورًا:

- قانون علم الوراثة.

أظهرتُ له قلادتي الجديدة.

- جميلةٌ جدًّا، ولكنّها ليست مجرّد حليّ. لقد أهدتكِ خادمتك هذه القلادة الخاصّة لأنّ الأمر يتعلّق بجهاز تحديد المواقع جي بي أس. لا بدّ أنّه على الأرجح قد أحسّت بالقلق بعد الرحلة التي قمتِ بها إلى ورشة عملها، وقد تصرّفت بحيث لا يتكرّر هذا الأمر مرّة أخرى.

وعلى الرغم من أنّ هذا كان مزعجًا جدًّا، إلا أنّه بالمقابل كان مطمئنًا بالنسبة إليّ بأن أعرف أنني لن أضيع مرّة أخرى على الإطلاق.

أشار فيثاغورس إلى صغاري، وقال لي:

– لن تستطيعي الاحتفاظ بهم كلّهم.

– ماذا؟ وكيف ذلك؟

– يحتفظ البشر نادرًا بكلّ الصغار التي تُنجبها قطّة في ولادة واحدة.

– ماذا يفعلون بهم إذًا؟

– يبيعونهم، يقدّمونهم كهدايا، أو... يغرقونهم.

– ماذا؟

– هذا ما يفعله البشر منذ الأزل. لا جديد في هذا الأمر. خادمتكِ لديها قطّان بالغان: أنتِ وفيليكس، ولا تستطيع أن تتعامل مع خمسة قططٍ أخرى.

– ولكن هؤلاء أطفالي!

– في وعيها البشري، هي تعتقد أنّ صغاركِ ملكٌ لها.

– هذا بيتي *أنا* وهذه خادمتي *أنا*.

– هذه من البشر، وهي تتصرّف بموجب القوانين البشرية. ولا تنسي بأنّهم يعتبرون أنفسهم الجنس المتفوّق.

– وبالتالي من الضروري أكثر من أيّ وقتٍ مضى أن أنجح في التحدّث معها، لا لشيء إلّا لكي أقول لها بأنني أرغب في الاحتفاظ بصغاري وبأنني أشعر أنني جاهزة لكي أتولّى أمرهم جميعًا، وحدي، كما هم عليه.

– سوف يذهلني أن ينجح مسعاكِ هذا.

– ساعدني في ذلك، يا فيثاغورس، طالما أنّك مزوّدٌ بعينٍ ثالثة.

– أذكّركِ بأنني أُجيد تلقّي المعلومات البشرية، وليس إرسالها.

أكّدتُ له، جازمةً:

– ذات يوم سوف أتمكّن من إرسال المعلومات، من ذهنٍ إلى ذهن. وحينئذٍ سوف أخبرهم بما عليهم أن يفعلوه.

حدّق فيّ فيثاغورس بعينيه الواسعتين الزرقاوين.

– أعتقد أنّ لديهم في الوقت الحالي انشغالات أخرى غير الإصغاء إلى آراء القطط. لا أدري إذا كنتِ قد عرفتِ الأخبار البشرية الجديدة، ولكن في الحقيقة، بعد الإرهاب والمظاهرات والاشتباكات، تقترب الحرب الحقيقية.

– وهل الحرب «الحقيقية» تجعلنا نسعل ونتقيأ أكثر ممّا تفعله «المظاهرات»؟.

– بدل إلقاء القنابل المسيّلة للدموع وقنابل المولوتوف، يُطلقون، في الحرب، على بعضهم نيران البنادق (كما تعرفين، تلك العصي التي تلفظ نارًا) ويُلقون على بعضهم القنابل اليدوية أو القنابل المتفجّرة التي رأيناها من بعيد. وهذه توقع خسائر أكبر بكثير.

– إذًا، يبدأ النهار بمعلومتين مهمّتين: تُريد خادمتي أن تقدّم (تبيع أو تقتل) أطفالي، والحرب سوف تندلع عمّا قريب هنا.

– كان بودّي أن أنقل إليكِ أخبارًا أفضل، يا باستيت.

طرق أحدهم الباب. جاءت صوفي، الجارة، لزيارة ناتالي. وأمسكت هذه الأخيرة مباشرة بصغاري لكي تضعهم على وسادة من المخمل. تحدّثت السيّدتان بحماسة أمام ذريّتي وهما تردّدان اسمي. التقطتا صورًا بهاتفيهما الذكيين اللذين كانا يُطلقان ومضاتٍ. ثمّ لُفِظَ اسم فيثاغورس.

قال القطّ السيامي:

– سيكون عليّ أن أختصر هذا الحديث، فأنا أعتقد أنّ خادمتي تشعر بالقلق حالما آتي إلى هنا.

– ممّ تخاف؟

– أن أعلّمكِ «الكثير».

حككنا طرفي خطمينا ببعضهما في علامة على الوداع. أعشق ملامسة أسفل أنفه الصغير. وفي الحركة نفسها، شابكنا بين شعر شواربنا، ثمّ وضع رأسه على رقبتي وراح يرفعه بحركات متقطّعة كما لو أنّه يدفعني.

كنتُ أستمتع كثيرًا حينما يفعل هذا.

ثمّ رفَعتْه خادمته وأخذته بين تجويف ذراعيها، وغادرا بيتي. أعادت ناتالي الصغار ووضعتهم بالقرب مني، والذين بدأوا في الحال بالرضاعة.

لقد منحني الاتصال مع أفواههم الجائعة الإحساس بأنّهم ملتحمون بي وأنّ لا أحد سيكون بوسعه أن يفصل بيننا.

انتظرتُ إلى أن ينتهوا من شرب الحليب وأن يناموا لكي ألعقهم ومن ثمّ أمسكهم من جلد رقبتهم، كما كانت أمّي تفعل معي.

لم يوقظهم هذا.
أخفيتهم في زاوية من القبو حتى لا تتمكّن ناتالي من العثور عليهم.
ثمّ بدأتُ أخرخر حتى يعتادوا على هذه العلامة الصوتية.
فكّرتُ، وقلتُ في نفسي بأنّه لا شكّ في أنّ هناك حلًا، وأنّه يجب أن أجد استراتيجية لإنقاذهم من الموت.
تأكّدتُ من أنّ جميع صغاري سالمون، ثمّ صعدتُ إلى غرفة خادمتي. كانت مستلقية على السرير، ووجهها مغطّى بمرهمٍ له رائحة الخيار. جلستُ على صدرها وشعرتُ بنبضات قلبها.
خرخرت بترددٍ متوسّطٍ.
لا ينبغي إعطاء صغاري لأحدٍ أو قتلهم. أريد الاحتفاظ بهم والاعتناء بهم بنفسي.
كرّرتُ الرسالة عدّة مرّات.
ميّزتُ قرنيتي عينيها اللتين تتحرّكان تحت حواجبها، وهي إشارة على أنّ لديها نشاطًا دماغيًا مكثّفًا. إنّها تحلم. كم وددتُ أن أؤثّر على أحلامها لكي تتخلّى عن مشروعها المروّع. انفتحت يدها اليسرى وانغلقت.
استدارت وبدأت تشخر. تمدّد جسدها. أتمنى أن تكون قد فهمت رسالتي.
عدتُ إلى صغاري ونمتُ بدوري.
كان حلمي الذي حلمتُ به في المساء مريحًا للغاية. في هذا الحلم، عدتُ من جديد نحيلةً، ومعضّلةً، ورشيقةً، وركضتُ مع صغاري الخمسة في الغابة. هرولنا جنبًا إلى جنب في دربٍ. وصلنا إلى فسحةٍ مغطاةٍ بزهورٍ صفراء وتدحرجنا معًا بين العشب.
تسلّلت أشعّة الشمس من بين النباتات، وتصاعد غبار الطلع في الأجواء مدفوعًا بالحرارة. من فوقنا، غرّد طائر أبو الحناء، ورفرفت فراشات. ركض الصغار الخمسة في كلّ مكان، مذهولين بكلّ قطعة من خشب أو بأصغر حصاة.

-12-

جريمة

شعرتُ بقرصٍ على أثدائي.

استيقظتُ بفعل الأفواه الصغيرة لأطفالي الذين بدأوا بالرضاعة. كانت عملية الرضاعة هذه مؤلمة ومهدّئة في آنٍ واحد.

كانت أعينهم لا تزال مغمضة. مؤتُ ولكنّهم لم يستجيبوا. بدا أنّهم في الأيام الأولى ليسوا مكفوفين فقط بل وصمٌّ أيضًا. وحدها الرائحة كانت تسمح لهم بالتوجّه إلى موزّعي حليبي الأمومي.

لا أعرف الكثير عن كيفية الاعتناء بالأطفال. الأمر معقّدٌ بعض الشيء بالنسبة إليّ، ويجب عليّ أن أعتاد على حضور هؤلاء الصغار الخمسة الذين يحتكرون كلّ اهتمامي.

لعقتهم وخرخرت، فأنا لا أجيد سوى هذا.

مرّة أخرى، تبيّن لي أنّ القطّ الصغير البرتقالي هو الذي يعضّ أكثر قوّة من سواه ويدفع الآخرين في طريقه لكي يصل إلى الحلمات الأكثر امتلاءً بالحليب. وقد كان من المثير للدهشة أن أرى هذا الكائن الذي لم يفتح بعد عينيه يُدرك منذ الآن أنّ لديه منافسين ينبغي طردهم.

بعض الكائنات تكون مهيمنة منذ ولادتها.

تلك هي بوادر الصراع من أجل البقاء، مثلما سوف يشرحها لي على الأرجح فيثاغورس. ولكن في الوقت الراهن، لديّ اهتماماتٌ أخرى تشغل أحاديثي المطوّلة مع مرشدي السيامي. تردّدت أصداء صوت فتح باب

المدخل من جديد. صعدتُ من القبو لكي أرى ما الذي يحدث. ووسط انزعاجي الشديد، رأيتُ ناتالي تستقبل من جديد توماس.

بعد حادثة الحذاء، كنتُ أتمنى أن تكون قد تخلّصتْ منه نهائيًا. تحدّثت إليه خادمتي بصوتٍ مليءٍ بالمشاعر، وما أثار امتعاضي هو أنّها لفظت اسمي عدّة مرّات. ثمّ قادته إلى القبو حيث كان صغاري يموؤون لكي أطعمهم مرّة أخرى.

ركضتُ لكي أتدخّل ولكن فات الأوان. انحنى توماس ونظر إليهم بطريقة لم تعجبني أبدًا.

اتّخذتُ في الحال وضعية الهجوم، وقد توسّعت حدقتا عيني والتصق شعر شواربي بخدّي، ومالت أذناي إلى الخلف، وتشنّج ذيلي وانحنى على نفسه، ونفشتُ فرائي وحدّبتُ ظهري إلى أقصى ما أمكنني، وفتحتُ شدقي، وكشّرتُ عن أنيابي، وأخرجتُ مخالبي وبدأتُ أنبش الأرض.

لا تقترب!

كنتُ قد أصبحتُ جاهزة للوثوب على توماس، ولكن بدل أن يهرب أو يدافع عن نفسه، راح يضحك وهو يشير إليّ بإصبعه ويردّد اسمي.

اعتقدتُ أنّ هذا الكائن البشري لم يُدرك جيّدًا بعد مع من يتعامل.

ضاعفتُ من وضعيات التهديد لكي أُظهر له عزمي وتصميمي. وكان من شأن وضعياتي هذه أن تُرعب أيًا كان، ولكن ليس الرجل على ما يبدو. بعد أن رفع كتفيه، سحب قلمه الليزري وسلّطه أمامي تمامًا.

أوه كلا، ليس هذا! إلّا بقعة الضوء الأحمر! منْ بوسعه أن يقاوم هكذا توتّر؟

بالطبع، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أحاول من جديد الإمساك بالضوء المزعج الذي لم يتوقّف عن الانتقال من مكانٍ إلى آخر. كان عليّ بأيّ ثمنٍ أن أُمسِك بهذا الضوء الأحمر وإن كنتُ أعلم أنّ توماس هو الذي يقوم بالتلاعب به. سلّط شعاعه على ذيلي، وكما فعلتُ في المرّة الأخيرة، التففتُ على نفسي في محاولةٍ للإمساك به.

أتاح هذا التلهّي بالضوء لناتالي أن تُمسك بأربعة من صغاري وتأخذهم. وعندما استعدتُ أنفاسي وعدتُ إلى رشدي، كانا، توماس وهي، قد أصبحا في الحمام، وأغلقا بابه. انطلقتُ وقفزتُ إلى مقبض الباب. (آه كم يغيظني أن لا أستطيع فتح الأبواب!)

سمعتُ مواء صغاري.

حاولتُ عبثًا أن أغرز مخالبي في ألياف الخشب. من خلال الباب سمعتُ صوت صخب الماء الذي سال في المغسلة.

خرجت ناتالي بحركة خفيفة وأغلقت الباب وراءها قبل أن أتمكّن من التسلّل إلى الداخل. حاولت أن تُمسِك بي ولكنني لم أدعها تقترب مني.

بدأت أخربش الباب بكلّ ما أوتيت من قوّة. لم أعرف ما الذي كان يحدث في الحمّام، ولكنني كنتُ أعرف بأنّه عليّ أن أفعل كلّ شيء من أجل منعه. كان صغاري يموؤون، فموؤتُ بدوري، وأخرجتُ مخالبي كاملةً، وخمشتُ بأعمق ما استطعتُ خشب الباب.

نزلت ناتالي إلى القبو، وأخذت القطّ الصغير الوحيد الذي كانت قد أبقته، البرتقالي اللون، وداعبته كما لو أنّها أرادت أن تُظهر لي بأنّها تكنّ المحبّة لهذا الصغير بالتحديد. وماذا عن الآخرين؟!

اعتقدت ناتالي أنّها فهمت سؤالي لأنّها تحدّثت بلغة بشرية غير مفهومة مع نبرةٍ مهدّئة.

على الجانب الآخر من الباب توقّف المواء بالكامل. ومن ثمّ جاء صوتٌ قويّ لإطلاق الماء، فسرت رعشة رعبٍ في جسدي.

ومن ثمّ سمعتُ صوت دفعة ثانية من إطلاق الماء، تلتها دفعة ثالثة، ثمّ رابعة.

كلّا! هذا غير ممكن، لم يفعل هذا!

وأخيرًا فتح توماس الباب. لم أجد أيّ صغيرٍ من صغاري.

أين ذهبوا!

لقد أخفى توماس أربعة من أطفالي!

قفزتُ عليه، ممدّدةً رجلي إلى الأمام، مستهدفةً عينيه. ولكن قبل أن أفقأ حدقتي عينيه بمخالبي الحادّة، دفعني فجأةً ورحتُ أصطدم بالجدار.

آه كم هي جائرة سلطة البشر، لأنّهم أكبر حجمًا، ولديهم قدمان، ولديهم أيادٍ في أطراف أذرعهم بأصابع قابلة للإنفاذ...

حاولتُ أن أشنّ هجومًا جديدًا صدّه هذه المرّة بركلةٍ من قدمه. ثمّ أمسكت بي ناتالي ومنعتني من الانتقام لنفسي. تحدّثت معي بهدوء، حتى أنني شعرت أنّ صوتها مشوبٌ بالبكاء، واعتقدتُ أنني أرى دمعة تسيل على خدّها. تُرى هل تُشفق عليّ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم تُدافع عنّي؟ على الرغم من اعتراضاتي، قادتني إلى القبو، حيث حبستني.

خائنة.

لقد أدركتُ الآن أنّها قد استقدمت توماس فقط لكي يقتل صغاري، لأنّها لم تكن تمتلك الشجاعة لفعل ذلك بنفسها.

بقيتُ وسط الظلام أجترُّ غضبي الشديد. أنا أكرهها. بأيّ حقٍّ تسمح لنفسها باستئصال خصيتي ذكرٍ وبسرقة أطفال أمٍّ؟ لا بدّ أنّ هذا الجنس يشعر بأنّه أرقى من جنسنا حتى يتصرّف بكلّ هذا الاحتقار! أنا أكره البشر.

كيف تجرّؤوا على أن يفعلوا بي هذا؟

بدأتُ أفكّر في الانتقام منهم. أريدُ أن يموتوا. أن يموتوا جميعًا. فليدمّروا أنفسهم إذًا بحربهم وإرهابهم. كلا، سوف يستغرق هذا وقتًا طويلًا، يجب أن أضرب ضربتي بسرعة.

كان غضبي على أشدّه بحيثُ حطّمتُ كلّ ما وقع تحت أقدامي في القبو. أسقطتُ أوعية المربّيات، وحطّمتُ قوارير النبيذ، ومزّقتُ كلّ ما هو من النسيج أو الورق.

ولكن منْ يعتقدون أنفسهم، هؤلاء البشر! لقد حوّلوا الغابة والعشب إلى مدينة من الإسمنت، وحوّلوا الأشجار إلى أثاثٍ لمنازلهم، وحوّلونا إلى... ألعابٍ مؤقّتة يرمونها بعد استخدامها!

إذًا، بالنسبة إليهم، ألسنا سوى كائنات تُرمى في حاويات القمامة بعد استخدامنا، مثل كلّ الأشياء التي يتخلّصون منها حينما لا تعود تسلّيهم؟

أنا أكره الجنس البشري.

لم أعد أريد التواصل معهم: أريد فقط أن أقضي عليهم. أقضي عليهم جميعًا. بحيث لا ينجو أحدٌ منهم. ولا حتى ناتالي.

هدأتُ، وأصبحتُ ألهث.

بعد أن حطّمت أكثر ما أمكنني من الأشياء في القبو، تواريتُ، منهكةً، في الزاوية التي كنتُ قد أخفيتُ صغاري فيها على أمل أن أحميهم.

كانت رائحتهم لا تزال تفوح في الأجواء.

انتهى بي المطاف إلى أن نمت. حلمتُ من جديد أنني الإلهة المصرية باستيت. وأنني في معبد بوباستيس. كانت لديّ سيقان وأقدام وأحذية، وأرتدي ثوبًا، ولي حليٌّ شبيه بقلادتي التي هي جهاز تحديد المواقع جي بي أس، ولكن مع قلادة أكبر حجمًا بكثير.

وكان من حولي، يركع الألوف من البشر وهم يقدّسونني من خلال ترديد اسمي.

«باس–تيت! باس–تيت!»

طلبتُ منهم أن يقدّموا لي أطفالهم كقرابين. وقدّمتهم الأمّهات لي في سلالٍ. أمرتُ بأن لا يوفّر منهم سوى طفل من كلّ خمسة أطفال لكي يستطيعوا أن يخلقوا أجيالًا جديدة خدومة وخاضعة. وأمرتُ: «أعطوا الأفضلية لإبقاء الأطفال الشقر».

أمّا الأطفال الخدّج الآخرون فقد أُلقي بهم في حوض المراحيض العملاقة والتي سحبتُ مقبض طارد المياه لكي يتمّ إخفاءهم واحدًا تلو آخر.

ماء فيثاغورس إلى جانبي:

– أنتِ قاسية، يا باستيت.

– من خلال تصرّفي مثلهم، ربّما سوف أجعلهم يعون فظاعة أفعالهم.

ثمّ طلبتُ من البشر الذكور أن يتقدّموا في طابورٍ واحدٍ. أُخِذَ الذكور، واحدًا تلو آخر، من قبل حرّاسي. ثمّ عادوا وقد لُفّتْ ضمادةٌ حول أحواضهم ويحملون وعاءً تسبح فيه كرتان بلون الصوف.

خاطبتُ حلقة الذكور، برحابة صدر: «سوف يمكنكم من الآن فصاعدًا أن تتأمّلوها براحتكم. وإذا أردتم، يمكن إدخالها في أطواقٍ كالتي تحملونها حول أعناقكم».

ثمّ أشرتُ على حرّاسي بأن يقوموا بإثارة توماس بوساطة ضوءٍ ليزري أحمر يتحرّك كلّ الوقت. قاوم ولكنّه لم يستطع الإفلات من عقابه الأليم. قفز وركض خلف الضوء، وفي اللحظة التي وقعت البقعة الضوئية على ذراعه، عضّ نفسه إلى درجة الإدماء، وانفجرتُ ضاحكةً.

ثمّ أمرتُ بأن تُجلب إليّ خادمتي ناتالي. ركعت أمام أقدامي.

قالت وهي تموء بلغتي:

– سامحيني، يا باستيت، لم أكن مدركة.

– لقد فات الأوان على الندم والاعتذار.

– الرحمة، يا باستيت!

– في السابق، ربّما كان لا يزال من الممكن أن أشفق عليكِ، لأنّكِ في السابق كنتِ خادمة متحمّسة ومطيعة، ولكن ما ارتكبتِه لا يُغتفَر.

أمرتُ حرّاسي بأن يحبسوها في غرفة لا تستطيع الوصول إلى مقبض بابها. قفزت وخمشت الخشب ولكنّها لم تستطع أن ترتفع بما فيه الكفاية لكي تخرج. لمس فيثاغورس ذراعي.

– ربّما تقسين كثيرًا على البشر بهذه الطريقة، ففي النهاية، هم أخضعونا لهذه الأنواع من العقاب والألم بسبب جهلهم.

أجبتُه بوقارٍ:

– سوف يدفع جميع البشر ثمن قتل صغاري الأربعة. ما كان عليهم سوى أن يفكّروا قبل أن يُقدموا على هذا العمل الوحشي الفظيع.

استيقظتُ على صوت صرير باب القبو. ظهر شبحٌ بانعكاس الضوء في أعلى الدرج. استجمعتُ قواي، متأهّبة للوثوب في وجه القادم الجديد، ثنائي الأقدام.

إنّها ناتالي. كانت تمسك بين يديها القطّ الصغير البرتقالي وقالت: «أنجيلو» وهي تداعبه.

ولأنّها كرّرت عدّة مرّات هذا الاسم، أدركتُ أنّها قد أطلقت هذا الاسم عليه.

وهو ماءَ لأنّه كان جائعًا.

لم أجرؤ على الهجوم.

يا لها من معضلة.

تركتُ خادمتي تضع الكرة الصغيرة من الوبر الأصهب بالقرب من بطني، وشعرتُ في الحال بالارتياح من جرّاء قيامه بمصّ حلمة ثديي بفمه الشره.

وافقتُ على أن أتمدّد أرضًا لكي يتّخذ وضعية أكثر راحةً.

فقد تأجّل انتقامي إلى أجلٍ آخر.

رضع أنجيلو وامتصّ أيضًا غضبي.

هكذا هي حياتي، لم أختر خادمتي، ولم أختر بيتي، ولم أختر اسمي، ولم أختر ذكري، ولم أختر أيّ طفلٍ من أطفالي ينبغي أن ينجو.

ما أن شبع أنجيلو، فككته بهدوءٍ وحذر عن ضرعي، وتركته ينام في زاويةٍ. ثمّ استفدتُ من حقيقة أنّ باب القبو ظلّ مواربًا لكي أتجوّل في بيتي.

جلست ناتالي في المطبخ.

تناولت وجبتها وحدها. كان توماس غائبًا.

انحنيتُ على حوض المرحاض ولعقتُ الماء الراكد فيه لأرى إن كان لا يزال يحتفظ بقليلٍ من مذاق صغاري. ثمّ ذهبتُ نحو بكرة ورق التواليت، وخمشتها ونشرتُها على طولها. ثمّ مزّقت الورق إلى قطع رقيقة لكي أنثرها في قصاصات صغيرة (كان هذا الأمر في الحالة الطبيعية يُغضِبُ ناتالي). ثمّ تسلّلت نحو الأريكة، فانتزعتُ شرائطها وأعملتُ مخالبي في المخمل وأنا أنتزع قطعًا كبيرة من المادة الطرية والبيضاء. ما الذي قد يمكنني فعله أيضًا لإيقاع الخسائر لكي أعاقبها؟

أسقطتُ أرضًا مزهرية تحطّمت وتناثرت في قطعٍ عديدة على الأرض.

هاجمتُ أوراق الزريعات والشتلات الخضراء في المدخل، ومضغتها ثمّ لفظتها من فمي، وأنا أقول في نفسي: (خذي، أيّتها الخادمة، ها هو ما فعلته بشجرة الحبّ خاصّتكِ!). قضمتُ شريط فأرة حاسوب مكتبها، ثمّ قضمتُ شريط مسجّل الصوت خاصتها إلى أن... أخذتُ صعقة كهربائية في أسناني. ولأنّه بدا لي كلّ هذا غير كافٍ بعد، ذهبتُ إلى الغرفة وتبوّلتُ بغزارة على وسادة السرير.

وفي النهاية، بعثرتُ محتوى صندوقي للقمامة بما فيه من فضلاتي حول الحاوية مستخدمةً قائمتيّ الخلفيتين (كما لو أنني كلب) ورحتُ أتقيّأ كرات من الوبر الدبق في حقيبة يدها.

ثمّ، وقد أعياني التعب من كلّ هذا التخريب، عدتُ نحو أنجيلو وساعدته لكي يأخذ مكانه أمام حلمات ضرعي. كم هو صعبٌ أن تكوني أمًّا ومحاربة منتقمة في آنٍ واحدٍ! كان لا يزال الصغير جائعًا. كان يبدو أنّه غير مبالٍ تمامًا بغياب إخوته.

- هيّا، استمتع يا أنجيلو، ليست لك أيّ علاقة بما حدث.

وضعتُ كفّي فوق قلبه وشعرتُ بالنبضات الخفيفة. إنّها الحياة.

نحن جميعًا نواقل تساعد الحياة على السير عبرنا لكي تنتشر.

-13-

لا رغبة، لا ألم

مرّ الوقت وأنا أحطّم كلّ يوم غرضًا كنتُ أتمنّى أن يكون نفيسًا في البيت. أحببتُ الضجيج الحادّ للزجاج حينما يتهشّم على الأرض. أحببتُ صخب القطن حينما يخرج من الوسائد التي كنتُ أمزّقها بمخالبي. الستائر؟ لقد فضّلتُ أن أمزّقها إلى شرائح متناثرة. فساتين ومعاطف خادمتي؟ لقد ثقبتها بثقوبٍ في كلّ مكانٍ منها. الجوارب والكلسات الموضوعة في سلّة الغسيل؟ لقد أحببتُ كثيرًا أن أنتفها وأصنع منها كُريّات كبيرة. ثمّ غرزتُ فيها أنيابي كما لو أنّها ثمارٌ ناضجة للغاية.

لا أعتقد أنّ زريعة خضراء واحدة ظلّت سليمة في المكان. لو أنّها كانت واعية، لا بدّ أنّها ستكرهني.

لكن لم يبدُ أنّ مشروعي في التدمير المنظّم قد أثّر على خادمتي. فقد أظهرت لي ناتالي (ربّما بمحض استفزازٍ) كلّ أنواع الاهتمام والتقدير. فقد أصبحتُ أمتلك الحقّ في المزيد من الطعام، والمزيد من المداعبات، والمزيد من الكلمات اللطيفة، وغدت الأبواب من الآن فصاعدًا مفتوحة على الدوام.

إنّها تعشق صغيري البرتقالي الذي تنعم عليه بالرعاية والعناية والقبلات والمداعبات. فكان يُصدرُ أصواتًا حادّة مرحًا حينما تحكّ له أسفل رقبته.

منذ أن فتح أنجيلو عينيه على العالم، في اليوم السابع من ولادته، تغيّر سلوكه. لم يعد يعضّ على نحوٍ أليمٍ على حلمات أثدائي (فقد نمت أسنانه)

فحسب، بل أصبح يركض في كلّ مكان ويسدّد إليّ ضرباتٍ بكفّيه. هل تجدون، أنتم، أنّه من الطبيعي أن يُسيء قطٌّ صغير معاملة أمّه؟

وماذا إذا لم يكن يضرب أحدًا سواي؟ كما أنّه شوّه وجه المسكين فيليكس بمخالبه. أنا التي لطالما اعتقدتُ أنّ على الذكور المسنّين أن يعلموا الفتيان الصيد واحترام من هم أكبر منهم سنًّا، أصبحتُ أخشى أن لا يحالفني التوفيق في حالة أنجيلو.

وفيليكس الكسول الضخم هذا لا يقوم بمسؤولياته ولا يفعل شيئًا سوى تناول الطعام والنوم. وعلاوة على ذلك، جعلته ناتالي يتذوّق طعم «نعناع الهرّ الحقيقي»[1]، الذي أدمن عليه فيليكس وراح يستهلك منه بإفراط. أعتقدُ أنّ المخدّرات، في النهاية، هي الوسيلة الأسرع للسيطرة على العقول الساذجة مثل عقل قطّ أنغورا هذا. كان يأكل منها حزمًا كاملة، ويشمّ، ويمضغ، ويهزّ رأسه، ثمّ فجأةً يتدحرج على ظهره ويشعر بالنشوة. ومن المؤكّد أنّ هذا لن يساعده على القيام بأداء مسؤولياته كأب. لقد عرض عليّ تناول ذلك النعناع المخدّر، ولكن لا يحتاج المرء إلى أن يكون ذكيًّا جدًّا حتى يشكّ في أنّ أمًّا مرضعة لا تهتمّ بتناول منتوجات مهلوسة.

انتظرتُ إلى أن أصبحتُ أحسن حالًا بقليل لكي أعاود الاتصال مع فيثاغورس.

دوّت صرخة بشرية أعقبها دوّي انفجارٍ في الشارع. انقسمتُ بين الفضول وواجبي في الإرضاع. فليكن. تحرّرتُ من طفلي الوحيد. وضعتُ أنجيلو على وسادتي لكي يبقى مشبعًا برائحتي، ثمّ تسلقتُ إلى الطابق العلوي وخرجتُ إلى الشرفة.

كان بشرٌ يصرخون كالمجانين في الشارع. وكان كائنٌ بشري يهدّد آخر بسلاح. كانا يتكلّمان مع بعضهما بسرعة. انطلقت رصاصتان، فسقط أحدهما وفرّ الآخر.

1- نعناع الهرّ الحقيقي: نبات عطري يتبع الفصيلة الشفوية من طائفة ثنائيات الفلقة. سمي بهذا الاسم نظرًا لتأثيره الكبير على القطط، حيث يؤدي شم رائحة هذا النبات إلى شعور القطط بالنشوة والسعادة. المترجم

أبهرني مشهد جنون البشر تمامًا مثلما يُبهر التلفزيون ناتالي.

توسّعت بركة الدم الذي سال من الرجل الذي سقط على الأرض. أدهشني أن يحتوي جسدُ كائنٍ على كلّ هذه الكمية من السائل.

اقترب بشرٌ آخرون في الحال وهم يُطلقون صرخات مختلفة. ثمّ نقلت شاحنة صغيرة جسد الرجل الذي كان على الأرض وتفرّق الناس.

وعلى نحوٍ غريب، وللمرّة الأولى، تبيّن لي أنّ موت البشر لم يعد يؤثّر فيّ أبدًا. قبل ذلك، كنتُ أشعر بوخزٍ خفيفٍ، بضيقٍ، وبانزعاجٍ حينما كان أحدهم يتألّم أو يسقط، أما الآن فقد بات الأمر بالنسبة إليّ سيّان تقريبًا. هل أصبحتُ عديمة الإحساس؟

أعتقد أنّه سيلزمني بعض الوقت حتى أهضم صدمة فقدان أطفالي. ثمّ إنني أعتقد أنني قد انتهيتُ، مثل ناتالي، إلى الاعتياد على عنف البشر، وأعتبره على أنّه قدرٌ حتمي لا مفرّ منه.

أدرتُ رأسي نحو المنزل المجاور ورأيتُ فيثاغورس على شرفته وهو يُراقب المشهد.

تكوّم على نفسه، واستجمع حماسته، وعبر بقفزة واحدة المسافة بين بيتينا وأجرى عملية هبوط رائعة على حرف شرفتي.

فركنا أنفي بعضنا، ثمّ قام بتلك الحركة اللذيذة لكي يمرّر قمّة جمجمته المزوّدة بالعين الثالثة في مثلّث رقبتي.

قال:

– أعرف ما حدث لكِ. لقد تحدّثت خادمتكِ عن ذلك إلى خادمتي. لقد قتلوا غرقًا أربعة من صغارك. كنتُ أعلم أنّكِ حزينة ولذلك لم أرغب في المجيء إليكِ وإزعاجكِ، لكي تتمكّني من أن تعيشي حدادكِ وحزنكِ.

– سوف أنتقم لنفسي.

– لا تحمّلي نفسكِ هذا العناء. لقد رأيتِ للتوّ بأنّهم يقضون على بعضهم بأنفسهم. لقد قضي الأمر، لم يعد هذا إرهابًا، بل بدأت الحرب الأهلية تلامس مدينتنا. لماذا نتعب أنفسنا ونجازف بمواجهتهم؟ في الوقت

الراهن، اهتمي بدل ذلك في أن تنقلي إلى أنجيلو القدرة على التطوّر في عالمٍ قيد التحوّل.

اقترحتُ على فيثاغورس أن نصعد إلى السطح.

جلسنا على ألواح السقف الساخنة، القريبة جدًّا من المدخنة.

قال لي:

- لقد فكّرتُ فيكِ البارحة مساءً. كانت خادمتي تشاهد فيلمًا على التلفزيون، وهو فيلم **المرأة القطة**. وهو عبارة عن قصّة امرأة من زمننا هذا تتصرّف مثل قطّة، ودار في خلدي أنّ هذه تشبه نوعًا ما باستيت المعاصرة.

- ماذا تعني كلمة « فيلم »؟

- هو عبارة عن قصّة تظهر على التلفزيون ولكنّها ليست حقيقية. إنّها صادرة عن خيال كاتب قصصٍ.

- وكيف كانت تتصرّف «**المرأة القطة**» خاصّتك؟

- كانت تقاتل الرجال وتربح كلّ المعارك.

ملتُ برأسي. سرت فيّ رعشةٌ لم أستطع السيطرة عليها.

- القتال. القتال دائمًا. لماذا العالم عنيفٌ إلى هذه الدرجة؟

- ربّما لو لم يكن هناك عنفٌ لشعرنا بالضجر. ولتشابهت الأيام كلّها. هل تتخيّلين أن يكون الطقس جميلًا كلّ يوم؟ العنف يشبه إلى حدٍّ ما العاصفة. هو تكثّفٌ مفاجئ للطاقة التي تنفجر. وحالما تُفرَّغ شحنات كلّ شيء، وتتحوّل الغيوم السوداء إلى قطرات مطر، وتتساقط كلّ القطرات، يتوقّف كلّ هذا وتعود الأيام التي يكون الطقس فيها جميلًا. هناك عنفٌ في كلّ مكان. حتى النباتات تتقاتل. يخنق اللبلابُ الأشجارَ، وأوراقُ الشجرِ تتزاحم وتسترق فيما بينها الوصول إلى أشعة الشمس.

فكّرتُ من جديد في الشخص ذي الثياب السوداء الذي قتل البشر الصغار أمام دار الحضانة، وفكّرتُ من جديد في الصور التي كانت خادمتي تحدّق فيها على شاشة التلفزيون، وفكّرت من جديد في حكاية قمبيز الثاني تلك والذي كان يربط قططًا حيّة على دروع المقاتلين... أهي عواصف بسيطة؟.

- برأيي، جميع أنواع العنف صادرة عن انعكاسات قديمة بين الحيوانات المفترسة والطريدة. في البداية، ربّما كانت هذه الحاجة إلى التدمير تفيدنا في الدفاع عن أنفسنا وفي النجاة. كان هناك الأقوياء والضعفاء، المسيطرون والخاضعون، ومن ثمّ فقد العنف أسباب وجوده، والآن لم يعد العنف سوى التنفيس عن الغضب. وأعتقد أنّهم بعد ممارسته يشعرون بأنّهم قد «ارتاحوا» كما لو أنّهم تبوّلوا وارتاحوا من ضغط المثانة.

- ولكن هذا أمرٌ سيئ!

- ألا تعتقدين بأنّكِ تمارسين بنفسكِ شكلًا من أشكال العنف حيال البراغيث حينما تحكّين أذنكِ؟ هذه الحشرات البريئة التي لا تعرف حتى من تكونين؟

- البراغيث! ولكنّها ليست سوى حشرات صغيرة جدًّا...

- لماذا يغيّر الحجم شيئًا في الأمر؟ ألا تعتقدين أنّ كلّ من يحيا يمتلك إحساسًا؟

- أجل، بكلّ تأكيد.

- إذًا، في هذه الحالة، لماذا لا تمتلك البراغيث إحساسًا؟

- لا يمكننا أن نقارن بين موت صغاري وموت البشر الذين يقتلون بعضهم في الشارع مع موت البراغيث!

- ولمَ لا؟ فكما تعلمين، يا باستيت، ربّما يكون كوكبنا أيضًا كائنًا حيًّا شاملًا وربّما يكون، بالنسبة إليه، البشر، مثل القطط تمامًا، طفيليات تزحف على سطحه وتأكله. وإلى جانب ذلك، ربّما تكون الزلازل والهزّات الأرضية بالنسبة إليه طريقة للتخلّص من طفيلياته.

- الكرة الأرضية ليست حيوانًا.

- برأيي، لا بدّ أنّها تمتلك شكلًا من أشكال الإحساس. إنّها دافئة، وتتنفّس، وتعيش. لها غطاءٌ جويّ، وغطاءٌ نباتي، لها...

- هذا غير قابلٍ للمقارنة.

- نحن جميعًا لدينا تصوّرات متمركزة حول أحاسيسنا العرقية. بالنسبة إلينا، نحن القطط، نرى الآخرين بمستوانا: وبالتالي حياة القطط مقدّسة.

– والبراغيث أيضًا يجب أن تعتقد بأنّها مقدّسة؟

– بالنسبة إلى الكوكب، على الأرجح تكون الأولوية لبقائه واستمراره.

لم يكن قد سبق لي أبدًا أن ذهبتُ بعيدًا إلى هذا الحدّ في أفكاري لأنني كنتُ أبقى دائمًا محدودة التفكير في العالم «المرئي». وكنتُ غير مبالية بأمر البراغيث والكوكب بكلّ بساطة لأنني لم أكن قادرة على رؤيتهم.

مرّة أخرى بدا فيثاغورس يمتلك تفكيرًا متقدّمًا.

لم أستطع الامتناع عن حكّ أسفل ذقني لكي أطرد براغيثي. فهذا يُريحني ويساعدني على أن أهوّن من كلّ الأحداث الجديدة.

– هل تعتقد حقًّا أنّ حرب البشر سوف تستطيع أن تؤدّي إلى إبادتهم الكاملة من دون أن نحتاج إلى التدخّل؟

– لقد استحدثوا أنظمة جديدة للتدمير: الغازات السامّة، الفيروسات القاتلة، إشعاعات القنابل الذرية، هذا من دون الحديث عن نوعٍ من «غسيل الدماغ» لجعل الناس أكثر تعصبًا وأكثر لامبالاة بموتهم. وهذا التعصّب قد يكون في الواقع سلاح التدمير الشامل الأكثر فاعلية.

– «غسيل الدماغ»؟ هل حقًّا يغسلون أدمغتهم؟

– كلا، هذا تعبيرٌ بشري: لكثرة ما يُردَّد شيءٌ خاطئٌ، ينتهي الأمر بالمرء إلى أن يقنع الآخرين بأنّه على صواب.

– لقد فكّرتُ ذات مرّة في جملة تختصر هذا: «حينما يعتاد المرء على الأكاذيب، تبدو الحقيقة مريبة».

– في هذه اللحظة، يُقنع بعض الناس من هم أكثر سذاجة بأنّه من خلال قتل الكثير من بني جنسهم، سوف يحظون بمكافآت غير عادية في العالم غير المرئي الذي يعقب حياتهم.

– وهل هذا ينجح؟

– بما يكفي لوضع كلّ شيء موضع التساؤل. لم ينجح أحدٌ حتى هذه اللحظة في إثبات أنّهم كانوا على خطأ، وبالتالي يقنع رجال الدين المزيد من الشبان بأن يقتلوا لكي يذهبوا إلى الجنة.

– وهل يمكن لهذا أن يذهب إلى حدّ تدميرهم الكامل؟

– لا ينبغي التقليل من شأنهم. البشر لديهم القدرة على النجاة من كلّ شيء. لقد أجادوا على الدوام التكيّف والتأقلم مع الظروف الأكثر صعوبة. وعند كلّ أزمنة تعصف بهم، ظهر أفرادٌ أذكياء بما فيه الكفاية ليُتيحوا لمجتمعهم أن يولد من جديد.

حككتُ مخالبي على الألواح الأردوازية للسطح إلى أن آلمتني أطرافها. أطلق تنهيدة.

نظرتُ في عينيه مباشرةً: لقد كان بكلّ تأكيد يزداد جاذبيةً.

– سوف أُلقي عليكِ درسي الرابع في التاريخ. إلى أين كنّا قد وصلنا؟

نصبتُ أذنيّ. ذكّرته:

– في الدرس الأخير، كان أسلافنا قد بدأوا بالاستقرار على مساحاتٍ شاسعة من الأرض بفضل البشر التجّار.

– بعدهم، العسكر هم من قاموا بنشر القطط في العالم. في عام 330 قبل الميلاد، غزا الجنود اليونانيون مملكة مصر الكبيرة (وكلّ مملكة يهودا الصغيرة) واستولوا على مخزونات الطعام، والثروات، والإناث الخصيبات وقططهنّ. كان اليونانيون يستخدمون إلى تلك اللحظة أبناء عرس، والنموس، وبنات آوى في حماية محاصيلهم ومنازلهم، سوى أنّه كانت لهذه الحيوانات عيوبها: لم تكن عدوانية وصعبة على التدجين فحسب، بل كانت أيضًا تفوح منها روائح كريهة جدًّا.

– لا أستطيع أن أفهم الافتقار إلى النظافة لدى الحيوانات المحيطة بنا.

– كان اليونانيون، شعب المحاربين الغزاة، يملكون كلابًا مدرّبة على الصيد والحرب، ولكنّهم بدأوا بتربية القطط لكي يقدّموها هدايا بغية إغراء الإناث.

– كما هي العادة، أليس كذلك؟

– يروي أريستوفان، وهو أحد شعرائهم المشهورين، أنّه كان هناك، في عاصمتهم أثينا، سوقٌ خاصٌّ ببيع القطط وأنّ القطط كانت غالية الثمن جدًّا. ومن جرّاء ذلك، اتّحدت عبادة الإلهة المصرية باستيت مع عبادة الإلهة اليونانية آرتميس التي نالت اللقب الجديد «ملكة القطط».

– إذًا، لقد انتهى الأمر باليونانيين أيضًا إلى الرضوخ لحقيقة أننا كنّا جديرين بأن نكون مقدّسين...

– وبعد ذلك، حينما قام الرومان (وهو شعبٌ آخر محارب يعيش سكانه في الغرب) بغزو اليونان، استولوا على ثقافتهم وتقنيتهم وآلهتهم... وقططهم. وأصبحت الإلهة اليونانية آرتميس الإلهة الرومانية ديانا، وهي الأخرى ملكة القطط. عند الرومان أيضًا، كان تقديم قطّة صغيرة كهدية هو وسيلة لإغواء الإناث، تمامًا مثل تقديم أزهارٍ أو حلويات.

– ولكن هل كانوا... يحبوننا؟

– لا أهمية كبيرة لذلك، لقد شغلنا مكاننا في حضن أسرهم وهذا ما كان مهمًّا. في حين كانت الكلاب تنام في الخارج، كنّا ننام وسط الدفء بالقرب من النار.

– إذًا، كانوا يحبوننا.

– ثمّ أدّت خصوبة أسلافنا إلى تزايد سريع في عددنا. ففي حين كان في البداية الأغنياء الرومان فقط يمتلكون قططًا، سرعان ما امتلكها الجميع دون استثناء. وقد اعتاد جنود الفيالق على الذهاب إلى الحرب وهم يأخذون قططهم معهم.

– أتمنى ألا يكون ذلك من أجل ربطها على الدروع.

– كانوا يأخذونها معهم لكي يكون حضورهم لطيفًا خلال محطات التخييم المرتجلة، بحيث كان توسّع الإمبراطورية الرومانية مصحوبًا بتوسّع انتشار القطط.

– كنتُ أعتقد أنّ هذا من صنيع التجار العبرانيين، أليس كذلك؟

– لم يصل هؤلاء سوى إلى المدن التي فيها موانئ والمناطق الساحلية. بينما كان الجنود الرومان يتغلغلون في السهول والجبال، والوديان. كانوا يغزون البلاد في أعماقها وبصورة شاملة. أمّا سكان المناطق النائية الذين لم يكونوا قد رأوا أبدًا قططًا من قبل، فقد اكتشفوها للمرّة الأولى.

– في الوقت نفسه الذي كان الجنود الرومان يأتون لنهبهم وقتلهم؟

– أرى أنّكِ بدأتِ تفهمين بعض تناقضات ومفارقات المنطق البشري. كانت القطط تُقدّمُ من قبل الرومان كرموز لدرجة رقي حضارتهم. حتى أنّ شعار بعض الفيالق كان عبارة عن رأس قط. والأكثر إثارة للدهشة هو أنّ القائد العسكري الذي قاد الجيش الروماني هنا، في فرنسا (التي كانت تُسمى آنذاك بلاد الغال)، كان يكره القطط. كان اسمه يوليوس قيصر وكان يعاني من مرضٍ يُسمى «رُهاب القطط»: كان مجرّد حضورنا يولّد لديه ذعرًا شديدًا يجعله يرتعش خوفًا.

– ولم يكن هناك سوى رجل واحد لكي يقود جيشًا كاملًا؟

– البشر قطيعيون جدًّا، وفي ذلك العصر كان الجميع يتبعون يوليوس قيصر هذا. مع توسّع الإمبراطورية الرومانية، انتشرت القطط في كلّ أوروبا وانتشرت عبادة القطط بكثرة بين الشعوب التي كانت تكتشفنا.

– عبادة باستيت؟ عبادة آرتميس؟ عبادة ديانا؟

– كانت الآلهة تحمل أسماء مختلفة في كلّ بلد. في بلاد الغال، خصّنا السلتيون أو القوطيون الغربيون أو الأوفرنيون بعبادات خاصّة. ولكن في عام 313، اعتنقت الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية، الديانة التوحيدية، حيث لا يعبد المرء إلّا إلهًا واحدًا ذا طابعٍ بشري. في عام 391، منع الزعيم الجديد للرومان، الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، رسميًا عبادة القطط وأعلن أنّه يجب أن تُعتبَر القطط كحيوانات شريرة.
– ما معني «شريرة»؟

– هذا يعني أن يكون المرء مرتبطًا بقوى الشرّ. ومنذ ذلك الحين، بات بوسع أيّ كان أن يقتلنا دون أن يبرّر فعلته أو يعتذر عنها. والأسوأ من هذا، اعتُبِرنا كحيوانات ضارّة، وأصبحت إبادتنا، على غرار إبادة الصراصير والجرذان والثعابين جزءًا من واجبات المواطن.

– كان ثيودوسيوس الأوّل هذا على شاكلة قمبيز الثاني...

– ولكنّ الفلاحين، من جهتهم، حافظوا علينا من أجل حماية محاصيلهم، والتجار العبرانيون استمرّوا في أخذنا معهم على متن سفنهم وفي قوافلهم وبيوتهم المتنقّلة.

اقتربتُ من فيثاغورس لكي أتشمّمه.

- كيف تعرف كلّ هذا؟ كيف تفهمهم بهذه الدقّة؟

- ذات يوم، سوف أبوح لكِ بالسرّ المرتبط بعيني الثالثة.

- متى؟

- حينما أقدّر بأنّكِ أصبحتِ جاهزة لذلك. في الوقت الحالي، ما يهمّني هو ألا أبقى الوحيد الذي يحتفظ بهذه المعلومات. إذا ما متّ، سيكون عليكِ أن تنقلي تعاليمي إلى القطط الأخرى.

اقتربت وحككتُ خطمي برقبته، وأعدتُ أذنيّ إلى الخلف في إشارة على الخضوع، ثمّ استدرتُ ورفعتُ عاليًا ذيلي.

- أنجب لي أطفالًا لكي يحلّوا محلّ الذين فقدتهم.

انتظرت ولكنّه لم يتحرّك.

سألته:

- ألا أُعجبكَ؟

- لقد قرّرتُ أن أكرّس حياتي للمعرفة وأن أبتعد عن الحاجات الأوّلية مثل تناول الطعام أو ممارسة الجنس.

- هل لهذا علاقة مع «السرّ» خاصّتك؟

- لقد وضعتُ لنفسي قاعدة: «لا رغبة، لا ألم».

- هل تخاف من أن تتألّم إذا مارست الجنس معي؟

- أخاف من أن أشعر بالكثير من اللذّة بحيث أصبح متعلّقًا بكِ. وأنا أتذوّق مسرّة أخرى: مسرّة أن أكون حرًّا ومستقلًا عن كلّ شيء. لا يكون أيّ شخص أو أيّ شيء ضروريًا ولا غنى عنه بالنسبة إليّ. وهذا هو مصدر فخري الأكبر.

نظرتُ إليه نظرة مختلفة. كان لا يزال يحمل تلك القلنسوة البلاستيكية الغريبة البنفسجية على قمّة جمجمته. وكنتُ أعلم أنّ تحت تلك القلنسوة هناك ثقبٌ يمتدّ حتى يصل إلى دماغه. ربّما هذا هو ما أفسد عقله. ربّما يكون مجنونًا ويخترع ما يرويه لي. وأنا الساذجة، تنطلي عليّ أقواله.

الشيء الوحيد الذي شوّش ذهني هو أنّ سرده حول اللقاء بين جنسينا بدا

متماسكًا للغاية. إذا كان قد اخترع كلّ هذا، فقد اخترع نظامًا معقدًا له منطقٌ سليم وقويّ.

ظلّ السؤال التالي: لماذا يرفض ممارسة الجنس معي؟

لن يكون بوسع أيّ ذكرٍ سليم العقل أن يقاوم رؤية مؤخّرتي المكشوفة. وأنا لا أزال فتيّة وساحرة، بفرائي السميك والحريري، في حين أنّه ليس سوى قطّ سياميٌّ عجوز ذي شعرٍ قصيرٍ ورمادي. من المستحيل ألا أكون قد أيقظتُ لديه رغبة حسية مباشرة.

أمرتُه:

– ضاجعني، هنا، في الحال!

لم يستجب.

– أنت لا ترغب فيّ لأنّهم استأصلوا خصيتيك أنت أيضًا لكي يضعوهما في وعاءٍ، أليس هذا هو السبب؟

استلقى على ظهره، وعرض أعضاءه التناسلية، واستطعتُ أن أتأكّد بأنّها سليمة.

– إذًا، لماذا لا تُريد أن تمارس الجنس معي؟

ردّد بنبرة أزعجتني على نحوٍ متزايد:

– «لا رغبة، لا ألم».

أجبته، وأنا حانقة بعض الشيء:

– أنت لا تعرف ما الذي تفوّته على نفسك.

أجاب:

– بلى، أنا أعرف ذلك، ولهذا بالضبط أفضّل أن أرفض طلبكِ.

ملسوعةً بتصرّفه معي، قرّرتُ أن أعود إلى البيت.

راودتني رغبة كبيرة في ممارسة الجنس. كيف سأشبع هذه النزوة؟ هل عليّ أن أذهب إلى السطوح لكي أدع أوّل قطّ قادمٍ من الزقاق يضاجعني؟

منذ أن وضعتُ صغاري، ازدادت رغبتي في أن أتذكّر بأنني لستُ أمًّا فحسب، بل وأنثى أيضًا.

في النهاية، عدتُ إلى سلّتي ونمتُ وأنا أحلم أحلامًا شبقية جدًّا.

-14-

الشعور بالاشمئزاز

أوقِظتُ من قبل أنجيلو.

وقد بدأ هذ الصغير يُثير غضبي بشكلٍ جدّي. لقد رضع من ثديي بينما كنتُ نائمة، والآن يزعجني ويعضّ على شواربي (لا أُطيق أن يلمس أحدٌ شواربي).

لا يكنّ أيّ احترامٍ لأمّه.

انتظرتُ إلى أن يصبح بعيدًا عنّي تمامًا وسدّدت إليه ضربة من كفّي (ولكن من دون مخالب ممدودة)، والتي جعلته يتدحرج. هذه هي طريقة فهمي للتربية المعاصرة. إنّ مجتمعًا لا تحترم فيه الأجيال الجديدة الذين وهبوا لها الحياة سوف يكون مجتمعًا مريضًا لا شفاء له.

عاد ليتحدّاني بازدراء، فضربته مرة ثانية.

فكّرتُ وأنا ألعق نفسي أنّ كلّ شيء عبارة عن مشكلة تواصل. في بعض الأحيان، يجب أن نردّد الأمر حتى نفهمه. أنا أتواصل بطريقة سيئة مع ابني. وأتواصل بطريقة سيئة مع خادمتي البشرية، وأتواصل بطريقة سيئة مع ذكري. لا أتواصل بطريقة صحيحة إلّا مع القطّ السيامي المغرور في البيت المجاور، والذي بالمقابل... يحتقرني.

سمعتُ أصوات ضجيج مقابل المنزل. بدأ المشهد. عدتُ إلى مكاني في زاوية الشرفة وراقبت. هذه المرّة، كانت مجموعة من البشر تطارد رجلًا وحيدًا. أمسكوا به وانهالوا عليه ضربًا. كان الأمر شبيهًا بما حدث يوم أمس،

سوى أنّ عددهم كان أكبر. راقبتُ المشهد، كان الرجال الثلاثة يمسكون في أياديهم السكاكين ويصرخون بشعارٍ يردّده الآخرون معًا.

ثمّ وصل من جديد البشر الذين يرتدون زيًّا موحّدًا باللون الأزرق الغامق لكي يحموا الرجل الأوّل، المطروح أرضًا، وحضر أناسٌ آخرون يرتدون ثيابًا أكثر ألوانًا وهبّوا لمساعدة المجموعة الثلاثية، وتشاجر الجميع بالعصي والسكاكين. ومرّة أخرى أُلقيت مقذوفات، وانتشر الدخان المهيّج.

لا بأس إن سعلت، فقد بقيتُ في مكاني، وأردتُ أن أرى كيف ستنتهي كلّ هذا.

سحب أحد أفراد المجموعة الثلاثية سلاحًا. سُمِعَ صوت انفجارٍ، ثمّ خرّ أحد الأفراد في الزيّ الموحّد الأزرق الداكن على الأرض.

انحنيتُ لكي أرى بالتفصيل تتمّة الأحداث.

وصلت تعزيزات من المرتدين للزيّ الموحّد الأزرق الغامق، وهبّ آخرون بدورهم من الطرف المقابل للنجدة. وبدأت مجموعة ثالثة من البشر المختلفين عن المجموعتين الأولى والثانية بإطلاق النار. تصاعد صوت صيحاتٍ، ودوّى صوت تفجيراتٍ أخرى. أصبحت الفوضى عارمة.

شعرتُ بأنّهم ينشرون أسلحة مجهولة أكبر حجمًا والتي توقع خسائر أكبر. في لحظة معيّنة، لوّح رجلٌ بأنبوبٍ ينتهي بمقذوفٍ شبيه بحبّة كمثرى وأطلقه باتجاه منزلٍ. فانفجر المنزل وانهار وسط سحابة كبيرة من الغبار.

الذين كانوا في الجهة المقابلة ردّوا في الحال. بدأت سيارة شاحنة صغيرة يعلوها برجٌ بإطلاق القذائف وتفجير السيارات التي كان يختبئ خلفها رجالٌ.

جاء مقاتلون يرتدون زيًّا موحّدًا باللون الأخضر لمساعدة من يرتدون الزيّ الموحّد الأزرق الغامق. كانت تلك هي العلامة التي أعطاني إياها فيثاغورس لمعرفة بدء الحرب.

بدأ الركض والصراخ وإطلاق الرصاص. وكذلك سمعتُ صوت انفجاراتٍ دوّت مصدرها الشوارع المحيطة.

تمترس البشر خلف الجدران أو خلف السيارات التي بدأت النيران تشتعل في بعضها. كانوا يطلقون الرصاص من فوق الأسطح، وغزت رائحة الحريق الجوّ.

ثمّ، مثل العاصفة، توقّفت هذه الجلبة كلّها دفعة واحدة. فرّ الذين استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، بينما ظلّ الآخرون يرقدون وسط الأنقاض. وساد الصمتُ المُطبق.

لم تعد ناتالي.

بقيتُ أراقب الشارع. زحف جريحٌ، وجرّ آخرٌ نفسه، وهو الآخر في حالة سيئة جدًّا، على كوعيه لكي يلحق به. لاكما بعضهما، وتدحرجا، وحاولا أن يعضّا بعضهما.

بدا لي كلّ هذا مذهلًا. تُرى هل من الممكن العمل بطريقة بحيث يحبّ البشر بعضهم بعضًا من جديد؟ ربّما سيكون عليّ أن أُنتِج نوعًا من الخرخرة بتردّدٍ منخفضٍ جدًّا والتي سوف تُهدّئ، في المرحلة الأولى، من حماستهم الحربية، ومن ثمّ تمنحهم الرغبة في أن يرتاحوا.

ربّما هذا هو ما فعلته سابقًا الإلهة باستيت. عندما أدركت شقاء البشر، وحاجتهم الملحّة لوضع حدٍّ لبعضهم، عرضت عليهم اهتزازًا لكي تمنحهم الرغبة في النوم. وكعربون شكرٍ لها، بنوا لها معبدًا وبدأوا بعبادتها.

موجةٌ. نعم، أنا متأكّدة من ذلك، لا بدّ أن تكون هناك موجة حبّ أستطيع أن أبثّها من خلال الخرخرة لكي أخفّف كلّ هذه التوتّرات التي أشعر بها من حولي.

وبعد انتظارٍ طويلٍ جدًّا، ظهرت ناتالي أخيرًا من جديد على عتبة باب المنزل.

كانت محمّلة بالعديد من الأكياس المليئة بالأطعمة والأشياء، والتي وضعتها في ممرّ المدخل. بدت أنّها غاضبة جدًّا. كان شعرها منكوشًا، ورموشها ترفّ بسرعةٍ، وثيابها ممزّقة. بدت وكأنّها على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تهاوت في أريكةٍ. كان خدّاها مبلّلين بالدموع.

وكانت مضطربة الذهن ومشغولة البال.

اقتربتُ، وجلستُ على ركبتيها وبدأتُ أخرخر. بدأت تستعيد ابتسامتها. نحن القطط، لدينا هذه القدرة على امتصاص كلّ الموجات السلبية وتحويلها إلى موجات إيجابية. هنا حيث تفضّل الكلاب أن تخلي المكان، نحن نستقرّ فيه، ونعوّد أنفسنا عليه، وننظّفه. إنّها قدرتنا في «الصحّة الاهتزازية».

تردّدت قليلًا، ثمّ بدأت تداعبني، وشعرتُ تحت تلك اليد التي اهتزّت بقوّة بخوفٍ واضح وملموس.

ثمّ فجأةً أمسكت بالهاتف. تحدّثت بسرعة مع ارتعاشاتٍ في صوتها. تكرّر اسم «صوفي» عدّة مرّات في حديثها واستنتجتُ من ذلك أنّها كانت تتحدّث مع الجارة.

بعد بضع لحظات، انتقلنا جميعًا إلى بيت فيثاغورس.

أدركتُ أنّ الأنثيين البشريتين، في هذه المرحلة من الأزمة، قد قرّرتا أن تُجمعا بين مخزوناتهما من الأطعمة وبين قططهما.

بالطبع لا أحبّ كثيرًا أن أغيّر عاداتي، ولكن هنا الظروف استثنائية، ولذلك ينبغي علي أن أتأقلم معها.

فيليكس هو الآخر لم يشتكِ من هذا الوضع الجديد. أمّا أنجيلو فقط ركض في كلّ مكانٍ من البيت الجديد، وقد وجد هذا المكان مليئًا تمامًا بالألعاب الجديدة.

انتزع خيوط السجاد.

عضّ الأسلاك الكهربائية، وتسلّق الستائر.

أغلقت الأنثيان البشريتان باب المدخل من خلال تدوير المفتاح مرات عديدة في القفل. ثمّ جلبتا ألواحًا خشبية، وثبّتتاها بمسامير على كلّ النوافذ والمنافذ الخارجية. حتى باب الهرّة سُدَّ تمامًا.

لم نعد نرى الخارج، ولكن مع ذلك كان بوسعنا الذهاب إلى شرفة الغرفة. وأقامت الكائنتان البشريتان سياجَ حماية هناك باستخدام الأثاث المنزلي.

ما أن أنهتا ترتيباتهما، بدأتا بالتدخين، وشرب الكحول القويّ ومشاهدة

التلفزيون على شاشة أكبر بثلاثة أضعاف من تلك الموجودة في منزلي، مع درجة صوتٍ مرتفعة أكثر بكثير. كانت صور الأخبار تتكرّر.

جاء فيثاغورس بخطوات رشيقة وجلس إلى جانبي.

سألته:

- هل يمكن أن تُصاب خادمتانا ذات يوم بهذه النزعات التدميرية؟

- إنّهما أكثر ذكاءً وأكثر تربية من متوسّط ذكاء البشر وتربيتهم. والدليل على ذلك هو أنّهما تحميانا معهما في هذا المنزل. وصوفي تعلم أيضًا بأننا نستطيع أن نكون مفيدين في حالة إصابتهما بجروح بفضل العلاج بخرخرة القطط.

- بفضل ماذا؟

- هذا علمٌ جديدٌ تمامًا يدرسُ قدرةَ الموجات الحادة لخرخراتنا في جبر العظام المكسورة.

في الخارج، حلّت أصوات الرعد محلّ أصوات الانفجارات. صعدنا إلى الشرفة لكي نتأمّل، من خلال النافذة التي لم تُسدّ، المطر الذي حاول أن يغسل أوساخ الذين يزحفون على سطح الكوكب.

في المدى البعيد، أحدثت العاصفة دويًا كبيرًا ولمعت بروقٌ جديدة.

في حين كانت خادمتانا البشريتان لا تزالان تشاهدان، من الطابق الأرضي، الحرب في التلفزيون، كنّا نراقب البرق الجامح الذي بدا أنّه يريد الانقضاض على البشر الذين سوف ينتصر عليهم على الدوام.

- في الوقت الراهن، قرّرت خادمتانا البقاء محبوستين هنا.

- لقد جلبت ناتالي مؤنًا غذائية.

- وصوفي لديها أسلحة.

مؤتُ له بلطف:

- أنا خائفة.

احتككتُ بفيثاغورس. أكره المطر. ويكفي أن أسمع صوته فقط حتى يرتعش كلّ جسمي من قمّة رأسي حتى أقدامي.

- هل تعتقد أننا سنموت؟

- سوف نموت ذات يوم، ولكن ليس اليوم.

خطّ برقٌ أكثر إنارةً من البروق الأخرى -لأنّه كان أكثر قربًا- السماء بخطوطٍ من الضوء.

ضغطتُ بجسمي بقوّة أكبر على جسمه والتصقتُ به أكثر. شعرتُ بقلبه يدقّ بسرعة وتركت الجملة تفلتُ منّي:

- أحبّك... يا فيثاغورس.

- نحن بالكاد تعرّفنا على بعضنا، يا باستيت.

- لم نمارس قطّ الجنس، هذا صحيح، ولكن هذا لأنّك ترفض ذلك.

- لديكِ فيليكس.

- لم يُعجبني فيليكس أبدًا. لم أختره أنا. لقد فُرِضَ عليّ. ثمّ إنّه لم يعد يمتلك خصيتين.

- لو أنّنا مارسنا الجنس، لتعلّقتُ بكِ، ولتسبّب هذا الأمر في الكثير من المشكلات.

اقترحتُ عليه:

- إذًا فلنمارس الجنس مرّة واحدة فقط. الآن، قبل أن نموت.

تضاعفت شدّة انهمار المطر. أحسستُ أنّه سيرضخ لطلبي.

أكّد لي:

- إذا ما مارستُ الجنس معكِ، لن أستطيع الاكتفاء بمرّة واحدة.

بدأتُ أعرفه: إنّه عاطفيٌّ حسّاس. سوف أحصل عليه على المدى البعيد، وحينها سوف يمنحني كلّ شيء، ولكن في الوقت الراهن من الأفضل أن أبقى صبورة. بحثتُ عن شيءٍ يُلهينا.

- ارو لي تتمّة قصّة أسلافنا.

لم يتمنّع، وبدأ دون تردّد.

- في عام 950 بعد الميلاد، وصلت القطط إلى كوريا (وهو بلدٌ يقع في الشرق وأبعد من الصين أيضًا)، وفي عام 1000، وصلت القطط إلى اليابان (وهي جزيرة تقع في الشرق وأبعد من كوريا أيضًا)، وقد وصلت إلى تلك البلاد البعيدة منقولةً من قبل كهنة بوذيين. تلقى الإمبراطور الياباني إيتشيجو

قطًّا صغيرًا كهدية بمناسبة بلوغه الثالثة عشرة من عمره. وقد كان تعلّقه بهذا الحيوان شديدًا جدًّا بحيث أراد جميع أعضاء البلاط أن يحصلوا على قطٍّ مثله، وبحيث بات القطّ سمة للسيّدات الثريات. وأمام الطلب الذي لم يكفّ عن التنامي، أطلق الإمبراطور إيتشيجو في الحقيقة برنامجًا رسميًا لإنتاج القطط من أجل تلبية رغبات الجميع.

في الخارج، واصل المطر الهطول بغزارة.

– في اللحظة نفسها، هوجِمَت أوروبا من قبل قطعانٍ من الجرذان السوداء مصدرها قارة آسيا. وقد حشد الفلاحون جيوشًا من القطط في سبيل التصدّي لهذا الغزو. وهنا أيضًا، أظهر أسلافنا بأنّهم فعّالون جدًّا.

– ولكنني كنتُ أعتقد أنّهم كانوا يُعتبرون أشرارًا؟

– في الواقع، خارج المدن الكبيرة، كانوا يحظون بتقديرٍ كبير. كانت فضلات القطط تُستخدَم في إعداد أدوية، وخاصة في إبطاء تساقط الشعر والكشف المبكّر عن أعراض مرض الصرع. كان بعض المعالجين يعالجون حالات الروماتيزم بنخاع القطط. وكانت دهونها تستخدم أيضًا في تخفيف أعراض البواسير.

تابع فيثاغورس، بهدوء:

– ولكن للحصول على نخاعها ودهونها، كان يجب قتلها...

– في إسبانيا، كانوا يصطادون القطط ليتغذّوا على لحومها. وقد أصدر طبّاخ الملك، واسمه روبيرتو دي نولا، كتابًا عن الوجبات التي لاقت نجاحًا كبيرًا، وكان الكثير منها تعتمد على لحوم القطط.

هل سمعتُ جيّدًا؟

– كان البشر... يأكلوننا؟!

تنهّد.

– بل كان لحمنا يُعتبَرُ أكثر طراوة من لحم الأرانب التي كانوا يُقارنون غالبًا لحمنا بلحمها. بشكلٍ عام، كان يُقدّم في الحقيقة مع الصلصات نفسها والتوابل نفسها.

شعرتُ باشمئزازٍ، ورغبتُ في أن أتقيّأ.

– وهذا ليس كلّ ما في الأمر. كان صنّاع الآلات الموسيقية يجمعون أمعاءنا لكي يصنعوا منها أوتارًا لآلة القيثارة، على سبيل المثال. وكانوا يسمّون هذه الأوتار «أوتار مصنوعة من معي القطط». وفي الوقت ذاته، كان الخيّاطون يستخدمون جلودنا لكي يصنعوا منها معاطف من الفراء، وقفازات وقبّعات ووسائد.

ارتعدتُ فزعًا ورعبًا.

أنارنا ضوء البرق مدّة ثانية واحدة.

– لم يجلب ذلك لهم الحظّ. في الواقع، تفشّى مرضٌ قاتلٌ سُمّي «الطاعون» بينهم. لقد انتقل عبر الجرذان وقام بإبادة البشر بدلًا منّا.

– ولكن، كنتُ أعتقدُ أننا طردنا الجرذان، أليس كذلك؟

– ليس كلّ الجرذان. كان البشر الذين يمتلكون قططًا أفضل وقايةً من هذا المرض، ولكن الذين كانوا يمتلكون كلابًا لم يكونوا كذلك على الإطلاق. بين عامي 1348 و1350، قتل وباء الطاعون الأسود الكبير 25 مليونًا من البشر، أي نصف سكان القارة الأوروبية.

– هذا ما يستحقونه. ما كان عليهم أن يأكلونا.

– ولكن بدل أن يشكروا أسلافنا، توصّل الناجون منهم إلى استنتاج مفاده أنّ الذين كانوا يمتلكون قططًا كانوا مرتبطين بالقوى الشريرة التي جلبت الطاعون. فقتلوا مالكي القطط، متّهمين إياهم بأنّهم سحَرة، ثمّ قتلوا قططهم.

– من المؤكّد أنّهم فهموا كلّ شيءٍ على نحوٍ معاكس.

– وقد صدر أمرٌ من البابا إنوسنتيوس الثامن ينصّ على أنّ ليلة القديس يوحنا سوف تكون التاريخ الذي ينبغي فيه على كلّ المؤمنين الصادقين أن يأسروا قططًا –شاردة ومنزلية– وإلقائها في المحرقة لكي تحترق وهي حيّة.

– يا له من غباء.

لم أتصوّر قطّ أن يستطيع البشر التناوب على حبّنا وكرهنا إلى هذه الدرجة.

استمرّ المطر في الهطول وتكلّم فيثاغورس كما لو أنّ كلّ هذا لم يؤثّر عليه.

- كان هناك وباء طاعونٍ آخر في عام 1540. حينذاك أيضًا، فُني نصف السكان، ومرّة أخرى، اتُّهِمَ مالكو القطط الذين نجوا من الوباء بالمسؤولية عن هذه المصيبة وقُتلوا بشكلٍ منهجي ومنتظم.

- وأنت الذي كنتَ تقول لي إنّ البشر كانوا أكثر ذكاءً منّا...

- وكان عليهم أن ينتظروا عدّة قرون حتى بدأ أطباءٌ بإجراء مقاربة بين حقيقة امتلاك قطٍّ وحقيقة أن ينجو المرء من الوباء. وفي النهاية، ألغى البابا سيكتوس الخامس فكرة شيطنة القطط وسمح للمسيحيين باقتنائها. بدءًا من ذلك العصر، الذي يُسمى عصر «النهضة»، استعادت القطط صورةً إيجابية في المجتمع الفرنسي والأوروبي، بل وأُعلنت بعض شركات التأمين أنّها ضرورية ولا غنى عنها من أجل حماية مخزونات الطعام على متن السفن التي تجوب البحار. توقّف المطر عن الهطول على نحوٍ مفاجئ. تبدّدت الغيوم وتلاشت وأضاءت السماء صافيةً. ومن فوقنا، تشكّل قوسٌ على شكل نصف دائرة من عدّة ألوان مختلفة.

- هذا قوس قزح: تفاعلٌ بين أشعة الشمس والهواء الذي لا يزال محمّلًا بالرطوبة.

- هذا جميل.

- هذا كوكب جميل. كلّ يوم أكتشف فيه إشراقات جديدة.

- هل أنت سعيدٌ؟

- بكلّ تأكيد. أن يكون المرء سعيدًا هو أن يستمتع بما لديه. أن يكون المرء تعيسًا هو أن يرغب في ما ليس لديه. أنا أملك كلّ ما أريده.

- ألا تخاف من الحرب؟

- خوفي الوحيد هو ألا أنجح في استخدام كلّ قدراتي على أفضل وجه. بالنسبة إلى ما تبقى من الأمور، لا أقرّر لا في أمر المطر، ولا الطقس الجميل، ولا البروق ولا العاصفة، ولا قوس القزح، ولا الحرب ولا السلام.

في هذه اللحظة، قطع صوت انفجارٍ قريبٍ جدًّا حوارنا، وتبعته مباشرةً عدّة انفجارات أخرى. كان صوت الانفجارات يأتي من الشارع.

ذهبنا إلى الطابق الأوّل واكتشفنا أنّ ناتالي وصوفي، وقد لجأتا إلى خلف الأثاث المنزلي، قد تسلّحتا ببندقيتين متكئتين على حرف الشرفة. وكان أنجيلو قد تعلّق بأعلى الستارة المسدلة على باب الشرفة وهو يموء طلبًا للمساعدة من أجل إنزاله من هناك. أطلقت خادمتانا النار على بشرٍ آخرين مختبئين خلف السيارات، على رصيف الطرف الآخر من الشارع.

قال فيثاغورس الذي فهم الوضع بنظرة واحدة:

– إنّهم «لصوص». على الأرجح يريدون اغتصاب خادمتينا وسرقة طعامنا وقتلنا. وربّما ليس بالضرورة وفق هذا الترتيب.

تواصل تبادل إطلاق النار.

أعلن فيثاغورس:

– تعالي، يا باستيت. علينا أن نتصرّف. سوف نستخدم القنابل اليدوية.

ذهب إلى السلّة التي كانت تحتوي على الأسلحة وأخذ منها ما يشبه حبّة فاكهة سوداء من المعدن ونقله في فمه وأشار عليّ أن أقلّده في ذلك.

سرتُ في أعقابه. مررنا عبر الأسطح التي كانت لا تزال مبلّلة. انزلقتُ قليلًا على القرميد الزلق. وحينما ابتعدنا أكثر، وجدنا ممرًّا لننزل منه إلى الشارع ونلتفّ على أولئك الذين يطلقون النار على خادمتينا. أشار إليّ فيثاغورس بوضع القنابل اليدوية تحت السيارات التي تحمي المهاجمين. ثمّ أراني بأنّنا نستطيع، باستخدام الكفّ، أن نمسك بالقنبلة اليدوية من خلال نزع الفتيل دفعة واحدة باستخدام الأسنان.

قلّدتُ حركته.

– لدينا عشر ثوانٍ فقط، تعالي، يا باستيت، فلنغادر سريعًا! لم أكن أعرف ما معنى ثانية، ولكن بما أنّه ركض، هرولتُ خلفه. أشار إليّ بأن نصعد إلى شجرةٍ لكي نراقب تتمّة الأحداث. من على الغصن الأعلى في الشجرة، شاهدنا انفجارين. انفجرت سيارات اللصوص. تطايرت قطعٌ من الصفيح وتناثرت في الشارع. تلوّت أجسادٌ بشرية قبل أن تخرّ صريعة على الأرض، بلا حراك.

أدركتُ أنني، للمرّة الأولى في حياتي، قد أقدمتُ للتوّ على... قتل بشرٍ! هذا ممكن إذًا. إنّ قططًا تجيد استخدام بعض الأشياء تستطيع أن تقرّر في أمر حياة وموت البشر.

على الشرفة، وقفت ناتالي وصوفي منتصبتين فوق متراسهما المصنوع من الأثاث المنزلي وبدتا مدهوشتين، ثمّ مرتاحتين. انضممنا إليهما لكي نلجأ إلى داخل المنزل.

انتهى أنجيلو إلى التخلّي عن أعلى الستارة وبذلك قام بأوّل قفزة كبيرة له. ماء في كلّ الاتجاهات، معتبرًا أنّ هذا الأداء من قبله هو الذي أراح الجميع.

راقبتني ناتالي بدهشة ونطقت اسمي بنبرة مشوبة بالإعجاب. أخذتني بين ذراعيها وضمّتني إلى صدرها.

سجّلتُ في ذهني أنّه حينما أقتل البشر، فهذا يسرّ من الآن فصاعدًا خادمتي.

أعتقد أنني لا أحبّ الحرب. أشعر أنّ طاقة الحياة التي تسري في العالم يمكن لها أن تنقطع فجأةً لأسبابٍ تبدو لي غامضة بعض الشيء، وهذا يحزنني ويخيّب أملي.

وأدركتُ أنّه، وعلى نحو متناقض، حتى لا تُزهق الكثير من الأرواح، يجب على المرء أن يقتل في بعض الأحيان.

هذا يُبرهن على حدسي: يجب أن أساعد كلّ هؤلاء الكائنات على أن يتحاوروا على نحوٍ أفضل لأنني متأكّدة من أنّهم إذا تواصلوا على نحوٍ أفضل، لن يحتاجوا إلى أن يطلقوا على بعضهم الرصاص بالبنادق أو يلقوا القنابل اليدوية في وجوه بعضهم.

لا ينبغي أن أواصل تلقي المعلومات عن العالم البشري بفضل فيثاغورس فحسب، بل أن أنجح أيضًا في أن أرسل بنفسي هذه المعلومات مباشرةً.

إنني أزداد قناعةً يومًا بعد آخر أنّه لا يكفي الإصغاء إلى البشر، يجب أيضًا التحدّث إليهم.

-15-

بداية المجاعة

مرّت الأسابيع.

استهلكنا كلّ مخزوناتنا الغذائية. وأصبحنا نأكل الآن أطعمة أخرى غريبة، بلون الصوف أو خضراء. وإذا تحدّثنا عن مذاقها، فقد كانت أدنى مستوى من الأطعمة الخاصّة بالكلاب.

لم تعد ناتالي وصوفي تجرؤان على الخروج وحدث لهما أن قامتا بغلي أوراق الشجر المتساقطة في الشرفة لإعداد الحساء منها. كان لها بالفعل مذاقٌ مثيرٌ للتقزّز.

حتى الماء أصبح لونه بنيًّا وكان يجب أن يُغلى قبل أن نستطيع شربه.

في الخارج، كنّا نسمع باستمرار أصوات الانفجارات، وصيحات وصرخات متفرّقة. في بعض الأحيان، كان الباب يُدقّ، وفي بعض الأحيان كانت أيادٍ تحتكّ بنوافذ الطابق الأرضي، ما لم تكن مخالب قططٍ.

أصبحتُ جائعة جدًّا. أصبحنا جميعًا جائعين جدًّا.

أضعف فقدان الطعام ناتالي وصوفي، اللتين لم تعد لديهما الطاقة للقيام بأدنى حركة. ظلّتا مغلّفتين بالأغطية وهما تشاهدان التلفزيون وتنامان. لم أفكّر سوى بأنّه سيكون من الممكن أن يشنّ اللصوص هجومًا جديدًا.

حاولتُ أن أعالج خادمتي من خلال تحسين تقنيتي في العلاج بالخرخرة بترددات منخفضة ومتوسّطة وعالية. كنتُ مقتنعة بأنني أستطيع معالجة البشر بالموجات، ولكنني لم أكن قد تحكّمتُ تمامًا بقدرتي العلاجية. ولذلك، كان عليّ أن أعثر على التردّد الذي يمدّهما بالطاقة والحيوية.

عثر فيليكس على طعامٍ لا يثير اهتمام أحدٍ سواه. كان يأكل... صوفًا. على نحوٍ أدقّ، كان يأخذ خيطًا من الصوف من بلوزة صوفي، ويمضغه ويبتلعه. كان يمتصّه مثل شريط معكرونة بلا نهاية. كانت أمّي قد أخبرتني أنّ هناك بعض القطط من «آكلي الصوف»، ولكنني لم أتوقّع أنني سأعيش وضعًا على هذه الدرجة من التدهور.

عاود أنجيلو دون توقّف محاولة الرضاعة من ثديي، ولكن موزّع الحليب كان قد أصبح ناشفًا.

فيثاغورس بدوره لم يعد يتحرّك من مكانه تقريبًا. كان في حالة تأمّلٍ تكاد تكون حالة سباتٍ، وقد تجمّدت عيناه في محجريهما بلا حراك تحت رموشه المطبقة، وانخفض تنفّسه إلى أدنى درجات البطء، بحيث كاد ألا يكون ملحوظًا.

احتككتُ به، فاستغرق وقتًا قبل أن يستجيب.

مؤتُ وأنا أسأله:

– هل أنت بخير؟

ردّ بهرهرةٍ.

– هل أنا أزعجكِ؟

ثمّ نفض جسمه.

– فيثاغورس، أشعر أننا سنهلك هذه المرّة.

رضي أخيرًا أن يُجيب. فقال:

– اقبلي هذا العالم كما هو دون أن تخافي منه وتحكمي عليه.

– إنّها الحرب، لم يعد لدينا أيّ شيء نأكله، وعلى الأرجح سوف نموت جميعًا هنا جوعًا، بلا حراك، مأخوذين في سباتٍ تدريجيّ لن نستطيع الخروج منه أبدًا من دون أدنى شكّ.

هزّ رأسه، كما لو أنّه يُعيد ترتيب أفكاره، ثمّ تحدّث وهو يشدّد على كلّ مواءٍ يُطلقه بتفاصيح وتشديدٍ لكي يتأكّد من أنّه ينطبع جيّدًا في ذهني:

– «مهما حدث لكِ فهذا خيرٌ لكِ. يكفي أن تتأقلمي مع الظروف التي تفرض نفسها عليكِ أوّلًا بأوّل».

- هل تُهذي؟
- كلا، أنا أتوصّل إلى مبادئ جديدة لأنّه لديّ متّسعٌ من الوقت ولأنّ جسدي لم يعد منهكًا ومستهلكًا بهضم الطعام والقيام بالأفعال. وإذ لم يعد يزعجني اضطرابٌ في الأحاسيس، أستطيع أخيرًا أن أفكّر على نحوٍ أعمق.
- ولكن مع ذلك، الوضع...
أغمض عينه، وتابع:
- «إنّ أعداءكِ والعراقيل التي تنتصب في وجهك يتيحون لكِ أن تعرفي مقاومتكِ. كلّ المشكلات التي تبدو لكِ خطيرة ما هي إلّا لكي تتيح لكِ أن تعرفي نفسكِ على نحوٍ أفضل».
- ولكن...
- لقد اختارت روحكِ هذا العالم وهذه الحياة بالتحديد بغية أداء التجارب واكتساب الخبرات التي ستسمح لكِ بالتطوّر.
أنتِ اخترتِ كوكبكِ.
أنتِ اخترتِ بلدكِ.
أنتِ اخترتِ عصركِ.
أنتِ اخترتِ جنسكِ الحيواني.
أنتِ اخترتِ والديكِ.
أنتِ اخترتِ جسدكِ.
«منذ اللحظة التي تدركين فيها أنّ ما يُحيط بكِ ناجمٌ عن رغبتكِ الخاصّة في التعلّم، لا يعود بوسعكِ أن تشتكي أو أن تشعري بالإحساس بالظلم. لا يعود بوسعكِ سوى أن تحاولي فهم سبب اختيار روحكِ لهذه المصاعب والمحن المحدّدة لكي تتطوّري. كلّ ليلة، خلال نومكِ، هذه الرسالة هي التي تذكّركِ على شكل حلمٍ حتى لا تنسي. وبالتالي، إذا كان لديكِ شكٌّ، افعلي مثلي: أغمضي عينيكِ، واحلمي».
ماء فيثاغورس بهذه الجمل في حالةٍ من الشرود كما لو أنّه أوصِلَ فجأةً بمنبعٍ خارجيٍّ للحكمة. تنشّق، ثمّ أضاف:
- هذه هي في كلّ الأحوال الرسالة التي فهمتها خلال تأمّلي في هذه الأيام الأخيرة.

حدّق فيّ بعينيه الواسعتين، الزرقاوين والجميلتين.

فكّرتُ فيما قاله. كان ما قاله كلامًا قويًا في الحقيقة، بدا وكأنّه قد أسرّ إليّ بسرّ حكمةٍ محضة. من المؤسف أن يحصل هذا في الوقت الذي هناك احتمالات قويّة ألا أستطيع استخدام تلك الحكمة.

– أخبرني يا فيثاغورس، هل تعتقد...

أطبقت أجفانه قبل أن أنهي جملتي. فلم أعد أجرؤ على إزعاجه.

بدأت أولى علامات سوء التغذية تظهر على أنجيلو، فقد أصبح نحيفًا، وبات يرتعش، وينزعج من كلّ شيء. وبالتالي، قرّرتُ الخروج للبحث عن طعامٍ في خارج المنزل.

ولأنّ باب الطابق الأرضي ونوافذه كانت موصدة بإحكام، مررتُ من الشرفة. أتاح لي ترياقي الخاصّ بالتنحيف القسري الخفّة الضرورية لكي أقفز إلى السطح المجاور. هبطتُ مع انزلاقٍ خفيفٍ على السطح المصنوع من الصفيح. بالتأكيد كنتُ أكثر خفّةً، ولكنني شعرتُ بوضوح أنّ فقدان الطعام قد سلبني طاقتي. هرولتُ قليلًا وقفزتُ إلى سطحٍ أبعد.

يمكنني من الأعلى أن أقيّم الوضع على نحوٍ أفضل.

لم يعد أحدٌ يرفع القمامة وينقلها.

قررتُ أن أتوقّف عند أوّل كومةِ قمامة أصلُ إليها.

كانت جرذانٌ متخفيّةٌ تتحرّك بين أكوام القمامة. لم يكن قد سبق لي قط أن أكلتُ منها، ولكن كما كانت أمّي تقول: «الجرذُ ليس سوى فأرٍ ضخمٍ».

استهدفتُ الجرذ الذي بدا لي الأصغر حجمًا. ولكنني ما أن كدتُ أقترب منه حتى اتّخذ وضعية التأهّب، وقد نفش وبره، وفتح فمه، واصطكّت قواطعه في إشارةٍ إلى التحدّي. بلا شكّ، وبخلاف الفئران، لم أخيفه.

هل أحاول التواصل معه مع تحية، *صباح الخير، أيها الجرذ*؟

كانت أمّي قد علّمتني أيضًا ألا أتحدّث إلى ما آكله. مستعيدةً غرائز تعود لآلاف السنين بالتأكيد، انقضضتُ عليه.

تدحرجنا بين القمامة، تتشابك مخالبنا، وتتواجه أسناننا. بدا أنّه لم يتأثر

بحجمي ودافع عن نفسه. أحسستُ بقواطعه الحادّة تنغرس في جسمي، ولكنّ فرائي السميك منعه من أن يعضّني بعمق. بحثتُ بدوري عن أنسب مكانٍ لكي أضربه فيه، وما أن أصبح في متناولي، غرزتُ بضربة واحدة أنيابي في عنقه. انبجس الدم الحارّ مباشرة وسال في حلقي، مالحًا وممتعًا. شربت الدم وأنا أواصل غرز أنيابي بعمقٍ في لحمه. ارتعش رعشةً أخيرة، ثمّ خمد التوتّر فجأةً.

قضمتُ قطعةً من الجرذ. في النهاية، لم يكن سيئًا تمامًا، ولحسن الحظّ كان فخذه لا يزال مدهنًا، وأنا أعشق دهون اللحم.

ابتلعتُ لقمًا طيّبة من لحم الجرذ، ثمّ، وقد استعدتُ قواي، ركّزتُ على مهمّتي: حمل بعض الطعام إلى الآخرين. لحسن الحظّ، كان الطعام وفيرًا. إلى درجة أنّه في طريق العودة، اكتشفني قطيعٌ من حوالي عشرة جرذانٍ وطاردني.

لم أكن أتوقّع أنني سأضطرّ يومًا إلى الفرار أمام قطيعٍ من القوارض!

اقتربت الجرذان التي كانت تطاردني وكانت على وشك أن تمسك بي (تبًّا! لو أنّ أمّي رأتني، وأطعمةٌ تُطاردني...) عندما بدا لي غصنُ شجرة مثمرة في متناول القفز إليه. تسلّقتُ الشجرة ووصلتُ بذلك إلى سطح منزلٍ، قبل أن أبدأ بالقفز من سطحٍ إلى سطح. كنتُ أشدّ على فكّي كي لا يفلت منّي ما تبقى لي من الجرذ.

أنا سعيدة، إذ سأستطيع عمّا قريب أن أغذّي ابني، ورفيقي، وصديقي، والخادمتين البشريتين.

حالما عدتُ إلى المنزل، أمام غنائمي، أظهرت ناتالي وصوفي علامات التقزّز والاشمئزاز وأشارتا إليّ أن أبتعد عنهما.

أيكون نكران الجميل متأصّلًا في السلوك البشري؟ استدرتُ نحو بني جنسي.

لم يُظهر فيثاغورس الكثير من الاهتمام بالأمر.

وحده فيليكس أظهر حماسةً، وشكرني على صنيعي وبدأ يأكل ملء فمه. ولأنني استعدتُ بعض قواي، سمحتُ لصغيري أنجيلو أن يأتي ويرضع من ثديي.

ثمّ، تذوّقتُ بدوري ثمار صيدي، وأنا أمضغ اللحم لوقتٍ طويلٍ قبل أن أبتلعه.

سأل فيليكس:

– كيف كان الوضع في الخارج؟

– قذرٌ وخطير.

أكل بشراهةٍ، وهو يمتصّ بصخبٍ أحشاء جرذه الذي كان لا يزال دافئًا.

– لن يستطيع البشر أبدًا أن يلحقوا بنا الأذى لأنّهم يحتاجون إلينا كثيرًا.

سألتُ:

– ولكي يفعلوا ماذا معنا؟

– حسنًا، لكي...

بحث عن العبارة الدقيقة، ثمّ أردف:

– لكي يداعبوننا.

رغبتُ في أن أجيبه بشيءٍ مزعج، ولكن هذا لا يجدي نفعًا في إبعاده عنّي. ثمّ إنّه لم يكن مخطئًا تمام الخطأ. فيما نفيد البشر بالفعل؟ هنا في المدينة، لم تعد لنا مهمّة الدفاع عن مخزونات الغذاء ضدّ القوارض. لم نعد نصطاد الثعابين أو العقارب أو العناكب ؛ لم تعد دهوننا ونخاعاتنا الشوكية تُستخدم في معالجة بواسيرهم أو في تغذية شعرهم. إذًا، ما فائدتنا لهم بعد الآن بالفعل؟

في هذه المرحلة من الحرب، لا تبدو لي «الحاجة إلى المداعبة» حاجة أساسية... على نحوٍ مفاجئ، أدركتُ أنني لا أُسيطر كثيرًا على الوضع، وأنّه في وضعية النجاة الهشّة هذه، ثمّة احتمالات قوية لكي ينتهي الأمر بخادمتي البشرية إلى أن تملّ من وجودي.

اعتقد فيليكس أنّه أقنعني. في عالمه، يسير كلّ شيء على ما يُرام.

- هل تعلم، يا فيليكس، أنّ البشر، في الماضي، قمعونا. لقد أحرقونا على المحارق، وأكلوا لحمنا، واستخدموا جلدنا لصناعة الألبسة.

- من أين تأتين بهذه الهلوسات؟

- من فيثاغورس.

- وهو، من أين يحصل على هذه المعلومات؟

قلتُ وأنا أحاول تجنّب الخوض في المسألة:

- لا أدري.

- بالنسبة إليّ، أنا أعرف من العالم ما أراه. نحن حيويون، والبشر يحبوننا، ونحن نفيدهم فوائد جمّة، هم يتقاتلون فيما بينهم، ولكنّهم في النهاية سوف يتعبون من هذا الأمر. أمّا أنتِ، يا باستيت الذكيّة، فقد حللتِ للتوّ مشكلة الطعام من خلال صيد الجرذان. وبالتالي، كلّ شيءٍ على ما يُرام.

تُرى هل من الممكن أن يكون فيليكس حكيمًا، وقد فهمَ بطريقته الخاصّة عبارة فيثاغورس الحديثة، والتي تقول: «كلّ ما يُصيبنا هو خيرٌ لنا»؟

ربّما أكون قد قلّلتُ من شأن هذا القطّ من فصيلة أنغورا.

أصرّ على رأيه:

- لن يكون بوسع البشر على الإطلاق أن يعيشوا من دوننا. إنّ كلّ توازنهم النفسي مرتبط بوجودنا. هل يمكنكِ أن تتخيّلي في أيّ حالٍ ستكون خادمتانا إن لم نكن هنا؟ نحن نخفّف ونهدّئ كلّ التوتّرات في البيت. فبفضلنا نحن لا يجنّ البشر، وينامون جيّدًا.

كنتُ أعتقد أنّ خادمتانا البشريتان سوف تستطيعان أن تعيشا حياة ممتازة في غيابنا، ولكنني لم أرغب في الانخراط في جدلٍ حول هذا الأمر.

في الطابق الأوّل، وجدتُ فيثاغورس وكانت عيناها مفتوحتين، وتائهتين وسط الغموض السائد.

طلبتُ منه:

- اروِ لي تتمّة قصّتنا.

كانت قلّة الطعام قد أضعفته وأوهنته، ولكنّه وافق على أن يرافقني إلى

الغرفة ذات المرآة الكبيرة التي كانت قد أوقعتني في فخّها المخادع، وجلسنا على السرير.

– لقد توقّفنا عند عصر النهضة، وكنتَ تقول لي إنّ العلماء والفنانين كانوا يهتمون أخيرًا بنا.

ارتعشت أذنا فيثاغورس قليلًا، كما لو أنّه قد غرق في التاريخ الذي سيرويه لي.

– في فرنسا، الملك لويس الثالث عشر هو الذي قام بإعادة الاعتبار رسميًا إلى القطط. وكان وزيره ريشيليو يمتلك ما يقارب عشرين منها، كان يلعب معها كلّ صباح قبل أن يبدأ بالعمل. كان يعشقنا. وقد نصح لويس الثامن كلّ الفلاحين باقتناء قططٍ في سبيل حماية محاصيلهم، ثمّ أسّس كتيبة من القطط وأقامها في المكتبة الملكية بشكلٍ دائم مكلّفة بحماية الكتب من الهجمات الغادرة التي تشنّها الفئران. لسوء الحظّ، لم ينقل الملك شغفه بالقطط إلى وريثه. فمنذ سنّ العاشرة، كان لويس التاسع يتسلّى مع رفاقه بإلقاء القطط الحيّة في الأفران. ولكن من بعده، جاء متبنٍ جديد للقطط، ألا وهو لويس العاشر. كان يأتي إلى اجتماعات وزرائه وقطّه الأبيض بين ذراعيه. وهو منْ أمر بشكلٍ رسمي بإيقاف محارق القطط في سبيل القديس يوحنا.

– كم من المزعج أن يرتبط مصيرنا بأمزجة البشر....

– إنّ رجال السلطة الذين لم يكونوا يطيقوننا، مثل قمبيز الثاني، ويوليوس قيصر، ولويس الرابع عشر، أو في عصور لاحقة نابليون وهتلر، كانوا غالبًا استبداديين.

– وعدا عن الزعماء؟

– وفي هذه الحقبة بدأوا باستخدام القطط في التجارب العلمية.

– «علمية»؟

– العلم، هو فنّ محاولة فهم العالم. هنا حيث السياسة هي الخضوع للقوانين، هنا حيث الدين هو الخضوع لمشيئة العملاق الكبير الملتحي

المتخيّل وغير المرئي والذي يُراقب كلّ شيء، يبحث العلم دون أفكارٍ مسبقة ويطرح أسئلة جديدة. وفي هذا العصر بالضبط، كان العلماء هم أوّل من اعتقدوا أنّ القطط سوف تستطيع أن تساعدهم على فهم الأمور على نحوٍ أفضلٍ بكثير.

دوّت أصوات أسلحة رشّاشة تلتها انفجاراتٌ عنيفة في الخارج، ولكن لم يستطع ذلك أن يُلهيني عن متابعة سرد فيثاغورس.

هزّ القطّ السيامي رأسه، ثمّ استأنف سرده.

- أحد أكبر علمائهم، وهو إسحاق نيوتن، اكتشف مبدأ الجاذبية الكونية في عام 1666، إبان الوباء الكبير الثالث للطاعون الذي أصاب العاصمة الإنكليزية لندن. كان قد انسحب إلى الريف في قرية وولسثورب، وبعد ظهيرة أحد الأيام، بينما كان يأخذ قيلولةً تحت شجرةٍ، سقطت قطّته ماريون، التي كانت تنتقل بين أغصان الشجرة، فوق رأسه، استيقظ متوثّبًا من مكانه، وكانت جملته الأولى: «إذا كانت ماريون قد سقطت من غصنٍ فوقي، لماذا لا يسقط القمر من السماء على الأرض»؟ وقد استنتج من هذه الملاحظة قانون الجاذبية، وهو أحد أعظم اكتشافات علم الفيزياء. فيما بعد، دوّن كاتبٌ فرنسي، كان هو الآخر يعشق القطط، وهو فولتير، القصّة، مستبدلًا القطّة بتفاحةٍ.

أثارت هذه المعلومة اهتمامي.

- ولكي يشكر قطّته ماريون التي ألهمته هذا الاكتشاف، راودت إسحاق نيوتن فكرة فتح كوّة مربّعة في أسفل باب بيته لكي يسمح لها بالدخول إلى بيته والخروج منه حسب رغبتها. وبالتالي، لم يكن مكتشف الفيزياء المعاصرة فحسب، بل أيضًا مخترع... باب الهرّة.

أعتقد أنني أحبّ العلم. تلمّظ فيثاغورس مصدرًا أصواتًا بلسانه، وعرفتُ أنّه كان يتضوّر جوعًا ولكن بدا متيقّظ الذهن رغم كلّ شيء.

- في مرحلة لاحقة، اكتشف عالمٌ آخر، هو نيكولا تسلا، ظاهرة الكهرباء الساكنة وهو يرى ابنه يداعب قطّه ماسيك. كان ذلك يُحدث شرارات ناعمة وسط الظلام.

- إذًا، لقد أنقذنا العلمُ.

- ليس حقًّا...

ماء فيثاغورس هذه الجملة الأخيرة بطريقة مختلفة.

- لقد أخرجَنا العلمُ من تحت نير الاضطهاد الديني، ولكنّه تسبّب لنا بعذاباتٍ جديدة.

- دوىّ صوتُ انفجارٍ جديدٍ في الخارج، كان أقوى من التفجيرات التي سبقته. سمعنا الصوت الخاصّ بمنزلٍ ينهار. ارتعش القطّ السيامي ارتعاشًا خفيفًا.

تحرّكت أذناه دائريًا في كلّ الاتجاهات. كشف عن أسنانه، كما لو أنّه يكظم غيظًا شديدًا، ثمّ صرّح:

- ربّما حان الوقت لكي أكشف لكِ عن سرّي، يا باستيت. اتبعيني.

قادني نحو مطبخه، وقفز على مقبض باب القبو، مستخدمًا وزنه بذكاء، نجح في إدارة المقبض وفتح الباب، وكشف بذلك عن سلّمٍ أبيض اللون، درجاته ملساء تمامًا.

- كيف تنجح في التعامل مع مقابض الأبواب؟

- أنا أيضًا تصرّفتُ «بطريقة علمية»، وانتهيتُ إلى استنتاج منهجٍ فعّالٍ. سوف أعلّمكِ هذا فيما بعد. تعالي معي الآن.

نزلتُ درجات السلّم بحذر.

- صوفي عالمة وهذا مختبرها. أنا ثمرة إحدى تجاربها، ولهذا السبب استطعتُ الوصول إلى الكثير من المعلومات حول البشر.

في أسفل السلّم، وصلنا إلى بابٍ معدني. استعدّ للقفز لكي يفتحه، ولكنّ خادمته ظهرت على نحوٍ مفاجئٍ خلفنا.

حينما رأتنا، عبست مقطّبة حاجبيها، وحدّقت في فيثاغورس وتحدّثت إليه بلهجة معاتبة تكرّر فيها اسمه عدّة مرّات بطريقة قاسية.

محبطًا ومحرجًا، التفت نحوي وأفهمني بأنّه سيكون من الأفضل لنا أن نعود إلى الصالون.

هل حقًّا سمعتُ الحديث بطريقة صحيحة؟ هل أخبرني فيثاغورس بأنّه هو نفسه ثمرة تجربة علمية بشرية؟ أريد بأيّ ثمنٍ أن أكتشف ما يعنيه هذا الأمر.

يا لها من خسارة أن يُقاطَع بوصول خادمته، لقد كان على وشك أن يكشف لي عن سرّه. كان التلفزيون لا يزال يبثّ المشاهد نفسها باستمرار، وذلك بالتناوب بين الحرب وكرة القدم وأحوال الطقس. ثمّ ضغطت صوفي على زرّ جهاز التحكّم، فظهرت مشاهد مختلفة تمامًا.

– أعتقد أنّ خدمنا من البشر لم يعد يطيقون المشهد المحزن لعالمهم المعذّب، ولذلك يعزّون أنفسهم بخيال «السينما».

على الشاشة، شوهِدت قططٌ مرسومة تتحرّك. لا بدّ أنّ الأمر يتعلّق بفيلمٍ.

- *المرأة القطّة؟*

– كلا. هذا فيلم رسوم متحرّكة يُدعى ***قططٌ أرستقراطية***. وحسب رأيي، هذا محض مصادفة أن يتحدّث الفيلم عنّا نحن. أيًّا يكن... أعتقد أنّ صوفي تكنّ لنا رغم كلّ شيء محبّة خاصّة.

تحرّكت الرسومات بسرعة بما يكفي لإعطاء إحساسٍ بالسلاسة الشبيهة بما هو موجود في الواقع.

– هل هذه أيضًا حكاية زائفة اخترعها كاتب سيناريو؟ ما الفائدة من رواية أحداثٍ ليست موجودة في الحقيقة والواقع؟

– الخيال هو الذي يسمح لهم بالهروب من العالم الحقيقي حينما يصبح خانقًا وقامعًا جدًّا. شاهدي هذا الفيلم وسوف تتأكّدين من القدرة المريحة للقصص الخيالية التي تتعارض مع رهبة الوقائع.

خامرني الشكّ في ذلك، ولكن لأنّه لم يكن هناك أيّ شيء آخر لأقوم به في تلك اللحظة، انتهيتُ إلى الاهتمام بهذا «الفيلم الكرتوني»... ظهرت في الرسوم المتحرّكة بوضوح قطّة بيضاء في رقبتها عقدة مضحكة، وقطّ رمادي له رأسٌ غريب. علّق فيثاغورس على الرسوم، قائلًا:

– القطّ هو أومالي، والقطّة هي الدوقة. إنّهما يشبهاننا، أنتِ وأنا، بعض الشيء. الفيلم أمريكي لكنّ القصّة تجري في باريس.

من خلال ما رأيتُ، كانت هاتان الشخصيتان غريبتين بالفعل، إنّهما قطّان زائفان مرسومان يتحرّكان مثلنا ويتكلّمان مثل البشر.

– وما هي حبكة القصّة؟

– الدوقة قطّة تخصّ عائلة بشرية ثريّة، لديها ثلاثة أولاد وعاشت على الدوام في رفاهية وراحة. توصي خادمتها، وهي سيّدة عجوز ثرية جدًّا وتحبّها كثيرًا وتدلّلها، بكلّ ثروتها للدوقة، وتُعطي الأمر إلى كبير خدمها أن يشرف على ذلك. ولكنّ هذا الأخير يعقد العزم على التخلّص من القطط لكي ينال هو الثروة بدلًا عنها. ولذلك يقوم باختطاف الدوقة وأولادها ويقودها إلى مكانٍ بعيدٍ، في الريف. تنجح القطط في الفرار وتعود إلى باريس. ولكنّها، بعد أن أصبحت من دون مأوى، لا تجيد الاعتماد على نفسها. يأتي القطّ المنزلي أومالي لمساعدتهم، ويحميهم ويُتيح لهم العودة إلى بيتهم.

– هذا جميل...

– ولكن هذا ليس واقعيًا. في الواقع، إذا أراد رئيس خدمٍ أن يتخلّص من قططٍ، يقوم بقتلها بكل سهولة وبساطة. والقطط لا تعرف أن تستقلّ شاحنات وتعود إلى باريس.

بدا منزعجًا لانعدام الواقعية في الرسوم المتحرّكة.

راقبتُ الشخصيتين ذاتَيْ الآذان المنتصبة اللتين كانتا تتحاوران مثل ناتالي وتوماس بالضبط، وبنفس النبرات وبنفس العيون. لولا جسديهما، لكانا بشريين تمامًا. فعلًا ليس لهذا أيّ معنى!

حينما رأيتُ القطط الصغيرة الثلاثة، تذكّرتُ أولادي الأعزّاء الذين فقدتهم. من المؤكّد أنّ العالم الحقيقي أكثر قسوة من عالم الرسوم المتحركة. ترى كيف كانت ستتصرّف هذه «الدوقة» لو أنّهم أغرقوا صغارها وهم يلهونها بشعاع ليزري، كيف كان سيتصرّف أومالي لو أنّ البشر من حوله كانوا يطلقون النار على بعضهم من البنادق ويلقون على بعضهم قنابل يدوية في حين كان الطاعون يتفشّى في شوارع باريس؟...

بينما واصل الفيلم عرضه، استرخيتُ بهدوء، ثمّ غرقتُ في النوم.

في حلمي، تخيّلتُ أنني ناتالي.

أعيش في النهار، وأنام في الليل. كنتُ ثنائية الأطراف وأحبّ الاستحمام. في النهار، أقوم بتفجير المنازل وأعتمر خوذة صفراء. وفي المساء، عندما أعود إلى البيت، تكون قطّتي مستيقظة وتخرخر عندما أداعبها. وأتسلّى بمنعها من الانتقال من غرفة إلى أخرى من خلال إغلاق الأبواب عليها. ثمّ حينما تُبالغ في المواء، أُطلق سراحها. أتناول أطعمة بكلّ الألوان. أشاهد التلفزيون. أصعد إلى غرفتي وأنظر إلى نفسي في المرآة. أرى نفسي ككائن بشري، ولكن على حين غرّة يحيّرني تفصيلٌ صغير. أميل نحو المرآة وأكتشف أنّ حدقتي عينيّ عبارة عن فتحات، مثل عيني قطّةٍ.

استيقظتُ فجأةً، متوثّبةً.

نفضتُ كلّ جسمي.

بدا لي في النهاية أنّ حياة البشر ليست ذات أهمية كبيرة.

ربّما يكون عالمنا نحن القطط بالفعل ضيّقًا ومحدودًا، ولكنني وجدتُ أنّ عالم البشر يفتقر إلى عاطفة مثيرة للاهتمام. شعرتُ أنّهم لا يحسّون إلّا بنصف المحفّزات الخارجية. إنّهم يسمعون الأصوات بطريقة سيّئة (ليست لديهم آذانٌ قابلة للتوجيه)، ويشعرون بالموجات بطريقة سيّئة، ولا يرونها في الظلام.

لقد أتاح لي حلمي أن أقيس مقدار حظّي في أن أكون قطّة عالمة بعالم البشر، وهذا بفضل فيثاغورس. وبهذه الطريقة، استفدتُ من معرفة العَالَمَين.

أغمضتُ عينيّ مرّة أخرى واستغرقتُ في النوم من جديد. حلمتُ هذه المرّة أنّ فيثاغورس يُنزلني عبر السلّم الأبيض إلى قبوه ويفتح مقبض الباب الحديدي. ثمّ يُخبرني القطّ السيامي في منامي: «سوف أكشف لكِ عن سرّي».

ولكن قبل أن أتمكّن من التصرّف، وثبت صوفي فوقي، ودسّتني في كيسٍ، ووجدتُ نفسي في وقتٍ لاحقٍ مربوطةً إلى طاولةٍ في غرفةٍ مظلمة.

يموء فيثاغورس، وهي تهزّ رأسها في إشارة إلى الموافقة.

قال لي:

- أنتِ محظوظة، يا باستيت، إنّها موافقة على أن تفتح لكِ عينًا ثالثة.

فقرّبت صوفي نصلًا رفيعًا من جبيني وهمس فيثاغورس في أذني، قائلًا:

- لا تخافي، هذا يؤلم قليلًا في البداية، ولكن بعد ذلك نفهم كلّ شيء. قليلٌ من الألم، هذا هو الثمن الذي ينبغي دفعه من أجل الوصول إلى الكثير من المعارف.

-16-

زيارة مفاجئة

مرّت عدّة أيامٍ أُخر على هذا المنوال ونحن لا نزال مستلقين بلا حراكٍ على أريكة الصالون، أمام التلفزيون الذي يبثّ صورًا. أصبحتُ أنام لساعاتٍ أكثر يومًا بعد آخر، وأصبحتُ أحلم أكثر فأكثر. الأمر الذي جعلني أفكّر.

حينما رفعتُ جفنًا، رأيتُ خادمتينا المبهورتين بالمونوليث المضاء المثبت على الحائط.

حلمتُ أنّ النقطة الأضعف عند البشر هي على الأرجح القدرة الكليّة لحاسة النظر. من أجل معرفة العالم، يستخدمون عيونهم والتلفزيون الذي يرسل إليهم معلومات بصرية، الأمر الذي يثير لديهم انفعالات وأحاسيس مباشرة. أمّا حاسة السمع، المصدر الثاني للمعلومات بالنسبة إليهم، فلا تُستخدَم إلا من أجل دعم الوقائع الناجمة عن الصور.

حتى أفلامهم الخيالية مكوّنة بشكلٍ أساسي من تتابع مشاهد العنف أو الجنس أو المطاردة. يحتاجون على الدوام إلى المزيد من المشاهد الصادمة، ووظيفة التلفزيون هنا هي إرضاء رغبتهم. ومن جراء ذلك، نسوا تنمية أحاسيسهم النفسية. حينما يدخلون إلى غرفةٍ، يكونون عاجزين عن اكتشاف الموجات السيئة، وحينما يلتقون شخصًا من جديد، لا يمكنهم أن يشعروا إن كان هذا الشخص مفيدًا لهم أم لا. أعتقد أنّهم فقط حينما ينامون يكون لذهنهم نشاطٌ شخصي، وعدا ذلك لا يفعل دماغهم سوى إدارة وترتيب وغربلة كلّ هذه الصور الخارجية التي تغزوهم على الدوام. أمّا أنا، فأصبحتُ الآن أُجيد الإصغاء إلى جسمي.

إنّه جائع.

اليوم، تجاوزت العتبة التي لم أعد أتعرّض فيها أبدًا إلى التشنّجات في البطن.

أدركتُ أننا نعتاد على كلّ شيء: على ضجيج الانفجارات كما على مشاهد الحرب في التلفزيون وعلى فقدان الغذاء...

في البداية فقط، يكون الأمر صعبًا، نتذمّر، ونتألّم ونعاني، ثمّ عند نقطة معيّنة، نعتاد، ويصبح هذا جزءًا من نمطٍ جديدٍ للحياة.

واصلتُ جلب الجرذان من وقتٍ إلى آخر، والتي وافق البشر أخيرًا على تناولها شريطة بتر قوائمها، ورأسها وذيلها لجعلها في شكلٍ مقبولٍ أكثر، ومن ثمّ سلقها. وبهذه الطريقة، أصبحت تشبه فاكهة رمادية، بلحمٍ أبيض. وهذا هو ما عزّز في داخلي فكرة أنّ حاسة النظر، بالنسبة إليهم، تمارس طغيانها على الحواس الأخرى. وافق فيثاغورس في النهاية، هو الآخر، على تناول الجرذان المسلوقة، ولكنّه ظلّ متحفّظًا على نحوٍ مثير للدهشة، أمّا أنجيلو، فقد أصبح لعوبًا أكثر فأكثر.

متمدّدة على أريكة الصالون، تثاءبتُ، ثمّ تمطّيتُ. بدا أنّ الاستراحة دون حراكٍ في المنزل هو السلوك الأفضل الذي يعتاد عليه المرء في فترة الحرب لكي يراقب طاقته ويحدّ من الإحساس بالجوع. مع ذلك، جهدتُ لكي أخرج مرّة أخرى، لكي أجلب بعض الطعام للمحيطين بي.

وإذا كنتُ قد رأيتُ، خلال غزواتي السابقة، ما يقارب من مئة كائن بشري، كانوا غالبًا مسلّحين بالبنادق، ففي هذه المرّة لم أصادف أكثر من حوالي عشرة أشخاص، كانوا يتحرّكون خلسةً، ويركضون لكي يختبئوا خلف السيارات. استطعتُ أن أحسّ بخوفهم، وأن ألمح عرقهم المتصبّب، وأن ألاحظ غضبهم.

كانت المجموعات القليلة التي شاهدتها تنتقل ببطء وتُطلق النار على كلّ ما يتحرّك، بما فيه القطط.

والجرذان التي حاولتُ الاقتراب منها، بدت أكثر عدوانية من ذي قبل. ما أن اقتربتُ من أحدها، كانت كلّ الجرذان الأخرى تأتي لنجدته. أن أواجه

وحدي خمسة جرذان كان يغدو انتصاري عليها أكثر صعوبة، رغم ميزة حجمي الأكبر.

ومن جرّاء ذلك، تخلّيتُ عن فكرة اصطيادها، واهتممتُ بطريدة جديدة: الغربان. كانت تزداد عددًا باضطراد وهي تنقر بمناقيرها فوق جبال القمامة المتراكمة.

حدّدتُ واحدًا منها وانقضضتُ عليه. غرستُ فكّي في رقبته وخمشتُ جناحيه بمخالبي. تعاركنا وسط سحابة من الريش والزغب الأسود الغامق المتطاير. نجح في الإفلات منّي ونقرني بضربة من منقاره، وحاول أن يطير ولكنّه كان قد أصبح ضعيفًا وغير قادرٍ على أن يفرد جناحيه. عزّزتُ قبضتي وانحنيتُ نحو جمجمته.

طاب نهارك، أيها الغراب.

لم يُجِب ولكنني شعرتُ بموجة عدائية. وحينئذ، وإذ لم يعد لديّ وقتٌ لأضيّعه، نظرًا للجوّ العام في الشارع، فضّلتُ القضاء عليه. أخذتُ الطائر المزعج وأنا أجرّه على الأرض.

بدا لي أنّ البشر كانوا يأكلون هم أيضًا الطيور. اعتقدتُ أنّهم سوف يستقبلون الغراب على نحوٍ أفضل من جرذاني.

بينما كنتُ أقترب من منزل فيثاغورس، لاحظتُ أن المدخنة تبعث دخانًا داكنًا وكثيفًا جدًّا. انتابني شعورٌ مزعج. تخلّيتُ عن فريستي، وهرولتُ وقفزتُ إلى شجرةٍ في الشارع لكي أصل إلى سطحنا. دخلتُ من النافذة المفتوحة للطابق الثاني ونزلتُ الدرجات سريعًا حتى وصلتُ إلى الطابق الأرضي. اكتشفتُ المشهد: كان باب المدخل قد تحطّم وانخلع من مفاصله بعد اقتحامه بسيارة. ولم يعد الصالون سوى ركامٍ. تسارعت دقّات قلبي، مذعورةً: أنجيلو؟ فيثاغورس؟ ناتالي؟ ارتجفت قوائمي، وشعرتُ بالاختناق. تقدّمتُ وظهر أمامي المشهد المُرعب: دمٌ، بركة من الدم، وفي وسطها، جسدٌ بلا حياة، والوجه على الأرض. صوفي! كانت لا تزال أصابعها تقبض على بندقية، يبدو أنّها لم تكن فعّالة بما فيه الكفاية لكي تحميها. بالقرب من المدفأة، كان ثلاثة أشخاصٍ جالسين ويتكلّمون بصوتٍ عالٍ ويضحكون.

إنّهم لصوصٌ، على الأرجح. اقتربتُ منهم بصمت لكي أرى ما الذي يحدّقون فيه على الموقد، الذي كان يبعث الكثير من الدخان. يا لها من صدمة! كان الرجال الثلاثة النحيلون والملتحون -والذين عرفتُ من بينهم توماس- قد وضعوا فيليكس على سيخٍ كانوا يُحرّكونه على جمرٍ. كان المسكين قد شوي وفقد أحد قوائمه.

هكذا سيكون الأمر صحيحًا: يمكن للبشر أن يرغبوا في... تناول لحمنا!

ابتلعتُ ريقي وسرت فيّ موجة حقدٍ، والتي سرعان ما تحوّلت إلى الارتعاش حنقًا.

يجب ألّا أستسلم للانفعالات.

عليّ التفكير بسرعة ووضع خطّة للهجوم.

قبل كلّ شيء، سأخطف منهم خلسةً قنبلة يدوية. ولكن، بينما سرتُ نحوهم بخطوات غير مسموعة، أصدر لوحٌ من أرضية البيت صريرًا ونظر الرجال الثلاثة في اللحظة نفسها باتجاهي.

صاح توماس، بتعجّب:

– باستيت!

قبل أن أتمكّن من التصرّف، أخرج مصباحه الليزري ووجّه الضوء الأحمر إلى قرب رجلي الأماميتين.

كلا! ليس هذا! ليس الليزر!

كان الإغراء قويًا، ولكنني تذكّرتُ أقوال فيثاغورس: «لا رغبة، لا ألم». أن تكون حرًّا، هو ألّا تكون مرتبطًا بأيّ شيء ولا بأيّ شخص، وخاصّة ألّا تكون متعلّقًا بضوءٍ أحمر بسيط ينتقل من مكانٍ إلى آخر.

تقدّم توماس باتّجاهي، ممسكًا بالليزر بيده اليمنى وبسكينٍ كبيرٍ في يده اليسرى.

سحرني الوميض الأحمر... ولكنّ رؤية فيليكس المشوي على السيخ أعادتني إلى الواقع. تذكّرتُ أنّ توماس سبق له وأن قتل أربعة من أولادي: تمالكتُ نفسي واتّجهتُ نحو باب المدخل المهشّم وقفزتُ إلى الشارع.

انطلق توماس يطاردني.

كان عليّ أن أعثر على مخبأ. بسرعة! تسلّلتُ إلى بيتي عبر باب الهرّة، ولكن توماس كان يقتفي أثري خطوة بخطوة وحطّم الباب بركلةٍ واحدة من قدمه. لم يعد هناك أيّ شيء يحميني بعد الآن من هذا العدو المرعب.

عرفتُ أنّه لا جدوى من محاولة الاختباء في طوابق المنزل لأنّه هو أيضًا يعرف تمامًا الأماكن بالتفصيل. وبالتالي، كما فعلت الفأرة الصغيرة التي كنتُ قد لاحقتها، توجّهتُ مسرعةً نحو القبو. ركض خلفي. استدرتُ نحو اليسار، ثمّ انعطفتُ نحو اليمين. لقد نجح الأمر! عبرتُ باب القبو الذي، لحسن الحظّ لم يكن مغلقًا. نزلتُ السلّم بسرعةٍ كبيرة. وبقيتُ أسمع وقع خطواته الثقيلة خلفي.

لحسن الحظّ، لم يعد التيار الكهربائي يعمل، ولكنّه وصل وهو يحمل شمعة أشعلها. إلّا أنّ لهب شمعةٍ يُنير أقلّ مما ينيرُ مصباحٌ كهربائي. اختبأت في الأعلى، فوق خزانات قوارير النبيذ، وأنا في حالة تأهّبٍ قصوى، منكمشةً على نفسي، دافعةً أذنيّ إلى الخلف، وملصقةً شعر شواربي على خدّي. كززتُ على أسناني وضغطتُ على فكّي وأرخيتهما كما لو أنني أُمرّن نفسي على العضّ.

ناداني توماس بصوتٍ لطيفٍ وودود.

توسّعت حدقتا عيني، ووسط الظلام شبه التامّ، أحسستُ أنّ الأفضلية لي.

وإذ رأى بأنني لا أستجيب، بدأ يلفظ اسمي بنبرة أكثر لطفًا بكثير. ارتطم بكلّ الأشياء التي صادفت طريقه.

– باستيت!

اصطدم بكلّ شيء وقلب الأثاث، وهو لا يزال يلوّح بسكّينه.

أمّا أنا، فقد بقيتُ ساكنة في مكاني دون تأثّرٍ وانتظرتُ لحظتي المناسبة، وأنا لا أزال أختبئ جيّدًا.

في النهاية، حينما أصبح تحتي مباشرةً، انقضضتُ عليه وغرزتُ مخالبي في عينيه.

صرخ صراخًا مدويًا وألقى سكينه، في حين غرزتُ مخالبي على نحوٍ أعمق في جسده. لقد أيقظت معاركي ضدّ الجرذان والغراب لديّ ردود فعل المحاربين الأوائل من أسلافنا.

نجح في الإمساك بأحد قوائمي وألقى بي بقوّة وضربني بالحائط. لا أعتقد أنني قد أعميته ولكن مع ذلك شوّهته تشويهًا كبيرًا. قمتُ بشنّ هجومٍ جديدٍ وأنا أموء بقوّة لكي أمنح لنفسي الشجاعة، ومن جديد، أحدثتُ جراحًا في وجهه. كانت هذه المرّة الأولى التي أقاتل فيها كائنًا بشريًا، وعلاوة على ذلك، في عراكٍ بالأيدي وجهًا لوجه، وعلي أن أعترف تمامًا أنّ الانتصار عليه أصعب بكثير من الانتصار على جرذٍ أو غراب. دفعني توماس مرّة أخرى. نزلتُ برشاقة على أرجلي وتسلّلتُ إلى زاوية أخرى في الأعلى فوق الخزانة. مستغلّةً إدارة ظهره لي، انقضضتُ عليه من الخلف ووقعتُ على كتفيه وعضضتُ لوح كتفه بأقصى ما أوتيتُ من قوّة.

تحت تأثير الألم الشديد، أفلت من يده شمعته، التي سقطت على صندوقٍ مليءٍ بأقمشة قديمة وأضرمت النار فيه.

عبرت فكرة غريبة في ذهني. تُرى هل يمكن أن تكون الحرب والمعارك والجراح صيغة أساسية للتواصل؟

هل نتقاتل، حينما لا نستطيع أن نتحاور؟ (*صباح الخير، يا توماس*).

وقد ولدت فكرة أخرى من الفكرة الأولى: لقتل شخصٍ آخر، يجب الاهتمام به قبل ذلك ومحاولة إفهامه شيئًا ما.

إنّ حقيقة لفظه لاسمي جعلتني أرتاح لفكرة أنّه، من جانبه، يحاول أن يُفهمني شيئًا ما يمكنه بكلّ تأكيد، في هذه الحالة، أن يتلخّص بالتالي: موتي، *يا باستيت*.

انتشرت النيران على الأرض، وامتدّت إلى الصناديق القديمة للصحف والتي اشتعل خشبها. ارتفعت درجة الحرارة سريعًا، وكذلك ازدادت درجة الإضاءة. جعلنا الدخان المتصاعد نسعل. انهار جزءٌ من السقف. كان عليّ أن أخرج من هنا قبل أن أحترق حيّة. لقد تصاعدت ألسنة اللهب الآن من حولي في كلّ الاتجاهات.

اشتعلت النيران في طرف ذيلي وكان عليّ أن أطفئها من خلال هزّ ذيلي على نحوٍ محموم.

اشتعلت النيران في بقعة أخرى من وبري. صرخ توماس بصوتٍ يتزايد ارتفاعًا وقوّة وهو يردّد اسمي.

غزت النيران كلّ شيء، وضاقت حدقتا عينيّ إلى أقصى درجة، ولم أعد أرى أيّ مخرجٍ من المكان.

فجأةً سمعتُ مواءً يقول لي: «من هنا».

حطّم فيثاغورس زجاج منفَس القبو وأشار عليّ أن ألحق به. تمدّدتُ لكي أصل إلى المخرج حينما ظهرت يدٌ من بين ألسنة اللهب وأمسكت بذيلي.

أنا أكره كثيرًا أن يُمسَكَ هذا الجزء من جسدي، ناهيك عن أن يكون ذلك من أجل ليّه كما كان يفعل الآن. سوف يقطع ذيلي، هذا المتوحّش!

ورأسي إلى الأسفل، حُبِستُ في قبضته المحكمة.

حتى وإن قاومتُ ودافعتُ عن نفسي، لا يمكنني أن أصل إليه لا بمخالبي، ولا بأسناني.

وفي هذه اللحظة، قفز فيثاغورس على كتف توماس، وهبط على ذراعه لكي يصل إلى معصمه ليعضّ يده بكل ما أوتي من قوّة حتى أرغمه على إفلات ذيلي.

بعد أن تحرّرت منه، ركضتُ مسرعةً خلف القطّ السيامي، الذي فرّ عبر منفَس القبو، قافزًا إلى خارج هذا الجحيم. عبرنا الشارع ولجأنا إلى الأغصان العالية لشجرةٍ. دقّ قلبي بقوّة. وتنفّست رئتاي بهدوء الهواء الطلق. لمس فيثاغورس خطمي.

اعترف، قائلًا:

– كانت مبارزة جميلة! لم يسبق لي قط أن رأيتُ كائنًا بشريًا مسعورًا إلى هذه الدرجة. وكأنّه كان يحقد عليكِ شخصيًّا. هذا أمرٌ نادر الحدوث.

شاهدتُ المنزل الذي يحترق. لم يخرج توماس منه. أطلقتُ تنهيدة ارتياحٍ – بدا لي أنني انتقمتُ لفيليكس. فكّرتُ مرّة أخرى بذلك القطّ

الأبيض من فصيلة أنغورا النقية ذي العينين الصفراوين. كان عديم القيمة، وكان مدمنًا على نعناع الهرّ الحقيقي، ولم يفعل أيّ شيء ذي فائدة في حياته، ولكنّه لم يكن يستحقّ أن ينتهي على سيخ شواء.

بعد أن صحونا، نزلنا عن الشجرة. في تلك اللحظة، اكتشفنا شريكا توماس. ركضا خلفنا وأطلقا النار علينا من بندقيتيهما. هرولنا لكي نلجأ إلى زاوية شارعٍ مجاورٍ.

سألته حينذاك:

- أين الآخرون؟

- بعد مغادرتكِ، حطّم هؤلاء الثلاثة باب المدخل بسيارتهم. وقد منحهم عنصر المفاجأة الأفضلية. حاولت صوفي أن تعترضهم ولكنّها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية وقُتِلَت. وردود فعل فيليكس السيئة جعلته هدفًا سهلًا. عندما رأت خادمتك أنّ خادمتي قد ماتت، آثرت أن تفرّ من الباب الخلفي. أمّا بالنسبة إليّ، فقد أمسكتُ بابنكِ أنجيلو من رقبته وهربتُ عبر أسطح المنازل.

- أنجيلو حيّ!

- لقد وضعته في مأمنٍ في مخبئنا فوق كنيسة القلب المقدّس.

ارتحتُ لسماع هذا الخبر.

- حينما اعتبرتُ أنّ الصغير بات بمنأى عن الخطر، عدتُ لأنني كنتُ أُخمّن أنّكِ سوف تعودين.

لقد عاد إذًا من... أجلي أنا؟

- هيّا بنا إلى الكنيسة، إذًا! لم أعد أُطيق انتظار اللقاء بابني.

-17-

ولادة العين الثالثة

لم نعثر على أنجيلو فوق سطح البرج.

كانت آثار بولٍ وبقايا شحيحة من الفضلات ترسم مسارًا على أرضية البرج. تعرّفتُ على رائحته، ولكنّ القطّ الصغير، غير القادر على البقاء في مكانٍ والانتظار فيه، لا بدّ أنّه قد جاع وانتهى به الأمر إلى مغادرة المخبأ.

أغمض فيثاغورس، بادي القلق، عينيه لكي يستغرق في تأمّلٍ سريعٍ، ثمّ قال:

– أنا أعرف كيف أعثر على كليهما، أنجيلو وناتالي. سوف ننجح في ذلك بفضل هذا.

وأشار بكفّه إلى قلادتي مع خرزتها الحمراء.

– كما شرحتُ لكِ سابقًا، هذا جهازٌ لتحديد المواقع (جي بي أس). يمكننا أن نحدّد في كلّ لحظة موقع الشخص الذي يحمله.

– لا تحمل ناتالي قلادة. وإذا ما فهمتُ الأمر بشكلٍ صحيح، هي تستطيع أن تعرف مكاني، أمّا أنا فلا أستطيع ذلك.

– إنّها مزوّدة بهاتفٍ ذكيّ يسمح لها بتحديد موقع جهاز قلادتكِ على الخارطة. وبالتالي لدى العودة، سوف أستطيع تحديد هويتها على الإنترنت وعندئذٍ سوف أعرف كيف أحدّد مكانها. كما سيمكننا أن نحدّد مكان أنجيلو الذي يحمل قلادة مثل قلادتكِ.

– «إنترنت»؟ ماذا تعني هذه الكلمة، أيضًا؟

- سوف أشرح لكِ لاحقًا، في هذه اللحظة الأمر الأكثر إلحاحًا وضرورةً هو الذهاب إلى المنزل.

- مستحيل. لا بدّ أنّ اللصين الآخرين قد عادا إليه!

- سينتهي بهما الأمر بالرحيل بكلّ تأكيد. سنترقّب خروجهما من على سطحٍ مجاور. وسوف نعود، حالما يكون ذلك ممكنًا، إلى مغارتي، وسوف أشرح لكِ ما لم يُسعفني الوقت لكي أشرحه لكِ في المرّة السابقة.

هل سيكشف لي أخيرًا عن سرّه؟ أنا متلهّفة إلى حلّ هذا اللغز. لا أحبّ أن تُخبّأ عنّي أمورٌ. كما أنني مستعجلة للعثور على أنجيلو. حينما كان على الدوام بين أقدامي، هذا القطّ الصغير، لم أكن أطيقه، ولكن الآن وقد اختفى، أتحرّق شوقًا إليه.

أخذنا مكاننا أمام شجرة منزل فيثاغورس ونظرنا إلى مسكني السابق، الذي كان لا يزال يحترق بالنيران المشتعلة فيه. وبما أنّه لم يأتِ أحدٌ لإطفائه والرياح كانت تهبّ بقوّة، امتدّت النيران إلى كلّ أجزائه. وسرعان ما انهار السقف محدثًا دويًّا قويًّا.

في المقابل، لم يعد هناك أيّ دخانٍ ينبعث من مدخنة بيت فيثاغورس. خرج الكائنان البشريان بعد ذلك بقليل، ومع ذلك آثرنا أن ننتظر لبعض الوقت تحسّبًا لاحتمال عودتهما.

كان الليل قد بدأ بالهبوط حينما عبرنا عتبة الدار.

لم يكن قد بقي من شريكي السابق في المسكن سوى بقايا عظامٍ متناثرة... وجمجمة بيضاء بمحجرين فارغين من العينين. يا له من منظرٍ غريب. هل أنا أيضًا هكذا «تحت جلدي»؟

ارتجلتُ حفلة تكريمٍ صغيرة للميّت.

- صديقي المسكين فيليكس، من المؤكّد أنّ هذه لم تكن حياتك الأكثر فائدةً. أعلم أنّك ما كنت ستكون نافعًا في شيءٍ مهمّ، لا بالنسبة إليّ، ولا بالنسبة إلى أنجيلو، ولا بالنسبة إلى خادمتنا، ولكن على الأقلّ، من خلال

عدم طرح الأسئلة على نفسك، كنت ستعرف شكلًا من أشكال الهدوء والصفاء. أتمنى أنّ إلقاء القبض عليك لم يكن أليمًا وأنّك متّ سريعًا.

كانت جثّة صوفي لا تزال ممدّدة في الصالون. راح فيثاغورس يجلس فوق ظهرها.

– ماذا تفعل؟

– بما أنني لن أستطيع أن أوفّر لها لا قبرًا ولا دفنًا، سأقدّم لها ما يستطيع قطٌّ فقط أن يقدّمه لكائنٍ بشريٍّ ميّت: سأرافق روحها إلى «العالم الآخر».

مرّة أخرى، كنتُ أجهل تمامًا عمّا يتحدّث، ولكنني تصوّرتُ أنّه سوف يشرح لي هذا أيضًا عمّا قريب.

أطبق فيثاغورس أجفانه، وكانت عيناها تتحرّكان تحتها. وكانت أذناه ترتعشان. خرجت مخالبه وانكمشت في تشنّجات دقيقة.

انكمش على نفسه، تمدّد، تشنّج من جديد، ثمّ ارتخى وفتح عينيه من جديد.

قال:

– لقد تمّ الأمر. لقد «صعدتْ».

– وما معنى هذا؟

– في بعض الأحيان، تبقى أرواح البشر عالقة «في الأسفل» لأنّهم يشعرون بأنّهم لا يزالون متعلّقين بكائناتٍ أو بمشاعر. وبوساطة روحي كقطّ، أشرتُ عليها بأن لا شيء يخصّها هنا وأنّها تستطيع الذهاب نحو النور.

– كيف استطعت فعل ذلك؟

– لقد رافقت روحي روحها حتى بلغت مدخل نفقٍ يلوح في نهايته من بعيد ضوءٌ، وهناك شكرتها على كلّ ما فعلتْهُ من أجلي، وكلّ محاسنها التي أعجبتني. وذكّرتها بأنّه لم يعد هناك أيّ شيءٍ يربطها بهذا البعد. ولا حتى أنا. ثمّ تمنّيتُ لها رحلة سعيدة وتناسخًا طيّبًا.

– أنت تستطيع إذًا أن تتحدّث إلى الأرواح البشرية؟

– فقط بعدما يموت البشر. ولهذا السبب أيضًا كان المصريون يقدّسوننا.

كانوا قد لاحظوا أننا قادرون على مرافقة أرواح الموتى. وكانوا يسمون هذه الظاهرة بقدرة الكائنات على أن تكون «مرشدي أرواح».

– كيف تستطيع أن تعرف العبارات والتفصيلات الدقيقة إلى هذه الدرجة حول عالمهم؟

– الإنترنت. على الإنترنت، هناك فيديوهات تشرح بالتفصيل هذه العملية المعقّدة.

فكّرتُ في كلّ ما علّمني إياه للتوّ.

إذا ما فهمتُ بشكلٍ صحيح: الجسد يموت، والروح تبقى وتتجسّد، أليس كذلك؟

إذًا الروح... خالدة.

(إذًا أنا خالدة!).

كرّرتُ هذه المعلومات على نفسي لكي أكون متأكّدة من أنني لن أنساها. لا أزال لا أستطيع أن أصدّق ذلك!

كلّما كان فيثاغورس يكشف لي عن المزيد من المفاهيم الجديدة، كنتُ أدركُ أكثر جهلي الخاصّ. كنتُ أحتقرُ فيليكس، في حين أنني بلا شكّ أكثر جهلًا منه، مقارنة مع القطّ السيامي.

قال لي:

– لقد أخبرتني روح صوفي بشيءٍ مثيرٍ للاهتمام قبل أن تحلّق في السماء. لقد قالت لي إذا ما مُنِحَت الخيار، في حياتها المقبلة سوف تفضّل أن تولد على هيئة قطّة. أمّا أنا، فأريد أن أولَد في حياتي المقبلة على شكل كائنٍ بشري.

– لماذا تُريد أن تتقهقر إلى الوراء؟

– أنا معجبٌ بأياديهم. إنّها تتيح لهم صناعة كتبٍ، وفنٍّ، وآلاتٍ معقّدة. ثمّ أريد أن أعرف ما الذي نشعر به حينما نضحك. نحن القطط، نحن جدّيون على الدوام ونأخذ كلّ شيءٍ بجدّية. أودّ في بعض اللحظات أن أمارس هذه السخرية، بل هذا الاستهزاء الذاتي الذي يسمح لهم بجعل كلّ شيء أمرًا نسبيًا.

– يريد المرء دائمًا أن يكون مختلفًا عمّا هو عليه.

– وأنتِ، يا باستيت، ماذا تودّين أن تكوني إذا ما استطعتِ أن تختاري جسدكِ في حياتك المقبلة؟

– قطّة، بكلّ تأكيد! حينما نكون في قمّة التطوّر، لا يمكننا العودة إلى الوراء. ماذا ستكون حياتي إن لم أفعل شيئًا سوى أن أُغمَرَ بالصور والصخب دون أن أجيد استخدام ذهني ودون أن أفهم حقيقةَ العالم المحيط بي؟ سوف أشعر أنني... مُعاقة!

– أنتِ لا تعرفين بعد حقّ المعرفة عالم البشر. إنّه أكثر إمتاعًا وأهمية ممّا تعتقدين.

– إذا كان هذا من أجل شنّ الحرب، أو الذهاب إلى العمل، أو المشي في اتّزانٍ على الطرفين الخلفيين أو النوم في الليل، لا أرى حقًّا مصلحة في ذلك.

حرّك قمّة أذنيه.

– الآن وقد أصبح المكان شاغرًا، سوف أجعلكِ تزورين كهفي وأكشف لكِ سرّي.

هرول أمامي نحو السلّم الأبيض. التقينا أمام الباب، الذي فتحه بحركةٍ خفيفة من خلال القفز على مقبضه. هناك، لم يكن المصباح السقفي يعمل، فتقدّمنا وسط الظلام، حيث وحدها الأشعّة المتسرّبة عبر كوّة تهوية القبو كانت مصدر الضوء.

ضاقت حدقتا عينيّ تمامًا لكي ألتقط أدقّ تفاصيل الغرفة. هنا، وبدل زجاجات النبيذ، والصحف والأثاث المنزلي المغبّر التي كنّا نجدها في كهفي، رأيتُ آلات معدنية، وأسلاكًا كهربائية، وأنابيب، وقوارير. كانت الغرفة مبرنقة باللون الأبيض ونظيفة جدًّا.

كانت الغرفة تشبه كثيرًا عيادة الطبيب البيطري الذي أخذتني ناتالي إليه ذات مرّة من أجل تعقيمي بمبيدٍ طارد للديدان والحشرات.

صعد فيثاغورس على الطاولة المصنوعة من مادة الستانلس المقاومة للصدأ.

قال:

– لقد ولدتُ في مزرعة لتربية القطط المخبرية. إنّها كائنات لم تُخلَق سوى لكي تُستخدَم في التجارب العلمية التي يجريها بشرٌ. لقد انتزعوني من والديّ حينما لم أكن سوى قطٍّ صغيرٍ ولِدَ حديثًا. أنا لا أعرف أبي ولا أمي. حينما كنتُ فتيًا، كنتُ أكثر جهلًا منكِ. لم أكن أعرف أنّ هناك عالمًا خارج القاعات البيضاء المضاءة بالضوء الساطع التي وضعوني فيها.

تنفسّ القطّ السيامي تنفسًا عميقًا وتنهّد، كما لو أنّه كان بحاجةٍ إلى شيءٍ من الشجاعة لكي يواجه ذكريات ذاك الماضي العصيب.

– كنتُ أعيش في قفصٍ ضيّقٍ، أُغذّى فيه في ساعةٍ محدّدة بحبيباتٍ، وأُسقى بالكثير من الماء من وعاءٍ شربٍ شفّاف. لم تكن هناك مداعباتٌ ولا لقاءاتٌ مع البشر أو مع قططٍ أخرى. لم تكن هناك لا محبّة ولا عواطف ولا مشاعر. بالنسبة إلى البشر الذين كانوا يعيشون هناك، لم أكن سوى شيءٍ جامدٍ. حتى أنّه لم يكن لي اسمٌ، وإنّما فقط لقب: «ق ت–683». والذي كان يعني «قطّ التجارب رقم 683». وأعتقد أنّهم لم يكونوا يعرفونني حتّى، لأنّ كلّ قطط المختبر كانت سيامية وتشبهني تمامًا. كنتُ أسمعها تموء من بعيد دون أن أستطيع رؤيتها أو لمسها. كنتُ أبقى طيلة النهار وحيدًا، في قفصي الصغير، في حالة انتظارٍ.

حاولتُ أن أتخيّل ما قد أشعر به إذا ما كنتُ في وضعٍ مماثل. سرت في جسدي رعشةٌ لا يمكن التحكّم بها.

– لم يكن الوضع عصيًّا على التحمّل لأنني لم أكن أمتلك عناصر المقارنة. الألم يأتي من الشعور بأنّه يمكن أن تكون لنا حياةٌ أفضل وأنّ عائقًا جائرًا يحرمنا من ذلك، وإلّا، يمكننا بالفعل أن نعتاد على كلّ شيء، أن نعتاد حتى على ما هو أسوأ. وإذ لم أكن أفهم ما الذي يحدث بالفعل، لم يكن يراودني الشعور بالظلم لأنّ هذا الأمر، بالنسبة إليّ، كان طبيعيًا. لم يكن العالم خارج قفصي موجودًا.

– يا لها من معاناة!

ظلّ فيثاغورس صامتًا لبرهةٍ ثمّ أردف:

– آه، كم هو مريحٌ الجهل! حتى أنني لم أرَ قطًّا ولا فأرةً، ولا طائرًا، ولا سحليةً، ولا حتى شجرةً. لم أشعر قطّ بالرياح أو المطر أو الثلج. لم أرَ لا الشمس ولا القمر ولا الغيوم. بل لم أكن أعلم إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا. كنتُ حبيسًا باستمرار في عالمٍ دافئ، أبيض، أملس، لم تكن له أيّ علاقة مع الطبيعة – كان عالم المختبرات. وعلى نحوٍ خاصّ، لم يكن هناك أيّ قرارٍ أتّخذه ولا أيّ خيارٍ أعتمده، وبالتالي لم يكن هناك أيّ خطرٍ في أن أخطئ أو أخدع نفسي. عندما تُنظّم حياتك من قبل الآخرين، لا تعود تحتاج إلى استخدام إرادتك الحرّة: وإذ لا تكون مسؤولًا عن أيّ شيء، تكون بخير على نحوٍ دائم. تكون خاضعًا ولكنّك في النهاية سعيد. ومع ذلك لم يدم هذا...

قفز إلى خزانة أعلى.

ذهبتُ لألحق به، ولكنني شعرتُ بدوخةٍ. انتبهتُ إلى أنّ ثلاث شعرات من شواربي كانت قد احترقت في الحريق. وهذا ما يفسّر إحساسي، منذ مشاجرتي مع توماس، بما يشبه فقدان التوازن والافتقار إلى المعلومات عن الخارج.

– سأصف لكِ التجربة الأولى التي أجراها البشر عليّ. وُضِعتُ في قفصٍ أكبر بمقدار مرّتين من القفص الذي كنتُ أعيشُ فيه حتى تلك اللحظة. مجرّد الانتقال إلى هذه المساحة الأوسع منحني شعورًا رائعًا. في وسط القفص، كان هناك ذراعٌ للتحكّم يعلوه مصباحٌ ضوئي. دوّى صوتُ رنينٍ، فأضاء المصباحُ بضوءٍ أحمر. كان يُصدر رنينًا ووميضًا. شعرتُ بأنّه يجب القيام بشيءٍ ما. فاقتربتُ من ذراع التحكّم، ووضعتُ كفّي الأماميين فوقه وضغطتُ عليه. وفي الحال سقطت قطعة من الطعام. شممتها وأكلتها، فوجدتها لذيذة. كانت قطعة طعامٍ من كبد الدجاج، أفضل من الطعام الذي يقدّمونه إليّ حتى ذلك اليوم.

توقّف فيثاغورس لبرهة، استعاد أنفاسه، ثم أكمل:

– انتظرتُ قليلًا، ومن جديد، رنّ رنينٌ وأضاء المصباح الأحمر. ضغطتُ من جديد على ذراع التحكّم وسقطت قطعةٌ أخرى من الطعام. تكرّرت هذه العملية خمس مرّات وبدا لي النظام بسيطًا. بيد أنّه، في لحظة ما، لم يعد الضغط

على ذراع التحكّم يؤدّي إلى إظهار قطعة من الطعام. دفعتُ بقوّة أكبر، وبسرعة أكثر، ولكن عبثًا، لم يخرج شيء. كان الأمر غير مفهومٍ ولا يُطاق. سمعتُ رنينًا من جديد، واشتعل الضوء الأحمر مرّة جديدة، ولكنّ ذراع التحكّم ظلّ لا يعمل. لقد أغاظني هذا الأمر كثيرًا. وبعد ذلك، دون أن أفهم لماذا...

– ماذا؟

–... بعد رنينٍ جديد وضغطٍ جديدٍ على ذراع التحكّم، ظهرت قطعة الطعام أخيرًا. ارتحتُ لذلك. وبالطبع، اعتقدتُ أنّ عطلًا كان قد حدث. ثم عاد هذا الجهاز إلى الاختلال في وظيفته على نحوٍ متقطّع. سعيتُ إلى أن أفهم لماذا يحدث هذا. كان ذلك يزعجني، وتساءلت: هل حينما كنتُ بعيدًا عن ذراع التحكّم عمل الجهاز بشكلٍ سليم؟ هل حينما كنتُ أضغط بقوّة؟ أم حينما كنتُ أضغطُ بكفّين في اللحظة نفسها؟ هل كان ذلك ينجح حينما كنتُ أموء عدّة مرّات قبل أن أتصرّف؟

– وماذا كان الحلّ؟

– في الواقع، كانت تلك تجربة علمية. كانوا قد كيّفوني. هذا يُدعى «ردّ فعل بافلوف»[1]: كان مجرّد سماع رنين المنبّه ورؤية الضوء يجعلان لعابي يسيل. ولكن ليس اللعاب هو ما كان يهمّهم، وإنّما قدرتي على تحمّل هذا الوضع الغريب.

– لو كنتُ في مكانك، لغضبتُ كثيرًا.

– لقد جُنّ جُنوني غضبًا! كنتُ أريد أن أفهم كيف يتم إخراج قطعة من الطعام في كلّ مرّة! حينما كانت القطعة تعصى على الخروج، كنتُ أقفز وأموء وأصرخ. كانت وجوهٌ بشرية تراقبني من خلف الشبك. كنتُ أتوسّل إليهم أن يُصلحوا الجهاز. لم أكن أشعر بالجوع، وإنّما كنتُ أريد فقط أن يعمل الجهاز بشكلٍ دائم، بشكلٍ منظّم.

1- يسمّى ردّ الفعل هذا أيضًا بالاستجابة الشرطية أو التعلم الشرطي وهي نظرية في التعلّم الترابطي وضعها الطبيب الروسي إيفان بافلوف، وتعني ردّ الفعل التكيفي للكائن تجاه منبّه خاص ويكتسب هذا التكيّف من خلال وضع الكائن مكررًا في الموقف نفسه. المترجم

- استمرّت هذه التجربة لمزيدٍ من الوقت وقد أفقدتني صوابي.
تنفّض القطّ السيامي أصبحت نظرته قاسية.
- كانت هناك قطط أخرى خضعت لنفس التجربة التي خضعتُ لها. وقد أُصيبَت كلّها بالجنون فعلًا، وإلى حدٍّ لا يمكن الرجوع عنه.
أطلق تنهيدةً مشوبة بالإحباط.
- لقد علمتُ فيما بعد أنني كنتُ القطّ الوحيد الذي أمتلك نفسية متينة بما فيه الكفاية لكي لا تتحطّم.
من جديد، ملّس شواربه.
- كانت مَنْ تقود التجربة كائنة بشرية ترتدي صدرية بيضاء ولها شعرٌ أبيض تفوح منه رائحة الورد.
- صوفي؟
- بعد تلك التجربة، اختارتني لإجراء تجارب واختبارات أخرى. أجريتُ تجارب على النوم حيث قاموا بتصويري وأنا نائم لكي يحلّلوا ما كان يحدث في دماغي. هل تعلمين أننا، نحن القطط، الحيوانات التي تنام وتحلم أكثر من كلّ مملكة الحيوان؟
- نعم، لقد سبق لك وأن أخبرتني بذلك. نحن ننام نصف النهار في حين أنّ البشر لا ينامون إلّا ثلث وقتهم.
لم يبدُ منزعجًا من إشارتي له بأنّه قد يحدث له أن يكرّر ما سبق وأن قاله.
- برأيي، إننا نستمدّ من هنا قوّتنا على الولوج السهل إلى العوالم غير المرئية.
حككتُ أعلى جمجمتي: وددتُ كثيرًا لو أنّه يروي لي كيف حصل له وتلقّى عينه الثالثة.
- أجرت صوفي عدّة تجارب عليّ، وفي كلّ مرّة كانت تكتشف أنني كنتُ الأكثر مقاومةً والأكثر براعةً. فقامت ذات يومٍ بإجراء عملية جراحية لي لكي تزرع لي العين الثالثة.
رفع القلنسوة البلاستيكية البنفسجية التي كانت تسدّ الثقب في جمجمته ومن جديد رأيتُ التجويف الصغير المستطيل ذا الحواف المعدنية.

– هذا يُسمى أيضًا «وصلة اتصال». إنّه مقبس ناقل تسلسلي عام (يو أس بي) موصول بأسلاك كهربائية رفيعة جدًّا بعدّة نقاط محدّدة من دماغي. وكانت تسمّيه «عين» في الواقع كناية عن «فتحة إلكترونية عبر تفاعلٍ خفيف». وبهذه الطريقة، استطاعت صوفي أن ترسل إلى رأسي بطريقة مباشرة أحاسيس أوّلية في البداية، ثمّ موسيقى، وبعد ذلك صورًا.

– مباشرةً إلى دماغك وذهنك بفضل هذه الآلة؟

– في البداية، لم تجرِ الأمور على ما يُرام، إذ كان يسبّب لي حالات صداع وتقيّؤ. ثمّ قامت صوفي بإجراء تعديلاتٍ على الإشارات، ونجحت في تحقيق المطابقة بين الصوت والصورة. أصبح الأمر أكثر سلاسة. وبعد ذلك، علّمتني كيف أفهم لغتها. وبهذه الطريقة، منحتني الوصول إلى تلقي المعلومات عن عالم البشر.

إذًا، هذا هو سرّ فيثاغورس! تفحّصتُ عن قربٍ أكثر مقبس الناقل التسلسلي العام (يو أس بي) خاصّته، وشممته ولعقته. ولكن لم يكن هناك أيّ طعمٍ للمعلومات حول البشر.

– لقد استغرق هذا الأمر سبع سنوات. سبع سنواتٍ من التجارب والأخطاء الأليمة بدرجاتٍ متفاوتة للوصول إلى إقامة قناة بثّ لمعارف البشر المماثلين حقًّا من خلال قطٍّ. منذ اليوم الذي نجحت فيه التجربة وسارت الأمور بشكلٍ جيّد، انتابني شعورٌ بأنّ بابًا قد فُتِح ويوجد خلفه ضوءٌ. استطعتُ أخيرًا أن أفهم عاداتهم، وأفكّ رموز حضارتهم.

لم يبدُ الأمر معقّدًا جدًّا في نهاية المطاف: يُحفَرُ ثقبٌ في الجمجمة، وتُركَّبُ أجهزةٌ مصنوعة من المعدن والبلاستيك، وتوصلُ أسلاكٌ كهربائية، وهل هذا يكفي لفهم «عالمهم»؟

– بعد استقبال أولى المعلومات الأساسية الضرورية من أجل الدخول إلى أسرار نظامهم، كان عليّ أن أتعلّم ربط الكلمات والصور والمفاهيم البشرية. كنتُ أخزّن كلّ شيء في الذاكرة بشراهة متّقدة جدًّا ولا سيما أنني كنتُ قد حُرِمتُ من كلّ شيء في السنوات السابقة. اهتممتُ بكلّ تفصيلٍ مهما صغر، وأردتُ أن أفهم كلّ شيء. جمعتُ وخزّنتُ دون صعوبة أسماء

الحيوانات الأخرى، وأسماء البلدان والأقاليم، والمفاهيم المجرّدة، وكلمات ومفردات من اللغات. وكان هذا هو الأكثر تعقيدًا: ربط العناصر المناسبة ببعضها. يمكنهم أن يُظهروا لك أيّ شيءٍ كان، إن لم تمتلك المفاتيح لمعرفة ما الذي ينبغي ربطه به، ويبقى هذا غير مفهومٍ.

– هل أمضيت سبع سنوات في فهم حضارتهم؟

هزّ فيثاغورس رأسه.

– وأكثر ما فاجأني وأذهلني هو عندما شرحتْ لي صوفي التجربة التي خضعتُ لها. كان فعل تلقّي قطعة طعامٍ من عدمه عندما كان الضوء الأحمر يومض والمنبّه يرنّ مرتبطًا في الواقع بنظامٍ احتماليّ عشوائي. كنتُ سأحفر من دون جدوى تلافيف دماغي طيلة حياتي، وما كنتُ لأصبح قادرًا على فهم النظام القائم على المصادفة. وقد فَقَدَ آخرون غيري عقلهم بسبب ذلك.

– نحن نريد دائمًا أن نعطي معنى لما يجري في حيواتنا. في حين أنّك كنتَ قادرًا على القبول بفكرة أنّ ما كان يجري في قفصك يتجاوز قدراتك! ولكن بالنسبة إلى البشر، ما هي مصلحتهم في أن يجعلوا القطط مجنونة؟

– شرحتْ صوفي لي كلّ شيء فيما بعد. كانت تلك تجربة على حالات الإدمان. كانت الغاية من هذه التجارب هي فهم الإحساس الودّي الذي يجمع الذكور والإناث من البشر. أثبتت دراستها أنّ هذا شكلٌ من أشكال الإدمان العاطفي.

– العلاقة الجنسية؟

– الانجذاب إلى بعض الشركاء الجنسيين الخاصّين. هذا يستهويهم. كيف يمكن لأنثى بشرية أن تجعل ذكرًا بشريًا مجنونًا بالحبّ؟

– من خلال بثّ الموجات الإيجابية؟

– كلا، من خلال منحه أو حرمانه من قطعة طعام بطريقة عشوائية تمامًا. ويُسمى هذا حينئذٍ «امرأة الشؤم». المكافأة وغياب المكافأة، الموزّعين بطريقة غير منطقية، يجعلان كلّ الذكور مدمنين تمامًا ومن المحتمل... مجانين.

لم أستطع أن أفهم.

– وهل يدرس البشر «تأثير إناث الشؤم» على الرجال المحبطين... من خلال تعذيب قططٍ؟

– كانت هذه التجربة العلمية قد أُجريت من أجل شرح مقالة في مجلة نسائية مختصّة بعلم النفس.

– بالنسبة إليّ، إذا ما منحني شريكٌ جنسي الحنان ومن ثمّ حرمني منه، أنتقل إلى شريكٍ آخر يمنحني الحنان بطريقة مؤكّدة ومنتظمة....

– لقد استنتجتُ من هذه التجربة أنّه لا ينبغي أبدًا لأحدنا أن يكون متعلّقًا بشخصٍ آخر لكي يكون سعيدًا.

بدوري قمتُ بحكّ أذني.

– وهل لهذا السبب لا تُريد أن تمارس الجنس معي؟ وتأكل القليل من الأطعمة ولا تدافع حتى عن وعاء طعامك ولا مسكنك؟

هزّ رأسه على طريقة البشر.

– مَنْ لا يملك شيئًا لا يكون لديه ما يخسره. لا أخاف إلّا من شيءٍ واحدٍ، وهو أن يستحوذ أيٌّ كان عليّ. ولذلك، أحرم نفسي من كلّ شيء وأعيشُ دون أن أتعلّق بأيّ شيء ولا بأيّ شخص.

فكّرتُ من جديد بفيليكس وأدركتُ حينها أنّ إدمانه على ممارسة الجنس هو الذي أفقده خصيتيه، وأنّ إدمانه على نعناع الهرّ الحقيقي المخدّر هو الذي أفقده ردود فعله الأوّلية.

– ما أن أصبحت عيني الثالثة نشطة تمامًا، «ربّتني» صوفي بالطريقة التي يربّي بها البشر أطفالهم. لقد قامت بتنظيم معارفي في قطاعات مختلفة، فتعلّمتُ التاريخ والجغرافيا والعلوم والسياسة. ثمّ ولكي تصقّل معارفي، قامت أيضًا بتحسين الجهاز وتطويره لكي أستطيع أن أواصل تعليمي باستمرار من دون مساعدتها. لقد أوصلت بطريقة مباشرة مقبس الناقل التسلسلي العام (يو أس بي) خاصّتي مع الإنترنت وعلّمتني كيف أقوم بالتصفّح على الشبكة العنكبوتية.

– هل ستخبرني أخيرًا، ما هو الإنترنت؟

ملّس شواربه.

– إنّه المكان الذي يضع فيه كلّ البشر صورهم، وموسيقاهم، وأفلامهم. الإنترنت هو نوعٌ من تلاقي كلّ ذاكرات الأدمغة في العالم. وحتى إذا مات البشر، تبقى معارفهم محفوظة على الإنترنت.

لم أفهم بالفعل هذا المفهوم، ولكنني هززتُ برأسي لكي يواصل حديثه.

– بهذه الطريقة، وبفضل عيني الثالثة، استطعتُ أن أتجوّل وحدي على الإنترنت بحثًا عن المعلومات التي تهمّني. لم أعد مرتبطًا بصوفي.

– وهل كنت تستطيع أن تُرسل وتتظاهَر بأنّك كائنٌ بشري على الإنترنت؟

– كلا، لأنني لم أكن أستطيع، بسبب عدم امتلاكي لأصابع، أن أكتب نصوصًا باستخدام لوحة المفاتيح. في مقابل ذلك، كنتُ أستطيع أن أُظهر الشاشة وأن أحرّك المؤشّر على سطحها مثلما كانت تبدو في ذهني. كنتُ أستطيع أن أنقر لكي أستعرض النصوص أو الصفحات. وبهذه الطريقة، كنتُ أستطيع أن أُطلق قراءة ملفات صوتية أو سمعية بصرية.

– إذًا، أنت تُجيد قراءة كلمات البشر، أليس كذلك؟

– أنا لا أُجيد القراءة مثلهم (إذ ليس بوسعي أن أقرأ كتابًا على سبيل المثال)، ولكنني أجيد التعرّف على أشكال الأحرف وبعض التركيبات التي تشكّل الكلمات. أستطيع أن أفسّرها وأفهمها.

– إذًا، أنت تستطيع تلقّي الصور والأصوات المتوافقة مع لغتهم، ولكنك لا تستطيع أن تُرسِل، هل هذا صحيح؟

– لديهم على أيّ حال من المعلومات التي يقدّمونها لنا أكثر مما لدينا منها لكي نعلّمهم!

بدا لي فيثاغورس في بعض اللحظات وكأنّه متناقضٌ مع نفسه. لديه الكثير جدًّا من المعرفة وفي الوقت نفسه ساذجٌ جدًّا.

– ولكن الآن أنت... لم تعد موصولًا إلى أيّ شيء. وصوفي ماتت. ماذا ستفعل لكي تتّصل من جديد بالإنترنت خاصّتك؟

– ولهذا السبب بالضبط رجوتكِ أن ترافقيني إلى هذا المكان. هل تتذكّرين أنّي اختفيتُ لمدة أسبوع من هذا المكان؟ كان ذلك من أجل تركيب

جهازٍ جديد. وهو عبارة عن وسيلة للحصول على الإنترنت بشكلٍ دائم دون الحاجة إلى أن أتّصل بالحاسوب الموجود في القبو. ستساعدينني في ذلك، يا باستيت. حسب رأيي، إنّ القوائم الأربع لقطٍّ قد تستطيع أن تُعادلَ يدًا بشرية واحدة.

وأراني ما كان ينتظره منّي من مساعدة.

شرح لي الفكرة:

– كانت صوفي تشكّ في أننا سوف نصل إلى وضعٍ كهذا الذي نحن فيه الآن، ولذلك صمّمت وطوّرت نظامًا متنقّلًا. ولكن حتى يمكن لهذا النظام أن يعمل، يجب قبل كلّ شيء أن تساعديني في أن أرتدي هذا الحزام الظهري وهذه الحقيبة الصغيرة وهذا الهاتف الذكي.

شرعنا بالعمل سويًّا ونحن نساعد بعضنا بمخالبنا وأسناننا. كان يجب أن نضع الحزام على ظهر فيثاغورس ونعدّله بشكلٍ صحيح ونشدّه عليه. ومن ثمّ نثبّت الهاتف الذكي داخل الحقيبة الصغيرة التي ربطناها بالحزام.

ومن ثمّ أرشدني إلى أن أُدخِل المقبس الرفيع الموجود في طرف السلك الأبيض في ثقبٍ محدّدٍ في الهاتف الذكي. هذا السلك نفسه كان منتهيًا بقابسٍ أكثر عرضًا، وهذا ما يسمّيه «وصلة يو أس بي». وأدركتُ أنّه ما كان ليستطيع أبدًا أن يوصل بمفرده جهازه المركّب على جمجمته.

ما أن أوصلتُ، بوساطة السلك، الهاتف الذكي بجمجمته، شرح لي كيف عليّ أن أتصرّف لتشغيل الجهاز. قبل كلّ شيء، تشغيل الهاتف الذكيّ. وللقيام بذلك، عليّ أن أضغط بطرف كفّي على زرٍّ دائري، ومن ثمّ تمرير كفّي من اليسار إلى اليمين على سهمٍ ظاهرٍ على الشاشة.

حسب توجيهاته، ضغطتُ بعد ذلك على مربّعٍ صغير ملوّن يُستخدم في فتح «تطبيق» حسب ما كان يسمّيه.

اتّخذ فيثاغورس وضعية الجلوس وأغمض عينيه.

أخبرني:

– أحسنتِ، أصبحت عيني الثالثة الآن مفتوحة على الإنترنت.

- ماذا ترى؟

- أرى كلمة لا تعني أيّ شيء. أعرف فقط أنّها تُلفَظ «جووجوول» في لغة البشر. ومن ثمّ ليس عليّ سوى أن أحرّك المؤشّر وأتصفّح.

رأيتُ عينيه تتحرّكان في ظلّ أجفانه، كما لو أنّه يحلم. يحلم «بالإنترنت». استغرق ذلك وقتًا طويلًا. مرّت إيماءات معبّرة جدًّا على وجهه، كما لو أنّه كان يعيش في بيئة مختلفة. بدا على نحوٍ متناوب مستاءً تارةً ومرتاحًا تارة أخرى.

أعلن بعد مرور وقتٍ طويل:

- لقد عرفتُ مكان أنجيلو. يشير جهازه الإرشادي إلى أنّه موجودٌ في غرب المدينة داخل غابة بولونيا. كما أنني اكتشفتُ مكان تواجد ناتالي. إنّها في شرق المدينة في غابة فانسن. إنّهما غابتان في خارج المدينة. يمكننا الذهاب إليهما سيرًا على الأقدام.

- ماذا يفعلان هناك؟

- هذا ما لا أعرفه، وبالمقابل لديّ خبرٌ سيئ أخبركِ به.

- الحرب؟

- بل ما هو أسوأ. السبب الذي من أجله هدأت الحرب، بل وقد توقّفت قبل قليل.

- بالفعل، لم نعد نسمع أبدًا أصوات الصرخات ولا دويّ الانفجارات، ولا حتى نرى بشرًا يتقاتلون.

- هذا طبيعي، إنّهم يخافون.

- ممّ يخافون؟

- من... الطاعون.

- ولكنّك قلت لي بأنّ هذا كان مرضًا قديمًا وقد اختفى!

- بفعل تكاثر الجرذان، تفشّى طاعونٌ متحوّر، يقاوم المضادات الحيوية. وتساهم الجرذان في انتشاره على نطاقٍ واسع. لا شيء يوقفها لأنّها تنتقل عبر أنفاق المترو والمجارير. العالم تحت الأرضي بأكمله تحت سيطرتها. إنّها تنشر الموت في أعقابها.

– وهذا الطاعون... هل يمكنه أن يُلحق الضرر بنا أيضًا، بنا نحن... القطط؟

– ليست لديّ أيّ فكرة عن ذلك. آخر العلماء البشريين الذين درسوا المشكلة لا يذكرون تأثيره على القطط. ولأنّهم لم يستطيعوا الكشف عن أعراض الطاعون في الوقت المناسب، ولأنّ الناس يسافرون بسرعة كبيرة بفضل الطائرات والقطارات، هناك الآلاف من الموتى في كلّ مكانٍ من العالم تقريبًا. في الوقت الذي يحاولون فيه تطبيق تدابير الحجر الصحي أو العزل في الحالات المؤكّدة، نقلت الجرذان العدوى إلى عددٍ كبيرٍ جدًّا من الأشخاص. إلى درجة أنّه لم يعد هناك أي مأوى. لقد تفشّى الطاعون في كلّ مكان، في كلّ المدن الكبيرة والمتوسّطة في الكوكب.

– ولكنني كنتُ أعتقد أنّ علماءَهم يجيدون معالجة كلّ...

– المشكلة هي أنّ أغلبية العلماء قد قُتِلوا من قبل المتديّنين.

– أيّ مصلحة للبشر في قتل العلماء، إذا كان هؤلاء هم الذين يجدون الحلول لشفاء أمراضهم؟

– منذ أن أدانت محاكم التفتيش عالم الفلك جيوردانو برونو مطلع القرن السابع عشر، انخرطت المجموعتان في منافسة شرسة لشرح معنى الحياة. وكانت الأفضلية تؤول غالبًا للمتديّنين، الذين كانوا أكثر عددًا ويستطيعون تعبئة جموع البشر. بطريقة أكثر شمولية، إنّ رجال الله لا يحبّون المعرفة. إنّهم يلقون بكلّ شيء على عاتق المشيئة الإلهية.

– إذًا يقتل البشرُ الأغبياء البشرَ الأذكياء؟

– إنّ الذين يدافعون عن الأنظمة البسيطة ذات النمط الاستبدادي الشمولي يلقون نجاحًا لدى الجموع أكثر من الذين يدافعون عن الأنظمة المعقّدة ذات النمط الديمقراطي. وغالبًا لأنّ خطابهم قائم على الخوف. الخوف من الطبيعة، الخوف من الموت، الخوف من إلهٍ متخيّلٍ خالدٍ.

– لقد رأيتُ أناسًا يحرقون كتبًا في الشارع قبل قليل.

– المتديّنون هم غالبًا ضدّ الفنّ والجنس والعلم. إنّهم يطرحون عالمًا لم يعد فيه الناس مسؤولين عن أفعالهم وليس عليهم سوى الطاعة حتى يكونوا في سلامٍ وأمان.

بدأتُ أضجر من كلّ هذه الحكايات المعقّدة عن البشر. إذا كان المتديّنون يريدون إدانة العلماء، فليفعلوا ذلك. كلّ ما أطلبه منهم هو أن يحترمونا، نحن القطط.

قلتُ له:

– لستُ متعبة، أريدُ أن أذهب لرؤية أنجيلو. لقد أخبرتني بأنّه يتواجد في غابة في الغرب. هيا لنذهب إليه.

في النهاية، مهما كنتُ أرى نفسي أمًّا سيئة، لم أكن منفصلة كثيرًا عن ذريّتي. وربّما يبدو هذا مثيرًا للدهشة، ولكن في تلك اللحظة، في حين كنّا في خضم الأزمة –ربّما بالضبط لأنني نجوت وأنا أعبر محنًا مرعبة (لقد تغلّبتُ على كائن بشري يزيدني حجمًا بخمسة أضعاف!)، ربّما لأنّه انتابني الفضول في الذهاب للقاء جاري والصبر في الإصغاء إلى تعاليمه–، شعرتُ أنني بخير. وأكثر من هذا: شعرتُ بأنني جاهزة، أنا، باستيت، في مستواي وبوسائلي، لمحاولة تغيير هذا العالم قليلًا لكي يسير في أفضل اتجاهٍ.

-18-

نحو الغرب

رفعتُ ذيلي إلى أعلى ما أمكنني.

وفعل فيثاغورس أيضًا الشيء نفسه.

سرنا مزهوين في المدينة المنارة بضياء القمر.

كلّما تقدّمنا أكثر، أصبح المكان من حولنا أكثر فوضوية. كانت الشوارع والطرق والأرصفة محطّمة بأغلبيتها، وأبنية بأكملها منهارة.

هل من المعقول أن يدمّر البشر مكان حياتهم باسم عملاقٍ لم يروه قط والذي من المفترض أنّه يراقبهم من السماء؟ هل هذا بدافع الشكّ في العلماء؟ هل هذا بدافع الغيرة منهم؟

تأثّر فيثاغورس بعدد المعلّقين على الأشجار. وكأنّها ثمار متطاولة مغطّاة بالغربان. لاحظتُ أنّ بعضهم كانوا لا يزالون يرتدون بلوزاتهم البيضاء، الأمر الذي يؤكّد نظرية المواجهة بين الدين والعلم.

في بعض الأماكن، كانت جثث البشر مكدّسة فوق بعضها في أكوامٍ. كانت تشكّل تلالًا صغيرة بالكاد يزيد ارتفاعها على ارتفاع أكوام القمامة. حين ابتعدنا أكثر بقليل، بين الجثث المتناثرة على الأرض، رأيتُ بعضها وقد تغطّت بفقاعات جلدية خضراء اللون.

أكّد رفيقي في الرحلة:

– إنّه الطاعون.

أحاطت بنا أسرابٌ من الذباب الطنّان. وراقبتنا الجرذان.

خرجت بعضها من بلاليع أو من فوهات مجاري الصرف الصحي، ووقفت على مسافة بعيدة عنّا، وكشّرت عن أنيابها في إشارة على التحدّي.

سألتُ فيثاغورس:

– هل تعرف الجرذان أنّها تنقل الموت إلى البشر؟

– إنّ نوعًا يعرف متى يدمّر نوعًا آخر.

– حسب رأيك، هل هذا مقصود؟

– أنا مقتنع بذلك. وأنا أخشى أنّ البشر لا يدركون حتى ذلك.

دعاني إلى أن أحثّ الخطى قبل أن تشرق الشمس.

حتى تلك اللحظة، كانت الرحلة الأطول مسافة لي هي تلك التي قادتني إلى ورشة البناء التي كانت ناتالي تعمل فيها. ومن خلال التنقّل عبر الأسطح، لم أكن قد تنقّلتُ في باريس سوى إلى تلك المنطقة التي يسمّيها فيثاغورس «هضبة مونمارتر».

هنا، وبالنزول نحو الغرب، وصلنا إلى مكانٍ دائري يسمّيه «ساحة كليشي». ينتصب في وسط الساحة تمثالٌ ضخم يمثّل أنثى بشرية تقف فوق أنقاضٍ إلى جانب رجلٍ يمسك في يده سلاحًا وآخر جريح.

وحول هذا النصب تمامًا، كان هناك بشرٌ جرحى وبشرٌ موتى وأنقاضٌ.

فجأةً، ظهرت شاحنة صغيرة في الساحة وتوقّفت عند التمثال. خرج منها بشرٌ يرتدون بزّات برتقالية اللون فلورية ويضعون كمّامات، جعلتهم يبدون وكأنّ لهم مناقير مسطّحة.

شرح القطّ السيامي:

– هذه بذلات محكمة الإغلاق، ويستخدمونها في الاحتماء من الطاعون.

ما كاد هؤلاء الأفراد أن يضعوا أقدامهم خارج مركبتهم، حتى أحاطت الجرذان بهم. طردوها من المكان بإطلاق الرصاص عليها من أسلحة رشّاشة. ثمّ شرعوا بتجميع جثث البشر المرمية في الساحة وكدّسوها فوق بعضها في كومة. ثمّ سكبوا بعض الوقود على الكومة، التي تحوّلت إلى جمرٍ.

أبديتُ ملاحظةً:

– في البداية، كانوا يحرقون الكتب، والآن يحرقون الجثث.

– هذه المرّة، هذا أمرٌ ضروري، من أجل كبح الطاعون.

جعلتني رؤية كلّ هذه الجثث المتفحّمة أن أتذكّر أنّ فيثاغورس كان قد تنبّأ بأنّ عصر البشر يشارف على نهايته، كما انتهى سابقًا عصر الديناصورات.

بدأ بعض الرجال ذوي البذلات البرتقالية الآن بالتلويح بأسلحةٍ تلفظ نارًا لكي يقتلوا الجرذان الأكثر جرأةً.

أوضح فيثاغورس:

– هذه قاذفات اللهب. تعالي، دعينا لا نتلكّأ هنا.

بلغنا سطح بناية مجاورة من خلال تسلّق جدار مغطّى باللبلاب.

بينما كنّا نتقدّم على صفائح التوتياء بين المداخن، أدركتُ أننا، نحن معشر القطط، كائنات الطبقة العليا، وأنّ البشر هم كائنات الطبقة السطحية، وأنّ الجرذان هي كائنات الطبقة السفلى.

وكما لو أنّه جاء يعترض عليّ، ظهر خفّاشٌ من المجهول وانقضّ عليّ.

لم أحظَ بالوقت الكافي لكي أحاول التحاور معه (*طاب نهارك، أيها الخفّاش*) إذ كان قد سعى إلى تعمية عينيّ بجناحيه وغرز أسنانه في رقبتي.

عندما أقولُ خفّاشٌ *واحدٌ*، عليّ بالأحرى أن أقول *عصابة* خفافيش، لأنّه كان هناك ما يُقارب عشرة خفافيش.

أسندنا، فيثاغورس وأنا، ظهرنا إلى مدخنةٍ واضطررنا عمليًا لأن نقف على قوائمنا الخلفية لكي نجابه غزوة الأجنة السوداء هذه التي كانت تصدر صرخات ثاقبة. نجحتُ في قتل أحدها، وأملتُ في أن يكون هذا كافيًا لردع الخفافيش الأخرى. ولكن لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل، فهذه الحيوانات كانت شرسة جدًّا وصرخاتها مزعجة للغاية بحيث فضّلنا أن نقاتل ونحن ننسحب بالدخول إلى داخل المبنى عبر نافذة مواربة. أبقيتُ في فمي الحيوانَ المقتول.

بعد ذلك، أصبح هناك حاجزٌ زجاجي بين المهاجمين علينا وبيننا.

في الداخل، كان رجلٌ ممدّدًا على سريره، مفتوح العينين والفم. كان مغطّى بنفس الفقاعات الجلدية الخضراء التي رأيتها سابقًا على بعض الجثث التي صادفناها في الطريق.

كانت الرائحة خانقة.

اقترح فيثاغورس أن نجد زاويةً لكي نتناول فيها فريستنا. فنزلنا إلى الطابق السفلي، وتقاسمنا الخفّاش بيننا. فأخذ هو الرأس وأنا أخذت القوائم، وأخذ كلّ منّا جناحًا من جناحيه. كان مذاقه يشبه بعض الشيء مذاق لحم الجرذ، لكنّ الأغشية التي كانت تشكّل جناحيه كانت من مادة شبيهة بالبلاستيك وتلتصق بالأسنان. وجدتُ نفسي أمضغُ لوقتٍ طويلٍ هذه المادّة الرقيقة والرخوة. خشيتُ أن أختنق بها.

ما أن شبعنا، اغتسلنا بلعابنا، ثمّ انطلقنا نكتشف ما تبقّى من المبنى، فاكتشفنا بذلك جثثًا أخرى ممدودة على الأرض. كانت جثثٌ منها لا تزال تتحرّك أو تئنّ.

تحدّث إليّ كائنٌ بشريّ ولكنني بالطبع لم أفهم أيّ جملة من الجمل التي تفوّه بها. من خلال حركة فهمه، استنتجتُ أنّه عَطِشٌ أو جائع. يا له من كائن بشريّ مسكين.

في غرفة مجاورة، وجدنا تلفزيونًا مفتوحًا، فتوقّفتُ لكي أشاهد مشاهد اليوم. شوهِدَ على الشاشة رجالٌ يرتدون صدريات بيضاء جرى إطلاق الرصاص عليهم من بنادق رجالٍ يرتدون زيًّا موحّدًا أخضر اللون.

– الأغبياءُ يقتلون الأذكياءَ؟

– في الصين، أثناء الثورة الثقافية، قضى الرئيس ماو على كلّ المثقّفين، وفيما بعد، قرّرت كمبوديا بأكملها أن تطلب من الأكثر أميّة أن يقتلوا الأكثر ثقافةً. وقد وسموا هذه المذبحة التي ارتكبوها باسم «الثورة»، حتى يظهر القضاء على النخب كشكلٍ من أشكال تحسين البيئة الحياتية. بشكلٍ عامّ، كان القادة الجدد أكثر فسادًا من الذين عُزِلوا، ولكنّ هذا الأمر أبهر الجميع لأنّه على الأقلّ كان هناك تغييرٌ. إلّا أنّ ذلك لم يكن سوى مكياجٍ فقط –

أنتِ تعرفين هذه المساحيق الملوّنة التي تضعها خادمتانا على خدودهما وشفاههما لكي تبدوان بخلاف ما هما عليه بالفعل.

– ألم تكن هناك أبدًا ثورة لها آثار مفيدة؟

– التي تحقّقت؟ كلا. بشكلٍ عامّ، بعد حماسة البدايات، تأتي مرحلة من الاضطراب والفوضى، وفي النهاية، تأتي دكتاتورية لتعيد النظام، فيطمئنّ الجميع.

– أمرٌ غريب...

– ولكنّه دوريّ ويتكرّر. بحسب ما أفهم، يتطوّر عالم البشر كالتالي: ثلاث خطوات من التقدّم إلى الأمام (وهي المرحلة التي يتطوّرون فيها كثيرًا على مختلف الصعد)، ثمّ تحدث أزمة (وغالبًا ما تكون حربًا)، وينهار كلّ شيء. فيتراجعون عندئذٍ خطوتين إلى الوراء. وبهذه الطريقة، عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية عام 476 بعد الميلاد تحت تأثير غزوات البرابرة، اضطرّوا لأن ينتظروا 1500 سنة لكي يشهدوا بروز عصر النهضة، وهي تسمية أحسنوا اختيارها لأنّهم بعد هذا الفاصل الزمني الذي امتدّ لألف عام، انطلقوا بالضبط من حيث توقّف الطبّ والتكنولوجيا وفنّ الرسم والنحت والعمارة والأدب.

– لقد أضاعوا ألف سنة؟

حككتُ خطمي، ثمّ طرحتُ السؤال الذي كان يؤرقني.

– هل من الممكن أن يموت البشر... جميعًا؟

– إنّ أوبئة الطاعون السابقة، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قتلت نصف سكان العالم. وفي كلّ مرّة، كانت موجةٌ من البرد توقِفُ الوباء.

– موجةُ بردٍ؟ هل الطقس هو الذي يستطيع إنقاذ البشر؟

– حتى ذلك التاريخ على أيّ حال، هكذا نجوا من الموت. ومن ثمّ في عام 1900، اكتشف كائنٌ بشريٌّ عالمٌ يُدعى ألكسندر يرسن أخيرًا سبب الوباء: «الانتقال عبر الجرذان وعبر البراغيث». وقد أتاح له هذا الاكتشاف أن يطوّر دواءً ناجعًا.

– ولكنك أخبرتني أنّه لم يكن هناك دواءٌ لهذا الطاعون، أليس كذلك؟

هزّ فيثاغورس رأسه.

– أريد أن أُظهِرَ لكِ إلى أين تصل العبقرية البشرية حينما تلقى التشجيع.

أغمض حينئذٍ عينيه، وتأمّل في تركيزٍ لبرهةٍ، ثمّ انبعث صوتٌ بشري من الهاتف الذكيّ المثبّت على ظهره.

– ما هذا الصوت أيضًا؟

– بفضل عيني الثالثة، ذهبتُ إلى الاتصال بالإنترنت، وهناك، فتحتُ ملفًّا موسيقيًا. هذه أغنية تؤدّيها كائنة بشرية لها صوتٌ مذهل. يسمّونها «كالاس». هي ماتت ولكنّ أغنيتها المسجّلة تواصل نقل إحساسها. هذه المقطوعة تُسمى «كاستا ديفا» وهي جزء من أوبرا نورما دي فينشينسو بيليني.

انبعثت الموسيقى على نحو أكثر وضوحًا من مكبّرات الصوت الصغيرة المدمجة في هاتفه الذكي. في البداية، اندهشتُ لهذه الأصوات التي كانت تشبه المواء تقريبًا. ثمّ ارتجّت واهتزّت وانتشرت. اقتربتُ من الهاتف الذكي ورأيتُ على الشاشة صورة بالأسود والأبيض لوجه كائنة بشرية لها أنفٌ طويل وهي تغنّي.

يا لها من رائعة.

أدركتُ فجأةً لماذا يريد فيثاغورس أن نحافظ على مكتسبات الحضارة البشرية. تصاعد صوت كالاس هذه على نحوٍ أكثر ارتفاعًا في نغماتٍ عالية، في حين بدأت فرقةٌ موسيقية مكوّنة من بشرٍ مغنين آخرين بغناء الكورَس.

لقد أحدثت هذه الموسيقى شيئًا غريبًا في جسدي. كان أشبه بخرخرةٍ تامّة تمنحني الطاقة.

قال فيثاغورس:

– الآن أصبحتِ تعرفين ما الذي يعجبني لديهم.

انقبض قلبي لفكرة أن كلّ هذا معرّضٌ لخطر الزوال.

علّق قائلًا:

– هكذا اكتشف البشر أهمية الفنّ. لا جدوى من هذا في شيء. لا في

تناول الطعام، ولا في النوم، ولا في احتلال الأراضي. الفنّ نشاطٌ عديم الفائدة ومع ذلك هو قوّتهم. أما الديناصورات، فلم تترك خلفها آثارًا فنّية.

انسابت الموسيقى، مذهلةً، خلال مدّة طويلة من الزمن، ثمّ توقّفت.

– في أحد الأيام، إذا أردنا أن نتساوى معهم، سوف ينبغي أن تموء قطّة بنفس روعة كالاس في لحنٍ جميلٍ مثل لحن «كاستا ديفا» من أوبرا بيليني.

توجّه فيثاغورس نحو قطعة أثاثٍ غريبة في زاوية من الغرفة. أشار عليّ أن أضع كفّي مثله، لكي أساعده في رفع الغطاء.

فانكشف حينئذٍ صفٌّ من حوالي مئة من الأزرار البيضاء والسوداء التي أخذ القطّ السيامي يمشي فوقها. وفي كلّ خطوة من خطواته انبعث صوتٌ مختلفٌ في الهواء. وقد ذكّرني هذا بالمشهد الذي كنتُ قد شاهدته في فيلم الرسوم المتحرّكة *قططٌ أرستقراطية* (قطط على شاشة تلفزيون صوفي).

شيئًا فشيئًا حلّ نشازٌ صوتي محلّ موسيقى بدت لي متناغمة. فبدأ فيثاغورس يموء على نفس الإيقاع الذي كان الأثاث الغريب يصدره.

سألته:

– ما هذا؟

– هذا يُسمى «بيانو». تعالي إلى فوق لوحة المفاتيح، يا باستيت.

في حين كان يدوس على يسار تلك الآلة ويصدر أصواتًا خفيضة، بدأتُ أقفز على الطرف الآخر وأصدر أصواتًا حادّة. وانتبهت إلى أنني أستطيع الحصول على لحنٍ من خلال تكرار دعسات الأقدام نفسها على الأزرار نفسها.

ماء القطّ السيامي، ومُؤْتُ أيضًا.

أخذ يعزف ويغنّي بالأصوات الخفيضة، وأنا أعزف وأغني بالأصوات الحادّة.

لم يأتِ أحدٌ لإزعاجنا. على الأرجح، تردّد صوت معزوفتنا في الشارع، فوق الجرذان والقمامة وأطلال مدينتها الجريحة. كانت لحظة من السعادة في عصر الفوضى هذا.

عزفنا وغنّينا لوقتٍ طويلٍ، ونعمنا بالطمأنينة، ثمّ نال منّا التعب وذهبنا نتمدّد على سريرٍ بشري.

حلمتُ أنّ كالاس تداعب رقبتي وبطني. أحسستُ أنني في غاية الانسجام، وقلتُ في نفسي، حالمةً: «على المرء أن يُمتّع جسده ويُريحه كي ترغب روحه في البقاء فيه».

-19-

تحت الأغصان

لا أدري إن كان ذلك بتأثير حرب البشر أم بسبب الخوف من الجرذان ومن الطاعون، أم من جرّاء رحلتي البعيدة جدًّا عن منزلي برفقة فيثاغورس، أم بسبب الإصغاء إلى كالاس، أم من جراء التهام لحم الخفّاش، ولكنني حينما استيقظت شعرتُ أنّ كرةً من الحجر البلوري في رأسي. فكّرتُ من جديد بولدي أنجيلو. اشتقتُ إليه.

قال فيثاغورس، وهو جامدٌ في مكانه بلا حراك، في وضعية تأمّلٍ، مغمض العينين:

– لا يمكننا أن نمكث هنا.

عرفتُ أنّه بهذه الطريقة موصولٌ إلى إنترنت البشر وأنّه هنا، وهو يروي وعيه بمنهل المعرفة هذا، يتعلّم بفضل عينه الثالثة.

– علينا أن نذهب إلى جادة كورسيل لكي نصعد حتى نصل إلى ساحة النجمة، ومن ثمّ سيكون كافيًا أن نسلك جادة فوش وحينها سوف نستطيع الوصول إلى غابة بولونيا.

اخترنا، اليوم، السير على الأرض لكي نتجنّب هجمات الخفافيش.

هرولنا جنبًا إلى جنب في المدينة المهجورة.

على يسارنا، دُهشتُ لرؤية منطقة نباتية تتعاقب فيها بقعٌ مفروشة بالعشب الاصطناعي وأخرى مزروعة بالبساتين. قال لي فيثاغورس إنّ هذه حديقة مونسو.

توقّفنا في استراحةٍ قصيرة لكي نلعق بعض الماء البارد في حوضٍ. حككنا، فيثاغورس وأنا، أنفينا ببعضهما ولعقنا بعضنا. بعد كلّ الذي عشناه خلال الأوقات المنصرمة، كانت هذه اللحظة من التفاهم التام ومن الحنان المتبادل بمثابة شعاع شمسٍ حقيقي.

انطلقنا من جديد.

وإذ لم نلمح من بعيد أيّ كائنٍ بشري، ولا أيّ جرذ، استفدنا من ذلك لكي نهرول في الشارع. كم أحببتُ الركض، وأحسستُ بأقدامي التي تدوس على الأرض، في حين كان عمودي الفقري يتماوج، وأشعر أنني أحافظُ على توازني بفضل ذيلي! ألصقت الريح شواربي على وجنتيّ وصفّرت في أذنيّ، وهي تدفعهما إلى الوراء.

أخبرني فيثاغورس بأننا قد وصلنا إلى ميدان دي تيرن وأننا سنسلك جادة فاغرام التي تؤدّي إلى ساحة النجمة.

لم أعر انتباهًا حتى للعديد من الأجساد البشرية المنتفخة أو الجريحة الجاثمة على الإسفلت.

فكّرتُ من جديد بخادمتي ناتالي وتمنّيتُ لو أنّها تستطيع الإفلات من هذه المخاطر في غابتها الواقعة في الشرق.

أسرعنا الخطى لأنّ الجرذان تجمّعت على نحوٍ خطيرٍ من حولنا. سلكنا جادة فوش، وهي المرحلة الأخيرة من رحلتنا قبل أن نصل إلى غابة بولونيا.

بدأ ضبابٌ ينتشر في المدينة. وانخفض مدى الرؤية لدينا شيئًا فشيئًا. وعلى نحوٍ مفاجئ، ظهر رهطٌ من الكلاب من بين أبخرة الضباب.

توقّفنا في الحال، وتوقّفت الكلاب أيضًا.

نظرنا إلى بعضنا بازدراء.

كان الرهط يتكوّن بشكلٍ خاصّ من كلبٍ أبيض صغير الحجم شعره مشذّبٌ على قوائمه وخطمه، ومن كلبٍ أسود في رقبته طوقٌ فيه ألماس، ومن كلبٍ بنيّ ذي قوائم قصيرة وله خطمٌ نافرٌ وحادّ، ومن كلبٍ كبيرٍ، شعره بلون الصوف، ومن كلبٍ أكبر حجمًا وحليق الشعر باللونين الأسود

والأبيض، وله ذيلٌ منتصب، وآخر يشبه الكلب الذي أخاف فيثاغورس كثيرًا حينما كان على الشجرة. كانت الكلاب جميعها متّسخة وجريحة وشعرها أشعث، يعرج بعضها ويسيل لعاب أخرى. ما كان منذرًا بالشر هو أنّ كلّها كانت تهزّ ذيولها، الأمر الذي دلّ على أنّ الوضع كان مبهجًا لها.

ورغم كلّ شيء، جربّتُ مقاربةً، وأرسلتُ فكرةً:

صباح الخير... أيتها الكلاب...

في المقابل، حظينا بالكثير من النباح غير الودّي. ثمّ انقضّت على نحوٍ مباغتٍ نحونا وهي ترسل موجة عدائية بوضوحٍ لا لبس فيه. فهربنا وسط الضباب.

اندفع الرهط نحونا وراح يُطاردنا. لم يساعد انعدام الرؤية في شيء. ومن خلال صوت نباحها، أدركنا أنّها سوف تُمسك بنا سريعًا. أنقذنا عمودُ إنارةٍ في الشارع، ولكنّه لم يكن موصولًا إلى نقاطٍ أخرى بنفس ارتفاعه. فليكن، لم يعد أمامنا خيارٌ، وكان علينا أوّلًا أن نؤمّن النجاة الآني من الهجوم.

سمحت لنا مخالبنا بالصعود إلى البرج المعدني. والتصقنا ببعضنا على الحافة الضيّقة للجزء العلوي من العمود، دون أن نعثر بالفعل على مرتكزٍ متينٍ نرتاح عليه. كانت أكفّنا ذات الوسائد تنزلق وكان علينا باستمرار أن نعدّل من وضعيتنا لكي نستعيد نقطة توازننا المطلوبة بالنسبة إلى مركز الجاذبية خاصّتنا. ولحسن حظّنا، ساعدنا ذيلنا في الحفاظ على توازننا.

في الأسفل منّا، نبحت الكلاب وحاولت أن تتسلّق لكي تمسك بنا، لكنّ أكفّها ذات الأظافر التي لا تتراجع انزلقت على المعدن.

وإذ أدرك الكلب الأضخم حجمًا أنّه لن يستطيع الصعود، استخدم جمجمته كمطرقة لكي يضرب بها قاعدة العمود العالي الذي نعتليه. أصبحت الضربات الصادمة أكثر قوّة على نحوٍ متصاعد. ووسط الفرحة الكبيرة للكلاب الأخرى، أفقدتنا الضربات توازننا. تضاعف النباح العدواني.

كم من الوقت سوف يمكننا الصمود هنا؟

أليس لديها ما تأكله غير قطّين متسكّعين؟

وددتُ أن أقول لها بأن تهاجم بدل ذلك الجرذان، الأكثر عددًا بكثير. مرّة أخرى، أدركتُ ضرورة إجراء حوارٍ بين الأجناس. ووسط الشكّ، حاولتُ أن أبعث الفكرة بقوّة شديدة:

صباح الخير، أيّتها الكلاب نحن لا نريد أن نزعجكم دعونا وشأننا.

لكن بدا أنّ خرخرتي قد أثارت هياجهم أكثر من ذي قبل وخاصّة الكلب البني الضخم، الذي أطلق نباحًا صاخبًا.

أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أدركتُ أنّه إذا ما متنا، نحن الاثنين، الآن، فإنّ إمكانية تثقيف القطط الأخرى بالمعارف البشرية هي التي ستتلاشى.

مؤتُ لرفيقي بنبرة فيها شيءٌ من السخرية، وسألته:

– هل لا تزال تعتقد أنّ كلّ ما يحدث لنا هو خيرٌ لنا؟

أجابني:

– نعم.

– هل لا تزال تعتقد أننا نستفيد من أعدائنا والعقبات التي تعترض سبيلنا في التحقّق من مقدرتنا على المقاومة والكفاح؟

– نعم.

– وماذا لو متنا الآن، هنا؟

– سوف يعني هذا أنّ لدى أرواحنا تجارب أخرى ينبغي لها أن تخوضها في أغلفة جسدية أخرى. سوف نُستنسَخُ في هيئة أخرى.

– وسوف نفقد ذاكرة هذه الحياة؟

لم يُجب على سؤالي.

– بالنسبة إليّ، لا أرغب في أن أنساك.

اعترف لي:

– ولا أنا أيضًا.

ابتلعتُ ريقي ثمّ سألت:

– هل يمكن أن نمنح لبعضنا علامة للتعارف كي نستطيع أن نلتقي في الحياة المقبلة؟

- هذا يتطلّب أيضًا أن نكون حيوانات متماثلة، ونعيش في حيّ قريب.

صرختُ مبتهجةً:

- موسيقى كالاس! حينما نسمعها سوف نتذكّر في الحال أننا كنّا قد أصغينا إليها في حياتنا السابقة وأنّ ذلك أمتعنا وجعلنا ننفعل.

لم يبدُ أنّ الكلاب قد تعبت من النباح علينا وهي تقف تحتنا. من أين تستمدّ طاقتها؟ هل تأكل خفافيش هي الأخرى؟ وبدا لي الجواب فجأةً واضحًا ومؤكّدًا. إنّها تأكل لحم بعضها. إنّها من آكلي لحم بني جنسها.

سألتُ القطّ السيامي:

- لماذا الكلاب هكذا؟

- لأنّ الكلاب اختارت أن تتشبّع بذهنية سيّدها البشري. إنّ الكلاب التي لها سادة عنيفون تكون عنيفة أيضًا. أمّا الكلاب التي لديها سادة لطفاء وسلميون، تكون هي أيضًا كذلك. وهي بطريقتها هذه، ليست مسؤولة عن طبيعتها.

- في حين أننا، نحن، مسؤولون عن طبيعتنا، لأننا نحن نختار طبعنا، أليس كذلك؟

- لا بدّ أنّه كان لهذه الكلاب التي تقف تحتنا سادة بشريون قساة بالفعل.

أصبحتُ أجد صعوبة متزايدة في الحفاظ على توازني. وبدأتُ أقبل بفكرة أنّ كلّ طموحاتي يمكن لها أن تنطفئ هنا.

ما الذي قد يسعدني بالفعل في هذه اللحظة؟ أن أبقى على قيد الحياة.

فجأةً، توقّف النباح.

لكن الصمت الذي تلا ذلك ترك لديّ إحساسًا أكثر إثارة للقلق.

أدارت الكلاب كلّها رأسها نحو الاتجاه نفسه، وبدت بأغلبيتها مخدّرة أمام ما ظهر لهم. ظهرت كلابٌ أخرى، أكثر شراسةً وعدوانيةً، وقد نصّبت آذانها في حالة قتال، وراحت تزمجر وتكشّر عن أنيابها.

وببطء ـ وكما لو أنّ ذلك في حلم، ظهر من بين الضباب قطّ... قطٌّ ضخم. لم يسبق لي قط أن رأيتُ قطًّا بهذه الضخامة وبهذا الطول.

أطلق الحيوان زئيرًا وحشيًا. أحسستُ بصداه يهتزّ حتى داخل قفصي الصدري.

لم أصدّق عينيّ، ولا شواربي، ولا أذنيّ. تقدّم نحونا.

كان جميلًا، وقويًا، وذهبي اللون.

تبوّلت بعض الكلاب خوفًا أو وضعت أذيالها بين قوائمها لكي تحمي أعضاءها الجنسية.

فيثاغورس هو الآخر تأثّر بظهور هذا القطّ العملاق.

تنهّد قائلًا:

– لم يسبق لي قطّ أنّ رأيتُ مثله عن كثب.

– ما هذا؟

– إنّه أسدٌ. فصيلة السنّوريات التي اختارت الحجم الأكبر. إنّه أحد «أسلافنا الموازيين» نوعًا ما.

بقينا مذهولين نحبس أنفاسنا.

– لقد رأيتُ على الإنترنت خبرًا يشير إلى اختفاء أسدٍ من سيرك حديقة بولونيا، والذي فرّ بعد أن حطّم قفصه أثناء اضطراباتٍ، ولكنني لم أكن أتصوّر بأنّه قد ظلّ في هذه المنطقة.

– ما هو السيرك؟

– إنّه مكانٌ يعرض فيه البشر حيوانات قاموا بتدريبها لكي يجعلوها تقفز من حلقات يشتعل محيطها بألسنة من النار. حتى أنني أتذكّر أنّ اسم هذا الأسد هو هانيبال.

– هانيبال؟ اسمٌ جميل.

– إنّه يعود إلى اسم كائنٍ بشري كان محرّرًا كبيرًا للشعوب خلال العصور القديمة.

تُرى هل سيكون «محررنا»؟

وبعد أن تردّد الرهط في اختيار السلوك الذي يجب اتّباعه، قرّر أن يتّخذ موقعه ويواجه هذا الخصم. تصاعد زئيرٌ جديد.

معتمدة على تفوّقها العددي، بدأت الكلاب بالنباح وبمحاصرة الأسد.

تردّدتُ في استغلال هذا الإلهاء وفكّرتُ في القفز من عمود المصباح الضوئي، لكنّ فيثاغورس أشار عليّ بأن أنتظر.

وشاهدتُ حينئذٍ مشهدًا لا يُصدّق. في حركة متزامنة، ارتمت الكلاب على الحيوان. عشرون كلبًا ضدّ أسدٍ. ولكن ظهر أنّ هذا الأسد خصمٌ مرعب.

كانت معركة هذا القطّ العملاق ضدّ رهط الكلاب الشرسة معركة استثنائية. وجّه الحيوان ضرباتٍ بقوّة غاشمة لا مثيل لها. انتصب على قائمتيه الخلفيتين، وهزّ شعر عرفه الكثيف، وظلّ منتصبًا على نحوٍ عمودي، واقفًا مثل كائنٍ بشري.

في كلّ ضربةٍ من كفّه، مزّقت مخالبه جلد عددٍ من الكلاب. والكلاب التي لم تتمزّق جلودها تعرّضت لعضّات من أنيابه الهائلة.

نزل الأسد على أطرافه وأطلق زئيرًا جديدًا، كما لو كان يركّز قوّته ليوزّعها على نحوٍ أفضل.

بعد أقل من دقيقتين على بدء المعركة، كان المهاجمون قد سقطوا جميعًا على الأرض. وحدها الكلاب الأصغر حجمًا والتي لم تشارك في المعركة، فرّت من المكان.

ملّس فيثاغورس شواربه.

قال في ختام هذا المشهد المذهل:

– هكذا هو الأسد.

من جهتي، لم أعد أجرؤ على النزول. فهذا الحيوان يخيفني.

– هيّا لنذهب إليه.

سألت:

– ونحن، ألا نتعرّض لأيّ خطر؟

– لا أدري. لا أمتلك جوابًا على كلّ سؤال. الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك هي أن نذهب إلى هناك.

غادر القطّ السيامي مكاننا العالي لكي يقفز إلى الأرض. بعد لحظةٍ من التردّد، لحقتُ به.

لم يعرنا الأسد انتباهًا حتى. فقد كان مشغولًا جدًا بتناول لحم الكلاب، التي كانت عظامها تُسحق تحت فكّيه مصدرة صوتًا صاخبًا.

قال لي فيثاغورس وهو يراقب الحيوان بإعجابٍ:

– أعتقد، يا باستيت، أنّ هذه هي اللحظة المناسبة لكي تُظهري مواهبكِ في مجال التواصل في صيغة الإرسال أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

– أتقترح عليّ أن أتواصل مع أسدٍ؟

– إنّ الأسد هو رغم كلّ شيء الحيوان الأقرب إلينا أكثر من أيّ حيوانٍ آخر. إنّه بشكلٍ ما ابن عمّنا في قرابة بعيدة. حاولي.

تكوّرتُ على نفسي وركّزتُ تفكيري. بدأتُ أخرخر، وأنا أرفع صوتي أقوى على نحوٍ تدريجي.

رأيتُ أذني الحيوان اللتين توجّهتا نحوي ولكنّه ظلّ يتناول طعامه بهدوء.

تحطّمت جمجمة كلبٍ تحت أضراسه مصدرةً طقطقةً، كما لو أنّ حبّة جوزٍ تتهشّم.

خرخرتُ من جيد.

طاب نهارك، أيها الأسد. أرغب في التواصل معك، هل هذا ممكن؟

استدارت أذناه من جديد باتجاهي وقَبِلَ أخيرًا أن يعيرني انتباهًا. كانت عيناه الصفراوان مستديرتين تمامًا. أطلق زئيرًا ضعيفًا.

أهي صيغة جوابٍ؟ أشار عليّ فيثاغورس أن أستمرّ.

كرّرتُ رسالتي عدّة مرّات، وأنا أذكّر نفسي بأنّه، من الناحية العملية، أحد أفراد العائلة، ولذلك موّتُ بطريقةٍ مباشرة.

– مرحبًا، يا هانيبال.

تجمّد في مكانه، وهو ينظر إليّ لوقتٍ أطول بقليل من النظرة السابقة، ثمّ اختار الكلب الأصغر الذي كان في متناوله، وهو حيوانٌ بالكاد كان قد مُضِغَ، وألقى به إليّ.

لا بدّ أنّه اعتقد أنني أتسوّل منه طعامًا.

– شكرًا.

عضضتُ الهديّة (لكن بوجود الخفّاش في بطني، كنتُ شَبِعة).

ألحّ عليّ فيثاغورس:

– حاولي مرّة أخرى. يجب أن تنجحي في ذلك.

شكرًا، يا هانيبال، لأنّك أنقذتنا.

حاولتُ أن أتحدّث بصوتي الأكثر خشونةً، وكنتُ متأكّدة من أنّه يفهمني، ومع ذلك واصل تناول طعامه مصدرًا صخبًا دون أن يلتفت إليّ.

وفي تلك اللحظة، ظهرت قرابة عشرين قطًّا وقطّة أليفة، خرجت من بين الأنقاض.

نظرت إلينا القطط واقتربت منّا، ثمّ أسرعت الخطى لكي تقضم بقايا الكلاب التي تركها الأسد. تجشّأ الأسد بازدراء أمام هؤلاء الرعاع من أبناء عمومته المساكين، وأدار ظهره، ثمّ انصرف مثلما ظهر، غارقًا وسط الضباب.

أشار فيثاغورس:

– هذا يؤكّد ما كنتُ أفكّر فيه، فكثيرون من جماعتنا جاؤوا يلوذون بهذا المكان.

– وماذا عن أنجيلو؟

– سوف أراجع الإنترنت لكي أرى على الخارطة من أين تأتي بالضبط إشارة جهازه لتحديد المواقع يو أس بي.

أغمض عينيه واستغرق في التفكير. رأيتُ أنّ شاشة الهاتف الذكي المنصوب على ظهره قد أضاءت وأظهرت خطوطًا ومناطق ملوّنة. لا بدّ أنّ هذا هو ما يُسمى «خارطة». ومضت بقعة حمراء. أدركتُ أنّ شاشة الهاتف الذكي تُظهر لي ما يراه. المشكلة الوحيدة هي أنني لا أعرف تفسير هذه الصور.

صرّح فيثاغورس وهو يفتح عينيه:

– إنّه ليس بعيدًا، اتبعيني.

تجاوزنا القطط الجائعة ودخلنا إلى غابة بولونيا نفسها. في اللحظة نفسها التي دخلنا فيها إلى هذه الأرض الجديدة، ارتفع الضباب وكشفت أشعة الشمس المتسرّبة عبر أوراق الأشجار عن بعض الحيوانات من جنسنا وهي

غافية بين الأشجار. كانت أغلبيتها ترقد عابسةً على الأغصان المنخفضة، وقوائمها متدلية في الفراغ.

تنهّد رفيقي:

- أعتقد أنني فهمت سبب وجودها هنا. الغابة هي أحد الأماكن النادرة التي لا توجد فيها فتحة مجارير، ولا بالوعة ولا مخرج مترو الأنفاق.

وكلّما تقدّمنا أكثر، اكتشفنا ليس العشرات، بل المئات من القطط المنتشرة بين الأشجار.

داعبت رائحة فطرٍ ولحاء الأشجار والأرض المبلّلة منخاريّ. عشقتُ هذا المكان. بدا لي وكأنّ خلاياي تذكّرني بأنّ أسلافي قد عاشوا باستمرار في مناطق مماثلة لهذه المنطقة. بعثت الغابة موجات بدت لذهني مثل سحب طاقة حيوية حائمة ؛ وفي كلّ مكانٍ، هنا، عبّرت قوّة الطبيعة عن نفسها. أغمضتُ للحظةٍ عينيّ وأحسستُ أنّ كلّ شيء يشعّ. في الأرض، رأيتُ الديدان والنمل والحلزون، وفي الجوّ، رأيتُ الفراشات والبعوض والعصافير. بدت لي الأشجار عملاقةً ذات أذرعٍ طويلةٍ تدعوني إلى تسلّقها. جعل تيارٌ من الهواء الأغصانَ ترقص والأوراقَ تحفّ حفيفًا.

صباح الخير، أيتها الأشجار.

توقّفتُ، وحككتُ مخالبي بلحاء الأشجار الأقرب إليّ.

صباح الخير، يا شجرة القيقب.

جرّبتُ مع لحاء شجرة أخرى، ثمّ لحاء شجرة ثالثة.

صباح الخير، يا شجرة الدردار. صباح الخير، يا شجرة البتولا .

خمشتها كلّها، لكنّ اللحاء الأكثر متعةً تحت مخالبي، كان لحاء شجرة البتولا لأنّ قشرتها النباتية كانت رقيقة، وسهلة على الاقتلاع.

وجدتُ زهرة أقحوانٍ بين العشب وعضضتها.

صباح الخير، أيتها الزهرة.

ولكن رأسها سقط على الأرض وسالت عصارة بيضاء. لا بدّ أنّ هذا كان جوابًا على تحيّتي. إليكم هذه المعلومة المهمّة: النباتات تتكلّم بلغة سائلة.

لعقتُ النسغ الأبيض ولكنني وجدتُ مذاقه مرًّا، فلفظته من فمي.

أنا آسفة، يا زهرة الأقحوان، أنا لا أفهمك.

عدتُ إلى فيثاغورس الذي تقدّم باتجاه مجموعة من الأفراد النائمين.

في وسطهم، ميّزتُ صغيري البرتقالي.

كان أنجيلو يرضع من ثدي قطّة سوداء ذات عينين صفراوين.

ناديته، ولكن حينما رآني أطلق مواءً خفيفًا باستخفافٍ، وراح يعانق تلك القطّة الغريبة. كيف أمكن لي أن أفشل في التواصل إلى درجة أنّ طفلي يفضّل هذه القطّة المجهولة على أمّه؟ خرخرتُ، ولكنّه قابل ذلك بزمجرة احتقار.

قلتُ في نفسي إنّ ناتالي لم تختر أفضل صغاري وتُبقي عليه.

– صباح الخير سيّدتي، أنا أمّ هذا القطّ الصغير.

– آه، ممتاز، لقد استقبلته لأنّه كان جائعًا.

دفعت القطّة السوداء أنجيلو باتجاهي.

ولكنّه ماء مواءً يعبّر عن استيائه. وضعتُ ثديي بالقرب من خطمه، وبعد أن تعرّف أخيرًا على الرائحة المألوفة، قرّر أن يهتمّ بثديي. وقد أراحني ذلك في الحال، لأنّ أثدائي كانت محتقنة جدًّا بالحليب.

سأل فيثاغورس:

– منْ هي القطط الحاضرة في هذه الغابة؟

أجابت القطّة السوداء:

– الأغلبية من القطط التي فقدت خدمها من البشر. وبالتالي، وبعد أن تسكّعت في المدينة وأدركت أنّها محفوفة بالخطر، تجمّعت في هذه المنطقة من الغابة التي بدت لها أكثر أمانًا.

– أنا اسمي فيثاغورس، وهذه باستيت.

– سعيدة بلقائكما، أنا اسمي اسميرالدا.

– كيف وصلتِ إلى هنا، يا اسميرالدا؟

– كانت خادمتي مغنّية. وكنتُ أحبّ كثيرًا أن أموء معها. حينما بدأت أعمال العنف تصيب بيتي، أرادت خادمتي أن تفرّ بالسيارة وأن تأخذنا، أنا وصغيري، معها، ولكن تمّ اعتراضنا من قبل بشرٍ مسلّحين وعدوانيين. كانوا يرتدون ثيابًا خضراء ولهم لحى طويلة. قُتِلت خادمتي وكذلك قُتِلَ صغيري،

أما أنا فنجوت. تشرّدتُ في شوارع المدينة وتعرّضتُ لهجمات قطعانٍ من الجرذان. ومن ثمّ، وبينما كنتُ أبحثُ عن مأوى، سمعتُ مواءً ووجدتُ هذا القطّ الصغير البرتقالي الجائع المختبئ في مجرورٍ للصرف الصحّي. وقد قدّمتُ له بطبيعة الحال حليبي. وبعد ذلك لم يعد يفارقني. صادفنا قططًا أخرى من بني جنسنا والتي حدّثتنا عن تجمّعٍ للقطط الشاردة في الغرب. فقرّرتُ الانضمام إليها. وأنتِ، ما قصّتكِ؟

قلتُ لها بجملة واحدة لكي أقطع الطريق أمام أسئلتها:

– نفس قصّتكِ تمامًا.

عضّ أنجيلو ثديي مثل عادته. كان هذا الصغير يمزج نكران الجميل بالحماقة، لكنني كنتُ سعيدة جدًّا بالعثور عليه أكثر من لومي له.

بفضل وجبة العشاء التي كنت قد تناولتها في المساء السابق، استطعتُ أن أستعيد قواي وعلى الأرجح كان لديّ من الحليب في أثدائي أكثر من تلك القطّة السوداء. لم يكن لغياب الإحساس العائلي لدى أنجيلو من معنى، فهو سوف يفضّل على الدوام الحليب الأكثر دسمًا.

أكمل فيثاغورس كلامه:

– لقد تعرّضنا لهجومٍ من قبل رهطٍ من الكلاب، وأُنقذنا من قبل الأسد هانيبال، هل تعرفينه؟

– نعم، وهو يخيفني. هذه هي المرّة الثانية التي يهاجم فيها كلابًا. هذا يحمينا، كما أننا نقتاتُ على ما يتركه لنا من بقايا الطعام، ولكنني أعتقد أنّ هانيبال لن يتردّد في مهاجمتنا حالما لا تعود لديه كلابٌ.

– كيف تنجحون في تأمين طعامكم، هنا؟

– نتناول بطًّا، وضفادع، وسناجب، وعلى نحوٍ خاصّ أرانب. يبدو أنّه في السابق كان هناك الكثير من هذه الحيوانات، ولكن منذ أن بدأنا باصطيادها، أصبحت في طريقها إلى الاختفاء بشكلٍ كبيرٍ. كما يحصل لنا في بعض الأحيان أن نأكل عناكب وصراصير.

ولدى إمعان النظر إليها، لا بدّ أنّ مرحلة تسكّع اسميرالدا كانت مليئة

بلقاءات عصبية مع جرذانٍ وكلابٍ وقططٍ أخرى: فقد كان جسمها مغطّى بخدوشٍ طويلةٍ.

قلتُ لها بمواء امتنانٍ:

– شكرًا لأنّكِ أنقذتِ ابني.

قال فيثاغورس:

– يعتقد بعض البشر أنّ القطط السوداء تجلب سوء الحظ، ولكنّكِ الدليلَ على عكس ذلك.

تبًّا! أيكون فيثاغورس على وشك أن يغازل اسميرالدا هذه؟ سيكون أمرًا فظيعًا أن تسرق منّي هذه القطّة القادمة من العدم ليس فقط ابني وإنّما علاوة على ذلك الذكر الذي أطمع فيه!

تدخّلتُ في الحديث وأشرتُ على القطّ السيامي بأنّه قد حان الوقت لكي نعود إلى مأوانا الخاصّ في الغابة. أخبرتنا اسميرالدا بأنّه لا تزال هناك بعض الجذوع المحفورة متوفّرة بالقرب من البُحيرة يمكن استخدامها كمأوى.

وقد وجدنا بالفعل ملاذًا في شجرة كستناء. لكنّ فيثاغورس بدا قلقًا، وحرّك ذيله بعصبية.

قال:

– سيكون علينا أن نشكّل جيشًا من القطط ونستعيد المدينة من الجرذان.

– متى؟

– بأسرع ما يُمكن. كلّ يومٍ يمرّ، هو هدرٌ للوقت بالنسبة إلينا.

ولأنّه لم تكن لديّ رغبة في النقاش، ولأنّ الشمس بدأت تعلو بما فيه الكفاية لكي أتضايق، تمدّدتُ ونمتُ بهدوء وأنا أدعُ في الوقت ذاته ابني يرضع من ثديي. لقد نلتُ نصيبي من المشاعر لما يكفي كلّ اليوم. وحتى إذا كنتُ أكنّ أعلى درجات التقدير لفيثاغورس، إلا أنني لم أستطع في الوقت نفسه أن أكتفي بالخضوع له وإطاعته. قبل أن أغطّ في النوم عميقًا، راودتني فكرتي الأخيرة: إذا كان يريد إلى هذه الدرجة من الحماسة تشكيل جيشٍ من أجل استعادة المدينة، ليس عليه سوى أن يطلب من اسميرالدا هذه الانضمام إليه، وأنا متأكّدة من أنّها سوف تكون مستعدّة للحاق به...

-20-

خطاب الشلّال

حلمتُ أنّ اسميرالدا تغنّي مثل كالاس.

وقد ألهمت قوّة صوتها فيثاغورس الذي بدأ يغنّي معها. ثمّ انضمّ الأسد هانيبال إليهما وردّد اللحن نفسه بنبرة أكثر قوّة. ماءَ أنجيلو أيضًا بصوته الخفيض الحادّ. وكان اللحن الموسيقي نفسه يتكرّر على الدوام.

قال فيثاغورس في الحلم: «الفنّ يسمو على كلّ شيء ويُخلّد الذين يمارسونه. رغم موتها، تواصل كالاس الغناء على الإنترنت وفي أحلامنا. يجب علينا نحن أيضًا أن نبلغ الخلود عبر الفنّ. ينبغي علينا نحن أن نخترع «فنّ القطط» الخاصّ بنا. لقد أوشكت اسميرالدا على النجاح في هذا المجال، أتسمعين؟».

في حلمي، انزعجت وجلستُ أمامهم:

«أما أنا فلا أحتاج إلى الغناء، أنا أجيد التحاور مع الجميع بطريقة مباشرة بالتخاطر الذهني والروحي. هذه هي قدرتي لأنني تجسيدٌ للإلهة المصرية القديمة: باستيت».

استيقظتُ من النوم بسقوط ذرق طائرٍ على جمجمتي.

رفعتُ رأسي فرأيتُ ما يُقارب العشرين من الغربان الجاثمة على الغصن العلوي للشجرة التي كنتُ قد تكوّرتُ على نفسي في داخل حفرة جذعها. على الأرجح أنّ هذه الغربان أيضًا قد طورِدت من قبل الجرذان. لا أدري أين تخفي هذه الطيور بيوضها، ولكنني متأكّدة من أنّ الجرذان سوف تعثر عليها وتلتهمها.

ولأنني كنتُ جائعة، تسلّقتُ الشجرة لكي أحاول الإمساك بأحد تلك الطيور، ولكن ما أن كدتُ أرفع كفّي حتى طارت كلّها دفعة واحدة. لا بدّ أنّها قد تعرّضت من قبل للخوف والقلق من بني جنسي. من المؤسف أنني لا أجيد الطيران.

فبدأت الاستحمام لكي أُزيل ذرق الغراب الذي لوّث فرائي. عرفتُ من خلال ميلان الشمس أنّ الوقت قد تقدّم في فترة ما بعد الظهيرة.

تثاءبتُ، وتمطّيتُ. كان أنجيلو لا يزال نائمًا في زاويته، لكنّ فيثاغورس لم يكن موجودًا في المكان.

والحقيقة، عندما أمعنتُ النظر، تبيّن لي أنّ هناك عددًا قليلًا من القطط في الأنحاء. لم يكن الأمر طبيعيًا. غامرتُ بالخروج من مأواي لكي أرى ما الذي يحدث. كانت آثار أقدامٍ حديثة الظهور تتلاقى في اتجاهٍ محدّد. تتبّعتُ تلك الآثار ووجدتُ نفسي مختلطة بحشدٍ من القطط المتجمّعة على ضفاف بحيرةٍ.

بدا أنّ جميعها تنظر إلى النقطة نفسها، في الأعلى، على مكانٍ مرتفعٍ صخري يعلو كهفًا ينبع منه شلال مياه.

كانت المياه تتساقط متلاطمة في صخبٍ، مشكّلةً زبدًا أبيض اللون في الأسفل.

رأيتُ فيثاغورس على المرتفع الصخري فوق الشلّال. كان منتصبًا على قائمتيه الخلفيتين ويقف مثل كائنٍ بشري. لم أكن أعلم أنّه يقف بهذه الطريقة الممتازة ولوقتٍ طويلٍ محافظًا على توازنه.

جذبت القلنسوة البلاستيكية البنفسجية لعينه الثالثة انتباه الجميع.

ولأنني اقتربتُ، سمعتُ خاتمة خطابه.

-... جيشٌ من القطط بغية تخليص هذه المدينة من كلّ الجرذان، التي تنشر الطاعون.

طلب قطٌّ فارسي ذو شعرٍ طويلٍ جدًّا الكلام.

قال في حديثه:

- الجرذان أقوى منّا الآن. إذا ذهبنا من الطرف الآخر للضاحية، سوف

نُهزَم. بالنسبة إليّ، لدي أفضل مشروع أطرحه على تجمّعنا. في الواقع، أعتقد مثلك تمامًا، يا فيثاغورس، أنّه لا يمكننا أن نبقى هنا إلى ما لا نهاية، وسوف ينتهي بنا المطاف إلى فقدان الطعام تمامًا، وهذا سوف يدفعنا إلى أن نلتهم بعضنا، وفي هذا الشأن أنت محقّ. ولكن... بدل أن نهاجم المدينة أو نبقى هنا، أقترح أن ننطلق نحو الغرب. ذات مرّة، ذهبنا، أنا وخادمتي، في هذا الاتّجاه وأتذكّر أنّنا وجدنا مساحةً مائية شاسعة، مساحة من الماء الأخضر على امتداد البصر. وهناك، أكلنا الكثير من السمك. ليس هناك جرذٌ واحدٌ في تلك المنطقة.

قال قطٌّ:

– أنا أخاف الماء.

ردّد آخر:

– وأنا أيضًا.

وسُمعت أصواتٌ تتصاعد من كلّ مكانٍ، تُردّد العبارة نفسها:

– وأنا أيضًا.

قاطع القطّ الفارسي الأصوات المتصاعدة:

– أعرف، أعرف، أنا أيضًا كنتُ أخاف من الماء سابقًا، ولكن، إذا اضطررنا للاختيار بين الجرذان والماء، أعتقد أنّ الماء عقبةٌ يكون التغلّب عليها أسهل بالنسبة إلينا. حينما نصل إلى هناك، سوف يمكننا أن نصطاد أسماكًا طازجة. ونحن جميعًا نحبّ الأسماك الطازجة، أليس كذلك؟ لقد سئمنا جميعًا تناول لحم الأرانب الهزيلة والغربان المريضة... وهذا يستحقّ عناء المحاولة.

انتظر فيثاغورس أن يُنهي القطّ الفارسي خطبته وترك الصمت يسود المكان. ثمّ قال:

– ما تسمّيه أنت «ماء بلا نهاية» يسمّيه البشر «البحر». والمدينة التي زرتُماها هي على الأرجح دوفيل. هناك، توجد في الحقيقة شواطئ، والكثير من المياه المالحة، والكثير من الأسماك، ولكن...

تركت هذه الكلمات تأثيرها الطفيف، وانبهر الحضور بدقّة معارفه.

-... لا أعتقد أنّ تلك الأسماك سوف تكون سهلة الإمساك بها. إذا أردتم الذهاب إلى مدينة دوفيل لاصطياد سمك السردين بالغوص في أمواج المياه الباردة جدًّا، بكلّ تأكيد لا يمكنني أن أستبقيكم ولا أن أعترض على اقتراح منافسي.

سألت قطّة:

- وأنت، كيف تعرف كلّ هذا؟

- لقد حصلتُ على المعرفة.

- أيّ «معرفة»؟

- معرفة عالم البشر، في الزمان وفي المكان.

- وكيف يمكن هذا؟

- هذه المعلومة تأتيني من خلال ما ترونه فوق قمّة جمجمتي. عيني الثالثة.

خفضَ رأسه، ورفع القلنسوة البلاستيكية البنفسجية وكشف عن الثقب المربّع تمامًا الذي يؤدّي مباشرةً إلى دماغه. ثمّ قال:

- بفضل هذا المُلحق، أنا أعرف ما لا يمكنكم حتى تخيّله.

من جديد، ساد صمتٌ بين جموع القطط.

صاح قطٌّ منزلي قصير الشعر:

- نحن جميعًا على وشك أن نموت جوعًا. معرفتكَ هذه لا تُفيد في شيء ما لم تُطعمنا.

اتّخذ فيثاغورس وضعيةً أكثر استقرارًا على قوائمه الأربع، وشرح رأيه:

- يكفينا أن نتّخذ القرار بالتصرّف حتى نستعيد التحكّم بمصائرنا. إنّ خصومنا الحقيقيين، أي الجرذان، أضعف مما تعتقدون. تغلّبوا على خوفكم، وثقوا بي، علينا أن نشكّل جيشًا من القطط، وأن نهاجمها، وننتصر عليها.

- من أنت في الحقيقة، أنت أيّها القطّ السيامي العجوز النحيل مع هذا الثقب الذي في رأسك؟ لا أحد هنا يعرفك.

- ليس لديّ أيّ شيءٍ أخفيه عنكم. لقد كنتُ في السابق قطّ تجارب في مختبرٍ، لكنني أقنعتُ أنثى بشرية بأن تخرجني من ذلك السجن. وقد فتحت

لي العين الثالثة هذه في جمجمتي وعلّمتني وثقّفتني. وهكذا اكتشفتُ تاريخ البشر. وقد اخترتُ اسمي كنايةً بواحدٍ منهم، والذي بدا لي بأنّه الأكثر أهمية وحكمةً. وهو فيثاغورس.

هذه المرّة، انتصبت الآذان أكثر بعض الشيء، فقد نجح في جذب المزيد من الانتباه.

سألت قطّة مخطّطة، بإعجاب:

– أنتَ اخترتَ بنفسكَ اسمكَ؟

سألت قطّة أخرى:

– ومنْ كان صاحبك فيثا لا أدري ما اسمه؟

– كان فيثاغورس كائنًا بشريًا على درجة كبيرة من التبصّر والحكمة، عاش قبل ألفين وخمسمئة سنة. في حين كان المجتمع البشري في أزمة، غارقًا في العنف والغباء والخوف، غيّر ذهنية بني جنسه. لقد كشف لهم عن جهلهم ووضّحه لهم. وقد جعلهم يكتشفون عالمًا يتعدّى التصوّر البسيط والمباشر لحواسهم. لقد ابتكر فيثاغورس كلمة «فلسفة» وكلمة «رياضيات». لقد أسّس فيثاغورس مدرسة علّم فيها تلامذته لكي يصبحوا جميعًا أذكياء وأن ينشروا بأنفسهم الذكاء. لقد قاد فيثاغورس البشرية نحو السلام والحكمة، وبالتالي، اخترتُ اسمه لكي أقود بالطريقة نفسها بني جنسي، القطط.

ظلّ الشكّ والارتياب يُساوران حشد القطط. مثلي تمامًا، لم تفهم أغلبية القطط حتى معنى العديد من الكلمات التي استخدمها. ولكنّ فيثاغورس لم يستسلم للحيرة.

– دعوني أعرضُ لكم خياراتكم. الخيار الأوّل يشتمل على العيش في الخوف من الأحداث التي تتجاوز قدراتكم فلا تدركون ما هي أسبابها ولا نتائجها. العيش على النبش بين القمامة ومطاردة الأرانب النحيلة. العيش على أمل العودة إلى حياةٍ «طبيعية» حيث ستحظون بطعامكم في الإناء وتكون أريكتكم الصغيرة ملكًا لكم. أما الخيّار الثاني، فيشتمل على أن تأخذوا مصيركم بيدكم، وأن تشكّلوا جيشًا وتستعيدوا السيطرة على هذه المدينة.

استأنف القطّ الفارسي الحديث:

– بالنسبة إليّ، أنا اسمي نبوخذ نصر. أعترف بأنني لم أختر اسمي بنفسي وأنني لا أعرف ما الذي أنجزه الكائن البشري الذي كان يحمل هذا الاسم قبلي، ولكن ما أعرفه هو أننا إذا ما أصغينا إلى رأيك، يا فيثاغورس، سوف نُهزَمُ من قبل الجرذان. وبدل أن نموت جوعًا بالبقاء هنا، أو تحت ضربات الأنياب بعودتنا إلى المدينة، أقترح عليك الذهاب إلى صيد الأسماك في الغرب.

– وأنت، يا نبوخذ نصر، تقترح الذهاب إلى مكانٍ بعيدٍ جدًّا بحيث إنّ كلّ الذين سوف يغادرون معك سوف يموتون جوعًا قبل أن تحظوا بفرصة أن تبلّلوا قوائمكم بمياه البحر. فمدينة دوفيل تبعد عشرات الكيلومترات من هنا.

– هذا خطأ. لقد ذهبتُ إليها، وهي ليست بعيدة جدًّا!

– أنت لم تذهب إلى هناك مشيًا على الأقدام، بل كنت في سيارة، أليس كذلك؟ وبالتالي، لم تشعر بطول المسافة.

– كيف عرفت ذلك، يا فيثاغورس؟ بفضل عينك الثالثة؟

– بالضبط. مدينة دوفيل تبعد من هنا مسافة مئتي كيلومترٍ! والقط يهرول مسافة خمسة كيلومترات في الساعة كأقصى سرعة ممكنة. وبالتالي يحتاج قطع هذه المسافة إلى الركض ليومين كاملين دون توقّف.

– ربّما ليست لديّ عينٌ ثالثة وأنا لا أعرف الكيلومترات والساعات، ولكنني أعلم أنّ الجرذان أكثر عددًا منّا الآن. وأنت تتحدّث عن جيشٍ من القطط؟ وأنا أقول إن هذا الجيش سوف يُهزَمُ شرّ هزيمة بكلّ تأكيد.

– بصورة محدّدة، دعونا نسرق الطعام من الجرذان هناك حيث توجد كميات كبيرة منه ودعونا نستلذّ به. أنا أعرض عليكم أن تأكلوا جميعًا إلى حدّ الشبع! دون الغوص في المياه من أجل اصطياد السمك، ودون انتظار، ودون السفر بعيدًا.

هذه المرّة، أصاب فيثاغورس هدفه بدقّة.

سألت القطّة المخطّطة:

– إلى أين تريد الذهاب؟

– البارحة مساءً، اكتشفتُ أنّه يوجد مخزنٌ ضخم للأغذية الطازجة، السليمة، والجاهزة لأن تُستهلَكَ من قبلنا.

– أين؟ تكلّم.

– المكان ليس بعيدًا. إنّه على بعد بضع مئات من الأمتار من هنا.

– ليس لحمًا فاسدًا، ولا جثثًا مليئة بالذباب والديدان؟

– بل أطعمة خاصّة بالقطط، وحليب، وعلبٌ من التونة والسلمون. هذه هي المأكولات التي سوف نجدها إذا ما ذهبنا إلى هناك.

من جديد، توجّهت الآذان المنتصبة نحو الخطيب، وهي تهتزُّ على نحوٍ خفيفٍ، كدليلٍ على أنّ الحافز الأفضل هو من دون أدنى شكّ حافز البطن.

ألحّ فيثاغورس:

– سوف تستلذون بما لذّ وطاب.

لم يشأ نبوخذ نصر أن يستسلم، وماء بنبرة حازمة:

– من جهتي، أفضّل أن أسير لمسافة طويلة وأن أصطاد السمك مما أسميتَه «البحر» بدل قتال الجرذان.

– الأمر الأكثر بساطة هو أن يختار جميع الحاضرين هنا. من منكم مستعدٌّ للحاق بي من أجل العثور على مخزن الطعام؟

ولأنّه لم يستجب أيّ شخص، قرّرتُ أن أتدخّل في الأمر.

– اسمعوني! أنا اسمي باستيت. أنا أيضًا لم أختر اسمي بنفسي. وأنا أيضًا ليست لديّ عينٌ ثالثة. وأنا أيضًا أخاف من الجرذان. ولكنني أعرف فيثاغورس، وبحسب ما رأيت منه وعشتُ معه، يمكنني أن أؤكّد لكم بأنّه لطالما قال الحقيقة باستمرار، ولم يخذلني قطّ.

ظلّ الحضور من دون إبداء أيّ ردّ فعلٍ إيجابي.

قالت قطّة:

– لكي نلحق بكَ، يجب أن تعطينا المزيد من المعلومات حول مخزن الغذاء خاصّتك هذا!

– حسنًا، اسمعوني جيّدًا إذًا: إنّ زعيم البشر في هذه البلاد، رئيس

الجمهورية، لديه منزل يُدعى «قصر الإليزيه». هذا المكان مزوّدٌ، في قبوه المحصّن، بملجأ يُدعى «ملجأ مضاد للقنابل النووية»، أي إنّه مزوّد بنوعٍ من مغارة يوجد فيها هذا المخزن للطعام تحسّبًا لاندلاعِ حربٍ.

انبهر الجميع بالتفاصيل الدقيقة لمعرفته. فاستغلّ فيثاغورس ذلك، وتابع حديثه:

– عندما اكتُشِفَ وباءُ الطاعون، لم يذهب الرئيس ووزراؤه إلى هذا الملجأ، بل فرّوا بالطائرة. ومنذ ذلك الحين نُهِبَ قصر الإليزيه من قبل العصابات المسلّحة، ولكنها لم تجد كيف يمكنها الوصول إلى الملجأ المضاد للقنابل النووية المحميّ بطريقة ممتازة من خلال نظام للإقفال الإلكتروني يعتمد على تقنية التعرّف على قزحية العين. حينما بدأ الطاعون بإيقاع أضراره الجسيمة، خلت شوارع باريس من البشر، وتغلّبت الجرذان على مجموعاتٍ من الكلاب.

أكّد قطٌّ عجوز جسمه مغطّى بالنُّدب:

– هذا صحيح.

– لقد طاردت الجرذان الغربان والخفافيش والحمام، والعصافير، بل وأخافت الصراصير العملاقة الجديدة التي تزحف في كلّ مكان تقريبًا. ومن جرّاء ذلك، تغذّت بشكلٍ جيّد وتكاثرت. وفي المكان الذي كانت فيه عشرة جرذان، سُرعان ما أصبح فيه مئة جرذ، ونقلت الجرذان كلّها الطاعون.

قال القطّ العجوز ذو النُّدب:

– أنا أؤكّد بأنني قد شاهدتها وهي تهاجم مجموعات من البشر الشبّان وترغمهم على الفرار.

قالت القطّة المخطّطة:

– تابع الحديث لنا عن مخزونك من الطعام!

لم يتمنّع فيثاغورس، ولم يتوان عن المتابعة:

– ذات يوم، وجد جرذٌ الطريق للدخول إلى الملجأ المضاد للقنابل النووية: من خلال أنبوبٍ لنظام التهوية. لقد قضم مرشّحات الهواء واكتشف المنفذ إلى هذا المخزن.

أصبحت جميع القطط الحاضرة أكثر انتباهًا واهتمامًا بما يقوله فيثاغورس.

- ومنذ تلك اللحظة، شكّلت الجرذان سلسلة لنقل الغذاء. ولكنّ عملية النقل كانت بطيئة جدًّا، ولذلك قرّرت أن تقضم الجدار المجاور للباب الحديدي. وهو ما تفعله الجرذان حاليًا. إنّها تخترق الإسمنت بقواطعها لكي تصل إلى هذا المخزون الضخم من الغذاء.

لم يتحرّك أحد، واستغلّ نبوخذ نصر ذلك لكي يستأنف الكلام. سأل وهو لا يزال مرتابًا:

- وكيف راودتك فكرة أن تسأل الإنترنت خاصّتك بشأن هذا الموضوع؟

- كانت خادمتي قادرة على بثّ الرسائل التي كنتُ أستقبلها.

- تعني أنّها كانت تستطيع التحدّث معك؟ نحن أيضًا كان خدمنا يتحدّثون إلينا، وكنّا نستطيع أن نفهمهم...

- ولكن ليس بالتفصيل. كانت خادمتي تستطيع التحدّث معي وكنتُ أتلقى رسالة واضحة جدًّا كما لو أنّها كانت تموء بلغة القطط. قبل أن تموت، كشفت لي بأنّ في هذا المكان بالتحديد توجد المصادر الأخيرة لغذاء المدينة. كانت تعرف ذلك لأنّ شقيقها، وهو عسكري، كان يعمل مع الرئيس. البارحة مساءً، تذكّرتُ ذلك. وبالتالي، بينما كان الجميع نيامًا، استخدمتُ عيني الثالثة لكي أذهب وأرى ما الذي يحدث هناك.

سألت القطّة المخطّطة، وهي مبهورة:

- كيف أمكنَ هذا؟

- دائمًا بفضل شقيقها العسكري، إذ كانت خادمتي قد منحتني مدخلًا إلى برنامج يعود إلى استخباراتهم السريّة والذي كان يسمح لي باستخدام شبكة فكّ الأقفال. وبهذه الطريقة، رأيتُ من خلال كاميرات المراقبة الجرذان وهي تُخرج الغذاء عبر أنابيب التهوية وتحفر في الجدار الإسمنتي.

أجاب نبوخذ نصر:

- قصّتك معقّدة للغاية، وأنت تستخدم الكثير من الكلمات التي لا نفهمها: أنت تحاول أن تُبهرنا. نحن لا نصدّقك. أنا أفضّل أن أسير يومين

على أن أقاتل ضدّ الأعداد الهائلة من الجرذان التي تنقل هذا المرض المميت على الأرجح بالنسبة إلينا.

بدأ مجلس القطط يتجمّع حول القطّ الفارسي.

صاح صوتٌ قوي، تعالى على الجلبة السائدة:

- فيثاغورس على حق!

استدرنا جميعًا ورأينا قطّ شارتروه فراءه أزرق اللون عمليًا.

- أنا اسمي فولفغانغ. أنا أيضًا لم أختر اسمي بنفسي ولا أنا مزوّدٌ بعينٍ ثالثة. كنتُ القطّ الشخصي لرئيس الجمهورية الذي ذكره هذا القطّ السيامي.

الآن وقد قدّم نفسه، أصبح الحضور يعيره الانتباه.

- حينما اتّسع نطاق الحرب، فضّل خادمي أن يفرّ بدل أن يختبئ في ملجئه. ووسط الذعر الذي ساد، نسي أن يأخذني معه.

انتشر همسُ استنكارٍ عام وسط الجمهور.

- كان زعيم البشر. لقد عاملني على الدوام معاملة حسنة، ولكنّه لطالما خاف من الموت.

أيّد بعضهم كلام قطّ شارتروه لأنّهم كانوا هم أيضًا قد رأوا بشرًا خائفين بين خدم القطط.

- في الفترة التي كان كلّ شيء فيها على ما يُرام، أخذني ذات مرّة معه إلى ذلك الملجأ المضاد للقنابل النووية، المليء بالأغذية التي يتحدّث عنها فيثاغورس. وبالتالي رأيتُ ما هو موجودٌ في الداخل. في الواقع، هي أغذية ذات جودة فائقة.

صعد فولفغانغ إلى أعلى الشلال، وراح يقف بالقرب من فيثاغورس. وقد لحقتْ بهما على الفور اسميرالدا (كانت تلك القطّة لا تفوّت فرصة لكي تلفت الأنظار إليها).

ظهر القمر خلفهم وهو بدرٌ منير ذو هالة واسعة. وهبّت الرياح الخفيفة وتسللت عبر فرائهم. وقد أضافت بعض الحشرات المضيئة بعدًا بصريًا مذهلًا على المشهد. لم أستطع أن أبقى مجرّد مشاهدة عادية، فصعدتُ

بدوري إلى أعلى هذا المرتفع، معلنةً استعدادي للمشاركة في الغارة على الإليزيه. مؤنثٌ:

– في كلّ الأحوال، إذا لم نُخاطر، كيف لنا أن ننجو؟ هل سنبقى هنا، ننام في الغابة ونتناول طعامًا يتناقصُ يومًا بعد آخر؟ بالنسبة إليّ، أنا أكره ملامسة الماء، وأكره الانتظار بطريقة سلبية، وبالتالي أنضمّ إلى فيثاغورس!

دبّت غمغمةٌ قصيرة في التجمع الصغير المحيط بنا. انضمّ بعضٌ إلينا، في حين وقف آخرون إلى جانب نبوخذ نصر.

لكنّ الأغلبية الساحقة من الحضور لم تلتزم بالوقوف إلى جانب أيٍّ من الطرفين وفضّلت الانتظار دون أن تُقْدم على عمل أيّ شيء.

أعلن فيثاغورس:

– سوف ننطلق في غارتنا بعد بضع ساعات. ومن الآن وإلى أن تحين لحظة انطلاقنا، أنصحكم جميعًا أن ترتاحوا. إذا كان هناك خائفون بينكم، أفضّل أن لا يأتوا معنا لأنني أعتقد أنه سيكون علينا أن نبدي الكثير من الحزم والروح القتالية.

راقبتُ اسميرالدا بطرف عيني.

غدًا، إذا ما شاب المعركةَ شيءٌ من الارتباك والفوضى، سوف أحاول التخلّص من هذه المنافسة، وبذلك سوف تُحلّ المشكلة.

ما كادت هذه الفكرة أن تعبر ذهني، حتى قلتُ في نفسي إنّ فيثاغورس قد يكرهني ويحقد عليّ بعد ذلك. وبالتالي، سوف يكون عليّ أن أُنجِزَ شيئًا ما يُثير إعجابه بدل هذه الفكرة الطائشة.

كيف يمكنني أن أساعده في هجومه على الملجأ الرئاسي؟

فكّرتُ مليًا بالأمر، وفي النهاية توصّلتُ إلى إيجاد الحلّ الناجع.

هانيبال هو الحلّ.

إذا ما استطعنا الاستفادة من مساندة أسدٍ، مما لا شكّ فيه سوف نكون أكثر كفاءةً بكثير.

تواريتُ عن الأنظار خلسةً وغادرت ذلك الاجتماع الصغير، واستغللتُ فرصة أنّ أنجيلو كان لا يزال نائمًا في حفرة شجرته للذهاب بحثًا عن منقذنا.

عثرتُ عليه في أطراف الغابة، ليس بعيدًا عن المكان الذي التقينا به في المرّة الأولى. كان لا يزال يهضم الطعام الذي تناوله. كانت رائحة الأسد الأصهب قويّة جدًّا. تردّدتُ في إزعاجه، ولكن حينما تذكّرتُ حراجة الموقف، قرّرتُ أن أخرخر قريبًا جدًّا من أذنه اليمنى:

- صباح الخير، يا هانيبال. أودّ أن أتحاور معك. هل هذا ممكن؟

عدّلتُ رسالتي بطرق مختلفة، وفي النهاية انفتح جفنٌ وأطلق الأسد زمجرة خفيفة تنمّ عن انزعاجه.

حسنًا، يبدو أنّ الحوار لن يكون سهلًا، ومع ذلك لم أشأ أن أستسلم.

- يمكننا أن نتفاهم.

هدأ أخيرًا، وزمجر:

- لماذا تزعجينني، أيّتها القطّة؟

أقلّ ما يمكننا قوله هو أنّه لا يتحدّث مواءً. وكانت كلّ كلمة منه تصمّ أذني، ولكن على الأقل، كنّا نتواصل.

- يا هانيبال، نحن بحاجة إليك لكي تساعدنا في غارةٍ بحثًا عن الغذاء.

- لم أعد جائعًا.

- نعم، ولكننا نحن جائعون، نحن، القطط.

- ليس لكم سوى أن تأكلوا الكلاب، لا بدّ أنّه لا تزال هناك بعض الكلاب في هذه الأنحاء.

- لقد سبق وأتينا عليها بالكامل. يلزمنا المزيد من الطعام وقد عثر فيثاغورس على مخزنٍ للأغذية الطازجة يقعُ في قبوٍ تحت منزلٍ للبشر.

- حسنًا، إذًا اذهبوا إليه.

حاولتُ أن أرفع الكلفة في الحديث معه.

- هذا المكان تغزوه الجرذان. من دونك، لا يمكننا أبدًا أن نتغلّب عليها.

- يا للخسارة.

- ساعدنا، يا هانيبال، من فضلك.

هزّ برأسه رافضًا:

- هنا لا أحد يساعد الآخر. يتصرّف كلّ واحدٍ من أجل نفسه. ولا أعتقد أنّ هذا السلوك سوف يتغيّر في ظلّ وجود الأزمة الحالية. على العكس من ذلك تمامًا، هناك خطر أن يتحوّل من سيئ إلى أسوأ.

- في بعض الأحيان تطوّر فردٍ واحدٍ يكون كافيًا لتطوير كلّ المحيطين به. لقد حدث ذات مرّة أن أدّى خروج سمكةٍ من الماء إلى البرّ إلى ظهور آلاف الأجناس من الأحياء على الأرض. ومن بين هذه الأجناس، نحن. الآن، يبدو هذا الأمر طبيعيًا، يبدو مكسبًا، ولكنّه كان من صنيع أقليّة.

- حتى لو أنني... ساعدتكم، ما الذي سوف أجنيه من هذا، أيّتها القطّة الصغيرة؟

بحثتُ عن خطّة لإقناعه، ورحتُ أتساءلُ، حائرةً: كيف يمكن إقناع كائنٍ غير جائع أن يُجهِد نفسه في سبيل تأمين الطعام لآخرين؟

المحفّز الأوّل: الخوف.

- إذا لم تساعدنا في التغلّب على الجرذان، سوف يأتي يوم وتهاجمك أنت، وسوف يكون عددها كبيرًا جدًّا بحيث لن يكون بوسعك التغلّب عليها أبدًا.

همهم هانيبال قليلًا، غير مقتنعٍ بكلامي.

- أنا لا أخشى الجرذان. الشيء الوحيد الذي أخشاه هو الكائنات التي تزعجني حينما أريد الركون للهدوء.

وقد كشّر عن أحد أنيابه في إشارة إلى السخط.

كانت حركة واحدة منه كافية لأن ينهشني بمخالبه الحادّة: ولو فعل ذلك، لم تكن لي أيّ فرصة للنجاة.

رأينا قطيعًا من القطط التي تتقدّم رافعةً ذيلها.

سأل الأسد:

- وهذه القطط إلى أين تذهب؟

- هذا نبوخذ نصر وأنصاره الذين ينطلقون نحو الغرب للذهاب إلى صيد السمك في البحر.

- لماذا لا تأتي هذه المجموعة لكي تساعدكم في قتال الجرذان؟

قلتُ:

- إنّها تفضّل الفرار. سوف يكون هناك على الدوام هذه الخيارات الثلاثة: القتال أو الفرار... أو عدم فعل أيّ شيء.

تنهّد الأسد، ثمّ أشار عليّ أن أدعه وشأنه لينعم بالهدوء.

شعرتُ بالإحباط.

ما جدوى النجاح في إجراء حوارٍ إذا كان هذا الحوار لا يغيّر شيئًا في عقلية الشخص الذي تتحاور معه؟

لقد حاولت، على الأقلّ.

-21-

معركة الشانزليزيه

تلوّنت السماء بإشعاعات ضوئية برتقالية اللون، ومن ثمّ مالت إلى اللون الأحمر، وأخيرًا إلى اللون البنفسجي. تلوّنت السُّحب بألوان قوس القزح، وأفل النور، وسطعت نجمةٌ.

بالنسبة إلينا نحن القطط، حينما يحلّ الليل، يبدأ نهارنا.

لقد حان وقت الذهاب إلى هناك، أرض المعركة.

جمع فيثاغورس ما يقارب عشرة قطط من المؤمنين بقضيّته، والذين انضممتُ إليهم. أدرنا ظهرنا للغابة وتوجّهنا نحو جادة فوش، تاركين أشجار غابة بولونيا خلفنا. بعد أن سرنا بضع دقائق، التفتُّ إلى الوراء ورأيتُ أنّ بعض المترددين قد انضموا إلى رتلنا. وسرعان ما هرول ما يُقاربِ عشرين قطًّا آخرين إلى جانبنا. كان من الواضح أنّ هذا العدد لم يكن كافيًا لمواجهة حشود جرذان المدينة، لكن مع ذلك، كانت هذه بداية جيّدة.

ولا بدّ أن نعترف صراحةً بأننا نحن القطط، وبخلاف الكلاب، لا نجيد العيش في قطيعٍ متضامنٍ. نحن ذوو نزعة فردانية على نحوٍ غريزي، بل إننا أنانيون. وأن نجتمع في حدود عشرين قطًّا وقطّة من أجل خوض مغامرة على هذه الدرجة من الخطورة هو بحدّ ذاته أمرٌ استثنائي.

سار فيثاغورس على رأس الموكب بعدّته الغريبة المثبّتة على ظهره والمزروعة في جمجمته. سارت اسميرالدا إلى يمينه، وسرتُ أنا إلى يساره.

كان فولفغانغ بالقرب منّي، جاهزًا لأن يرشدنا حينما نصبح قريبين بما

فيه الكفاية من الإليزيه. ولم نشاهد حتى تلك اللحظة أيّ كائن بشري في كلّ تلك الأنحاء.

نبحت بعض الكلاب التي لم تكن قد نامت حتى ذلك الوقت المتأخّر من الليل، ولكنّها ظلّت على مسافة بعيدة عن قواتنا المتقدّمة بعزمٍ وتصميم. لو أنني استطعتُ التحدّث إليها، لقلتُ لها بأننا مهتمون بأن تتحالفَ معنا للقتال ضدّ الجرذان، ولكن أيّ كلبٍ يمكنه أن يفهم فكرة مبتكرة إلى هذا الحدّ؟

فكّرت وتبيّن لي بأنني كنتُ على خطأ تامّ. الكلاب، مثلها مثل كلّ الحيوانات، تفعل ما تستطيع، بدافع الخوف، بدافع الحاجة إلى تناول الطعام، وبدافع الرغبة في أن تنعم بالهدوء والسلامة.

ثمّ إنّه لا ينبغي التعميم في هذا الأمر.

أنا متأكّدة بأنّه، حتى عند الكلاب، هناك بعض «الطيّبين». لا بدّ، وبكلّ تأكيد، أن يكون بينها «كلبٌ باستيت» أو «كلبةٌ باستيت»، «كلبٌ فيثاغورس» أو «كلبةٌ فيثاغورس». وهذا ما لم أصادفه بعد.

وفي الوقت ذاته، يجب أن نعترف بأنّه هناك بيننا أيضًا الكثير من الحمقى، مثل نبوخذ نصر هذا الذي سوف يقود على الأرجح رفاقه في الرحلة (والذين يفوق عددهم عددنا) نحو الهلاك والموت (أنا حقًا لا أرى تلك القطط وهي تغوص في الماء لصيد الأسماك الحيّة).

وصلنا إلى ساحة النجمة حيث كانت النيران لا تزال مشتعلة في محرقةٍ هناك، ويتصاعد منها القليل من الدخان الذي يبعث في الجوّ رائحةً كريهةٍ. فكّرتُ من جديد بالمصير المأساوي الذي لاقاه فيليكس: هكذا ينتهي الذين عاشوا دون رغبة في التعرّض للمخاطر.

قاد فيثاغورس الجيش الصغير، وهو يسير في المقدّمة رابط الجأش ومفعمًا بالثقة في نفسه.

ظلّت اسميرالدا إلى جانبه، وتقدّمت، وهذا ما يجب عليّ الاعتراف به، بخطواتٍ في غاية الرشاقة. ولكي لا أُتيحَ لهذه السارقة المحتَملة للذكور أن تتجاوزني، لحقتُ به تدريجيًا واتّخذتُ مكاني أمامه وأنا أتبخترُ وأتمايلُ بمؤخرتي.

لم يستطع أن يغضّ الطرف عنّي.

أدركت اسميرالدا خطّتي، ولكنّها، لحسن الحظّ، لم تزايد عليّ.

حينما استدرتُ بعد ذلك بقليل لكي أتحدّث مع فيثاغورس، تبيّن لي بأنّ عددنا قد قارب المئة.

نزل فوجنا الصغير جادة الشانزليزيه، الجادة الواسعة المكتظّة بالسيارات المركونة. كانت بعض المصابيح على أعمدة الإنارة لا تزال تسطع بأضوائها، مانحة للمكان مظهرًا كئيبًا. كانت عمارات كاملة، منهارة الواجهات، تكشف عن جوف شقق سكنية يُقيمُ بشرٌ فيها. فاجأت الطاقة المنتشرة لتدمير كلّ ما كان قد بني في السابق العديد من بيننا. تذكّرتُ جملة فيثاغورس: «البشر يتطوّرون في دورات، يخطون ثلاث خطوات إلى الأمام، ويتراجعون خطوتين إلى الوراء، ثمّ يخطون من جديد ثلاث خطوات إلى الأمام». أظهرت هذه الجادة المدمّرة في كلّ الأحوال أننا الآن في طور «خطوتان إلى الوراء».

خرخرتُ بتردّدٍ وسطٍ، وسرعان ما قلّدتني اسميرالدا، ثمّ فولفغانغ، وفي النهاية جميع القطط في قواتنا.

اهتزّ الهواء بموجاتنا، وحتى الحشرات والنباتات لا بدّ أنّها قد رأت بأننا نشكّل قوّة جديدة.

وقد ظلّ المكان خاليًا من وجود أيّ كائنٍ بشريٍّ في حقل رؤيتنا. غيّر فيثاغورس في مساره، مستديرًا نحو اليسار، وبعد بضع دقائق من السير، وصلنا إلى قبالة قصر الإليزيه.

عبرنا سياج المدخل واحدًا تلو الآخر. وتجمّعنا جميعًا في باحة القصر الرئاسي.

أشار فولفغانغ إلى طريقٍ مختصرٍ للوصول إلى الملجأ المضاد للقنابل النووية. سرنا في إثره، ونزلنا سلّمًا، ووجدنا أنفسنا أمام كتلة محتشدة ومتكاتفة من الجرذان التي تتناوب على قضم الإسمنت المسلّح الذي يتفتّت تحت قواطعها.

تجمّدت القوارض في مكانها عندما رأتنا. ثمّ دبّ الذعر في صفوفها. اتّخذت بعضها على نحوٍ غريزيٍّ مكانها في خطٍّ للدفاع في حين انسلّت أخرى لكي تذهب على الأرجح وتستقدم تعزيزات إضافية. نحن أيضًا، كان لدينا خطّ هجوم.

ومثلما كان فيثاغورس قد كشف من قبل، كانت الجرذان قد حفرت الجدار على نحوٍ كبير.

صرخ فيثاغورس:

- لا ينبغي علينا أن نقاتل هنا لأننا سوف نُحاصر بين جرذان الباب والجرذان التي سوف تصل عبر الدرج! يجب أن نصعد ونقاتل على سطح الأرض، هناك حيث ستمنحنا قدرتنا على الركض وعلى تسلّق الأشجار الأفضلية في المعركة!

كان على حقٍّ. أعطيتُ الأوامر واستدارت قواتنا إلى الوراء وصعدت إلى الشارع، لنكتشف فيها عددًا كبيرًا من الأعين الحمراء التي كانت تلمع وسط الظلام الدامس. كانت تعزيزات الجرذان قد وصلت إلى المكان. كان هناك على الأقلّ ألفان من القوارض في مواجهة ما يقارب مئة من القطط.

الجرذان أيضًا نفشت وبرها وبدأت بإصدار صخبٍ غريبٍ بأفواهها.

أخبرني فيثاغورس:

- هذا يُدعى «صريف الأسنان». إنّها تسنّ قواطعها من خلال حكّ الأسنان السفلية بالأسنان العلوية بهدف جعلها قاطعة مثل نصال شفرات الحلاقة.

لمحتُ بينها جرذًا أكثر ضخامة من كلّ الجرذان الأخرى. وكان يصدر صوتًا لصريفه أكثر قوّة وخشونةً. لا بدّ أنّ هذا هو زعيمها. في الواقع، كلّما كان يصدر صريرًا بقواطعه، كانت الجرذان الأخرى تجيب عليه وتتحرّك على نحوٍ متزامن. في ذهني، أسميتُه «قمبيز»، لأنّه بدا لي وكأنّه التجسيد المعاصر للعدوّ الذي يرغب في القضاء علينا.

مؤتُ في نبراتٍ حادّة.

أمّا هو، فقد صفّر صفيرًا.

أطلقنا، هو وأنا، أصواتًا ترهيبية، كلٌّ منّا بلغته الخاصّة.

ولاحظتُ حينئذٍ بأننا نتواصل على نحوٍ أفضلٍ مع نوعٍ آخر عندما نكون غاضبين.

جعلتُ حلقي يهتزّ لكي أصدر أصواتًا جديدة. وهو أيضًا فعل الشيء نفسه.

هذه الأصوات الصاخبة الصادرة عن الفم أفادت في منحنا الشجاعة والطمأنينة. ولكن كان كلُّ واحدٍ منّا يواجه عشرين جرذًا، وأصبحت الجرذان الآن تطوّقنا. ولم يعد لنا أيّ منفذ للهروب.

بدأت بعض القطط بالندم على خيارها في المجيء معنا، وحاولت الفرار عبر الأشجار.

خرخر فولفغانغ وأدركتُ أنّه كان خائفًا جدًّا.

ولكنّ اسميرالدا اتّخذت وضعية القتال، جاهزة للوثوب.

في صفّ الجرذان، لم يحدث أيّ انشقاق أو حالة فرار.

التفت نحو فيثاغورس، الذي كان في الواقع المسؤول الرئيسي عن هذا الموقف الذي وُضعنا فيه.

صرّح:

– يجب أن نؤخّر وقوع المعركة لأطول وقتٍ ممكن.

لم أفهم استراتيجية القطّ السيامي.

– ما الذي سيغيّره هذا في الأمر؟

فأغمض عينيه لكي يستخدم عينه الثالثة. ثمّ أعلن أخيرًا:

– لقد عرفتُ، من خلال كاميرات الفيديو، بأننا سوف نحظى عمّا قريب بمساعدة نفيسة للغاية.

ظلّت الجرذان تحاصرنا من كلّ الجهات وتساءلتُ عمّا يتحدّث عنه فيثاغورس. اقتربت العيون الحمراء والأنياب القاطعة. والآلاف من المخالب التي كانت تخمش الأرض أصبحت أكثر حضورًا.

وعلى حين غرّة، مزّق زئيرٌ الليل.

هانيبال.

ما حدث بعد ذلك كان سريعًا جدًّا. انطلق الأسد يهرول وهو يطلق شعر عرفه للريح. لم تجد الجرذان الوقت لتتّخذ موقع الدفاع في مواجهة هذا الخصم الهائل. غرس هانيبال، المحارب الرائع، شدقيه في خطّ الكرات الرمادية من الوبر. أمسك في كلّ مرّة ثلاثة أو أربعة جرذان، مثل مخلوقٍ نباتيّ ينحني لكي يرعى أزهارًا. فرّت الجرذان مذعورةً، وبعد أنيابه، أصبحت نهب مخالبه. شقّت الهواء ومزّقت كلّ ما في متناولها. هنا حيث لم تستطع الكلاب أن تقاوم، ليست أمام الجرذان أيّ فرصة للنجاة.

صحتُ حينئذٍ في جماعتي:

- إلى الهجوم!

استفدنا من حالة الإلهاء التي خلقها هانيبال بهجومه المباغت لكي ننقضّ نحن أيضًا على كومة الجرذان، ونحن نقلّد حسب مستوانا القائد السنّوري. نشر هذا الأخير قوّته الخارقة في مواجهة التفوّق العددي لخصومه. نجحت بعض الجرذان الجريئة في التعلّق بظهره وغرز أسنانها فيه، لكنّ هزّات بسيطة منه كانت كفيلة بإسقاطها أرضًا.

هانيبال وحشٌ موزّعٌ للموت بخفّة ورشاقة. حركاته هادئة، ودقيقة، وغير متكلّفة، وفعّالة. تخلّص ممّنْ أزعجوه بثقل حضوره.

رقصَ.

حتى الجرذان انبهرت، واستسلمت بعضها، مذهولة، لأن تُقتَل حتى من دون أن تدافع عن نفسها.

تغطّى جسم هانيبال بدم ضحاياه. سحق تلك الجرذان التي سقطت تحت أقدامه كما لو أنّه يسحق حقل فاكهة ناضجة جدًّا. التهم بعضها كما لو أنّها أطعمة خاصّة للحيوانات، لكي يستمدّ القوّة لقتل المزيد. كانت ذيول متخبّطة لجرذانٍ تتجاوز شفتيه المحمرتين بالدم نحو جوف شدقيه مثل مجسّاتٍ. صعدت الجرذان المتبقيّة في الملجأ إلى السطح لكي تساعد بني جنسها، لكنها لم تستطع أن تفعل أيّ شيء أمام هكذا خصم. ومع ذلك، لم تستسلم. تعلّقت بشعر عرفه، محاولة التسلّق إلى ظهره، وهي تعضّ طرف ذيله السميك.

لم يكن هانيبال الغاضب إلّا جحيمًا لهذه القوارض التافهة.

استغرقت المعركة وقتًا لم يبدُ طويلًا جدًّا. قاتلتُ إلى جانب اسميرالدا وإلى جانب فولفغانغ. حمينا فيثاغورس الذي كان يرصد بانتظام، بفضل عينه الثالثة الموصولة إلى كاميرات المراقبة، المعلومات المتعلّقة بالتعزيزات المحتملة للجرذان.

بدا القطّ السيامي الرمادي ذو العينين الزرقاوين هادئًا على نحوٍ مدهش وسط هذه الضجّة، كما لو أنّه كان يركّزُ ذهنه لالتقاط كلّ ما يُحيط به.

كانت كتيبته في مواجهة هذا الوضع منظّمة على نحوٍ دقيق، ومتكاملة تمامًا.

هانيبال: القوّة.

فيثاغورس: المعرفة:

وأنا: الاتصال؟

نحن الثلاثة نستطيع التغلّب على أيّ كان.

سعت جرذانٌ منعزلة إلى أن تفتعل شجارًا معي. وقد أخطأت في ذلك. فكلّ كائن يريد إلحاق الأذى بي يسير إلى خسارته في أجلٍ قصيرٍ أو متوسّط المدى. لستُ أسدًا ولكنني أمتلك قدرات المقاتلة التي لا تنضب بل تنمو باضطراد، مُلهَمةً من هانيبال. سدّدتُ ضرباتي، وقاتلتُ كما لم أفعل من قبل أبدًا، عضضتُ وثقبتُ وسحقتُ وأرفقتُ كلّ ضربة من ضرباتي بمواءٍ حادّ. نجح جرذٌ في التعلّق بظهري، فتمرّغتُ على الأرض، والتقطته وقضمتُ خطمه. عضّ آخرٌ ذيلي، فألقيتُ به نحو هانيبال الذي سحقه بضربة ماحقة من كفّه القويّ.

هاجت كلّ القطط من حولي شراسةً، وتراكمت الجرذان المقتولة فوق بعضها. تراجع بعض خصومنا إلى الوراء، فأطلق قائدهم قمبيز صفيرًا مختلفًا عمّا سبقه، وقد ردّدت الجرذان كلّها الصفير نفسه في جوقة واحدة. أوقفت الجرذان الناجية القتال في الحال وفرّت مهرولةً في الاتجاه المعاكس.

مؤتُ بأعلى صوتي:

– فلنلحق بها!

أطاعني جيشي الصغير. نكّلنا بالجرذان الأكثر بطئًا في مؤخّرة حشدها الفار، وتعقّبنا تدريجيًا جيشها المنهار.

رأيتُ قائدها وسط القوات. أردتُ الإمساك به، ولكن كان هناك الكثير من الجرذان بيني وبينه. وصلنا في النهاية إلى ساحة واسعة –والتي قال لي فيثاغورس فيما بعد إنّها تُسمى ساحة كونكورد–، ولم يعد قمبيز سوى على بعد بضعة أمتار عن مخالبي.

أردتُ هذا النصر لكي أعزّز مكانتي.

إنّ القطّة التي تهزم ملك الجرذان سوف يكون بوسعها أن تزعم أنّها ملكة القطط.

هرولت نحوه، وأردتُ النيل منه.

ركضت اسميرالدا أيضًا، والتي كانت تراقب الوضع خلفه وحاولت اللحاق به. لم يعد ينقصني سوى أن تنجح هي في النيل منه قبلي!

وفي حين كنتُ على وشك الإمساك به، غيّرت قوات الجرذان مسارها نحو جسرٍ. وقبل أن أتمكّن من التصرّف، أسرعت الجرذان الناجية إلى إلقاء نفسها في المياه الرمادية للنهر.

توقّفتُ عن اللحاق بها، فليس واردًا بالنسبة إليّ أن أبلّل نفسي. هذه هي حدود مثابرتي وإصراري. وهذه هي نفسها حدود أغلبية رفاقي. وبعض القطط المتهوّرة التي ألقت بنفسها في الماء وسبحت لتلحق بالجرذان، قُتِلَت بسهولة من قبل أعدائنا البرمائيين.

أطلقتُ تنهيدة إحباطٍ وخيبة أمل، ولكن ما أراحني هو أنني لم أخسر هذه المعركة الأولى. لقد انتصر جيشنا المكوّن من القطط.

أُنهِكَ الجميع.

عانى بطلنا هانيبال من بعض الجراح الطفيفة ولكنّه كان محاطًا بكلّ القطط، وخاصّة من قبل كلّ القطط الإناث المعجبات اللواتي كنّ يَمُؤْنَ لذّة وهنّ يحتكن به.

خرخرتُ وأخذ الآخرون يخرخرون معي.

- لقد كسبنا المعركة!

حتى هانيبال أصدر نوعًا من الخرخرة الشديدة التي هزّت أقفاصنا الصدرية.

أحبّ الانتصار.

وصل ما يقارب مئة قطٍّ من بين القطط التي كانت متردّدة ولم تلتحق بنا في البداية كتعزيزات لمساندتنا. بعد المعركة...

كنتُ أنوي أن أطردها، ولكنّ قواتنا كانت بحاجة إلى أن تكون بأكبر عددٍ ممكن. وإذ تمّ تقديمي على نحوٍ تلقائيّ كسلطة مرجعية، وافقتُ على أن أدعها تتناول لحم خصومنا المهزومين، وإن لم تكن قد شاركت في معركة الشانزليزيه. أمّا بالنسبة إليّ، لم يكن لديّ مزاجٌ لتناول الطعام. فالانفعال المفرط يُفقِدُ الشهية.

أقبل فيثاغورس نحوي ونحّاني جانبًا بعض الشيء.

سألني:

- هل تعانين من أعراض الطاعون؟ الشعور بالغثيان، نوبات حرارة، ارتعاشات؟ لقد كنّا في احتكاكٍ مع الجرذان دون أن نعلم إن كان الطاعون، الذي تنقله أغلبية خصومنا، ضارًّا بالنسبة إلينا.

تفحّصتُ حالتي الجسمانية ولكنني لم أشعر بأيّ علامة ضعف. وبدت طاقة الحياة تجري في كلّ أعضاء جسدي بطريقة مُرضية.

أجبت:

- أشعر أنني في أحسن حال.

أضاف بهدوء:

- يجب أن ننتظر لبعض الوقت الإضافي، ولكن هناك بالتأكيد خطرًا لا يُستهان به بأن تنتقل العدوى إلينا نحن أيضًا.

- على أيّ حال، إذا متُّ الآن، سيكون هذا مرافقًا بشعور أنني عشتُ لحظة استثنائية في حياتي.

وإذ قاده فولفغانغ حتى الملجأ المضاد للقنابل النووية، وافق هانيبال على أن يتابع حفر الحفرة التي كانت الجرذان قد بدأت بحفرها في الجدار القريب من البوابة المصفّحة.

نبش الأسد بمخالبه الإسمنت الذي كان قد سبق له وأن تفتّت إلى حدٍّ ما بفعل قواطع المئات من القوارض. وكان عليه أن ينهمك في نبشه عدّة مرات قبل أن يخترق قائمه أخيرًا المادّة الرمادية كما لو أنّه يخترق الورق المقوّى.

كشفت الفتحة عن غرفة غارقة في الظلام. لم تكن لنا حاجة بالضوء، فحاسة الشمّ لدينا كانت كافية لكي تقودنا إلى حيث نشاء. كان المكان نظيفًا، ولم تكن هناك أيّ رائحة للموت، أو المرض، أو العفونة. على العكس من ذلك، كانت تنبعث رائحة معقّمٍ، توقّعنا أن تكون خلفها روائح أطعمة طازجة.

كان كلّ شيء مرتّبًا في غاية الإتقان داخل أكياسٍ وصناديق وعلبٍ وقوارير. من خلال توسيع حدقتي عينيّ إلى أقصى حدّ، ومن خلال الاستفادة من الوميض الخافت للمصابيح الحمراء التي تدلّ على أماكن الأبواب، اكتشفت قوارير حليبٍ وأكياس طحينٍ، وعلب معجّناتٍ. وسرعان ما اندفعت القطط وانكبّت على الأغطية، وانتهت إلى إسقاطها أرضًا، وراحت تأكل بنهم وتلذّذ.

إلّا أنّ فيثاغورس لم يشارك في الفرحة العارمة.

نظرنا إلى بعضنا، فموّت.

فهم قصدي، فحككنا خدودنا ببعضها، وكذلك خطمينا وكفوفنا، وبعد بعض المداعبات والخرخرات، بدا لي فجأةً أنّه في أفضل حالاته تجاهي.

قال:

- ليس هنا.

صعدنا السلالم التي تؤدّي إلى طوابق قصر الإليزيه. عبرنا العديد من الممرّات والغرف الواسعة (وكم حسدته على إجادته القفز على مقابض الأبواب واستخدام وزنه بحصافة وبطريقة مناسبة في تدويرها وفتح الأبواب

بها). اكتشفنا مساحات مليئة بالنقوش المذهّبة، والستائر واللوحات الفنية، والأثاث المنحوت بمهارة. وجدنا الأرضيات مفروشة بأنواعٍ من السجاد زاهي الألوان والناعم.

وفي النهاية دلّني فيثاغورس على غرفةٍ فيها سريرٌ منصوبٌ مغطّى بغطاءٍ ذهبيّ اللون.

قال لي:

- لقد شاهدتُ هذا المكان على الإنترنت. أريد أن أمارس الحبّ في السرير المظلّل لرئيس الجمهورية الفرنسية.

لعبنا قليلًا على الحشايا وتدحرجنا عليها وقلبنا بعضنا بعضًا، وعبثنا وعضضنا بعضنا بعضًا مثل قططٍ صغيرة. دعاني للدخول إلى تحت الشرشف الذي كان يشكّل نوعًا من التخشيبة. حاول أن يحتضنني ويعانقني مثل البشر ووضع لسانه في فمي. تغلّبتُ على تقزّزي ثمّ انتهى بي الأمر إلى أن وجدتُ ذلك ممتعًا. مقلّدًا البشر مرّة أخرى، داعب حلمات أثدائي واحتضنني بقائمتيه الأماميتين.

استسلمتُ له وتركته يفعل ما يشاء. قدّمتُ له مؤخّرتي، ولكنّه بدل أن يركبني، اقترح عليّ ممارسة الجنس من الأمام. لم يكفّ عن مداعبتي واحتضاني على طريقة البشر.

كان هناك تصرّفٌ وحيد تصرّفه بالفعل مثل قطٍّ، لعب بذيله، ولفّه على ذيلي لكي يشكّل جديلةً رمادية وبيضاء وسوداء.

لعق وشمّ كلّ جسمي. ومع كلّ لمسةٍ من فمه، كانت تسري في جسدي شحنة كهربائية.

أسوأ ما في الأمر هو أنّه أخذ كامل وقته، محوّلًا هذه المداعبات التمهيدية إلى تعذيبٍ حقيقي.

توسّلتُ إليه:

- تعال!

ولكن هيهات، واصل اللعب بمداعبتي ولعقي وشمّي، ولمسي دون أن

يشرع بمضاجعتي. أصبح كلّ جسمي في قمّة الهيجان العصبي. كان أقلّ تماسٍ مع كفّه لذيذًا جدًّا.

مؤنّث:

- ضاجعني الآن، في الحال!

وبدل أن يلبّي طلبي، بدا أنّه يستلذُّ بتعذيبي. وإذا كان فيليكس ينسى المداعبات التمهيدية وسريعًا في فعل ممارسة الجنس، يمكن القول أنّ فيثاغورس كان نقيضه تمامًا. نفد صبري.

بدا لي كلّ هذا تدريجيًا على نحوٍ مبالغٍ فيه.

أمّا هو، فقد كان يتصرّف بالتدريج.

جعل جدران حمايتي تنهار ببطءٍ جدارًا تلو الآخر.

قبّل جفوني، وثبّتني على السرير. لم أعد أستطيع التحمّل.

وأخيرًا تمكّن منّي وولجني، وربّما لأنني انتظرت طويلًا جدًّا هذه اللحظة أو لأنني تفاجأتُ بهذه الطريقة الغريبة لتوحّد جسدينا وجهًا لوجه، أحسستُ باللذّة تستولي عليّ سريعًا جدًّا.

غدا حبلي الشوكي ينبوع نورٍ صعد حتى جمجمتي لكي يتفجّر على شكل مطرٍ من النجوم.

اهتززت وارتعشتُ وتشنّجتُ.

بقيتُ غارقة في تلك الانفعالات الحادّة والمشاعر القويّة التي عشتُها للتوّ.

مشاعر الخطر والمعركة وهانيبال وموسيقى كالاس والخوف والشعور بالارتياح التي جلبتها لي المعركة، وبهجة النجاة منها، وهذا السرير بناموسية، وهذه الشراشف الذهبية الحريرية، وتلك المداعبات التمهيدية التي جعلت أعصابي في حالة ثوران، كلّ هذا جعل هذه اللحظة سحرية رائعة. أحسستُ بعضوه الذكري داخل عضوي الأنثوي، وفي حين كان يعضّ رقبتي بقوّة، غزتني موجة ثانية من اللذّة أقوى من الأولى بكثير، فلم أستطع تمالك نفسي وبدأتُ أصرخ.

لم يسبق لي أبدًا أن عرفتُ هكذا إحساس.

بلغتُ النشوة.

أصبح كلّ شيء أحمر اللون في عينيّ.

نسيتُ من أكون. نسيتُ كلّ شيء. أصبحتُ في حالة ذوبانٍ تامّ مع فيثاغورس. أصبحتُ أنا فيثاغورس، وأصبح فيثاغورس أنا. لم نعد نشكّل سوى كائنٍ واحدٍ بثماني قوائم ورأسين مختبئين تحت شرشف.

غيّر وضعيته وأخذني «بطريقة طبيعية» وذلك بركوبي من الخلف. أحسستُ بلذّة مختلفة جدًّا عن الأولى. زمجر، وعضّني بقوّة أكبر في منطقة أخرى من رقبتي، ومؤتُ بصوتٍ أقوى. أدركتُ أنّ فيثاغورس هو صلة الوصل بين عالم البشر وعالم القطط، حتى في طريقة حبّه الجسدي. مارسنا الجنس عدّة مرّات، وفي كلّ مرّة كان الصعود أسرع، ويرفعني أعلى في السماء.

غدت الستارة الحمراء التي كانت تحت جفوني برتقالية اللون، ثمّ صفراء، ثمّ بيضاء، ثمّ بنّية، ثمّ سوداء.

وهنا، جاءني إلهامٌ.

لم يكن كلّ ما في داخلي سوى حبيبات دقيقة من المادّة منفصلة عن بعضها بالفراغ. أنا مكوّنة بشكلٍ أساسي من الفراغ. ومن هذه الطاقة التي تربط بين الحبيبات. وهذا هو الذي يجعلني أن أكون أنا، في هذا الشكل المحدّد، وليست سحابة مشتّتة.

ولكن ما يُنظّم ترتيب هذه الدقائق الغبارية في الفضاء هو، بكلّ بساطة... حسنًا، فكرة، فكرة أنني أصنع نفسي بنفسي.

هذه الفكرة هي التي تحافظ على انسجامي وتماسكي وتمنحني هذا الشكل الجسدي المرئي من قبل الآخرين. إنّها فكرة أنني أمتلك نفسي ما يسمح لي بألّا أحفر التربة، وألّا أختلط بذرات بقية العالم.

أنا فكرة. ولكنني أؤمن بها كثيرًا إلى درجة أنني انتهيتُ إلى إقناع الآخرين بأنني موجودة ككائن متميّز.

أعتقد أنني واحدة.

أعتقد أنني فريدة.

إذًا، أنا فريدة.

في الواقع، أنا... أنا ما أعتقد أنني أكونه.

نعم، هذا هو، إلهام تلك اللحظة الخاصّة:

«أنا ما أعتقد أنني أكونه».

وأنا سجينة الحكاية التي أرويها عن نفسي.

ولكن، هنا بالضبط، غدا الأمر مربكًا، فقد راودتني فكرة ثانية:

«أستطيع أن أكون أكثر مما أنا عليه».

لو أنني شكّكتُ في هذا الاعتقاد، لو أنني تجرّأتُ على التخيّل، لو أنني أشرتُ إلى احتمال أنني أستطيع أن أكون أكثر من (مجرّد أنا)، لو أنني اعتقدتُ أنني اثنان، نوعٌ من التوحّد بين فيثاغورس وباستيت، وبالتالي كبرتُ. ويمكنني أن أكبر إلى درجة أن أدرك بأنّ جسدي لم يعد سوى ما يشبه نقطة الانطلاق، فردانية محدودة قابلة لأن تتوسّع إلى ما لا نهاية لكي تشتمل على كلّ شيء. أستطيع أن أكون... الكون في شموليته.

هذه هي فكرتي الثالثة.

«أنا لامتناهية».

بلغتُ النشوة. منحني هذا المفهوم شعورًا بالغثيان قويًّا جدًّا بحيث، ما كدتُ أن أدعه ينبثق، حتى نبذته ولجأتُ إلى السجن الضيّق الآمن لجسدي. عاد عقلي إلى دماغي، وتحدّد تفكيري بدارة حواسي وجسدي. لم أصبح بعد جاهزة لأكون «لامتناهية». لستُ إلّا شخصًا واحدًا، هذا صحيح. أنا قطّةٌ. مجرّد قطّة أتتها لحظة من الإدراك الغريب، لحظة سحرية ولكنّها عابرة.

تذكّرتُ أنني لستُ سوى...

– باستيت... باستيت!

ناداني أحدهم. أحدٌ ما يتوجّه إليّ بالكلام. فتحتُ عينيّ.

قال لي فيثاغورس:

– لقد خفت، اعتقدتُ أنّكِ متِّ.

– كلا... لقد... لقد أدركتُ أمرًا. ولكنّ هذا أرعبني بعض الشيء. لم أكن أعلم أنّ هذا ممكنٌ. لستُ مهيّأة بعد لتلقي معلومة بهذه الدرجة من القوّة.

نظر إليّ بتركيزٍ ولكن دون أن يبدو أنّه يفهم ما كنتُ ألمّح إليه. وإذ نال الإنهاك منّا، استلقينا جنبًا إلى جنب، بطننا مكشوف وقوائمنا ترتعش.

- حسنًا، أنتِ، الإدراك يترك أثره عليكِ! ماذا فهمتِ؟

- فهمتُ أننا من فراغٍ منظّمٍ بفكرة أننا نصنع أنفسنا بأنفسنا.

تنهّد بعمق.

- شيءٌ ممتع.

- إنّ الفكرة تمنحُ لهذا «اللاشيء» مظهرَ جسدٍ ومفهوم أن يكون المرء فردًا. ونحن نعتقد أنّه «تحدث» أشياء لهذا الشخص الذي هو ليس في الواقع... سوى فكرة. ولكنّه يكفي أن نتصوّر بأننا أكبر من غلاف جلدنا حتى نصبح لانهائيين. في الواقع، نحن لسنا سوى ما نعتقد أننا نكون.

اعترف فيثاغورس:

- أنتِ تبهرينني.

- عادةً أنت منْ تُبهرني.

- تُرى هل يمكن أننا خلقنا لكي نكمل بعضنا؟

في الغرفة المجاورة، سمعتُ فولفغانغ واسميرالدا وهما يمارسان الجنس.

لفتُّ انتباهه:

- لقد ألهمناهما. لقد لحقا بنا.

قال فيثاغورس:

- الحبُّ مرضٌ معد. كلّما زاد عدد الذين يمارسونه، زاد عدد الآخرين الذين يرغبون في ممارسته.

اسميرالدا، بدورها، صاحت لذّة ومتعةً ووصل صوت صراخها عبر الحاجز.

فيما بعد، انضم إلينا جارانا. فتوجّه فولفغانغ نحو خزانةٍ صغيرةٍ: ثلّاجة. أدار مقبضها وفتح بابها واكتشفنا العديد من المرطبانات على الرفوف الداخلية. اختار من بينها مرطبانًا مليئًا بحبيبات صغيرةٍ سوداء.

سألتُ، مرتابةً:

- ما هذا؟

أجاب فيثاغورس:

- إنّه كافيار. إنّه بيض السمك.

كانت حبيبات صغيرة، كروية، سوداء. كنتُ أعتقد أنّ بيض السمك أبيض اللون. شممتُ الطعام بحذر: كانت رائحته طيّبة. غمستُ كفّي في المرطبان الصغير ورفعته إلى طرف لساني لأجرّب مذاقه. تفجّرت الكريات الصغيرة تحت أضراسي وأطلقت عُصارةً لذيذة دسمة ومالحة. وجدتُ مذاق هذا الطعام لذيذًا بالفعل. بل وجدتُه ألذّ من الأطعمة الخاصّة بالقطط. أخذتُ كمية أخرى منه. وكلّما أكلتُ أكثر، أعجبني هذا المذاق الخاصّ جدًّا أكثر. لم يسبق لي قط أن أكلتُ شيئًا على هذا القدر من اللذّة.

بدا فيثاغورس أيضًا أنّه يأكل بتلذّذٍ من بيض السمك الأسود هذا، وسرعان ما أكلنا جميعًا بشراهةٍ ونهم من هذا الغذاء البشري الفاخر.

أنا أعشق الكافيار! لا أريدُ أن آكل بعد الآن سوى هذا.

لعقتُ شفتيّ.

أنا فخورةٌ بكوني قطّة، وبإنجازي لما حقّقته.

أنا فخورةٌ بفهمِ ما فهمته: كلّ شيء مرتبط بكلّ شيء، وحدود المادة ليست سوى معتقدات ذاتية.

في حين أشرقت الشمس، نمنا نحن الأربعة متكوّرين على بعضنا بعضًا، ونكهة الكافيار المستمرّة في أفواهنا، وذكرى معركةَ الشانزليزيه الرائعة في ذاكرتنا.

أنا سعيدة.

أنا أحبّ فيثاغورس.

أنا أحبّ نفسي.

أنا أحبّ الكافيار.

أنا أحبّ الكون.

-22-

نقل المعسكر

وُضِعَ كفٌّ على عيني. وعضّ أحدهم شحمة أذني. لم يمنحني هذا الرغبة في الاستيقاظ. ثمّ التصق بحلمات أثدائي. إنّه أنجيلو برعونته المعتادة. كنتُ قد انتهيتُ إلى عدم التفكير بهذا الابن الشقي منذ بعض الوقت. لا بدّ أنّ أحدًا ما قد جلبه إلى هنا، لكي يكون قريبًا منّي، بينما كنّا نائمين.

وافقتُ على أن أفتح عينيّ وأن أتّخذ وضعية أفضل لكي أحثّه على الاستفادة من حليبي.

كان الليل قد هبط في الخارج، وانتبهتُ إلى أنني، لمرّة واحدة، لم أستيقظ مع حلول المساء.

كان فيثاغورس قد استيقظ، ووقف أمام النافذة، وراح يحدّق في حدائق الإليزيه.

قال من دون أن يلتفت إليّ:

- لديّ خبرٌ سارّ وآخر مزعج. الخبر السار هو بما أنّه ليس هناك مريضٌ بيننا، أستنتج من ذلك أننا محصّنون ضدّ هذا الطاعون الجديد الذي يُصيب البشر. وبالتالي، يمكننا أن نواصل قتال الجرذان من دون خوفٍ من الإصابة بالعدوى.

سألتُ وأنا أتحرّر من أنجيلو:

- وما هو الخبر المزعج؟

- لقد نفدت بطارية هاتفي الذكي، ومن جرّاء ذلك، لم يعد لديّ

إنترنت. المرّة الأخيرة التي استخدمتُ فيها عيني الثالثة، كانت الجرذان الناجية من المعركة تلملم صفوفها وقد بدأت بالبحث عن تعزيزات إضافية. من الآن فصاعدًا، لن يعود بوسعي أن أعرف ما الذي تفعله الجرذان، ولا ما هي خططها، سوف ترغب بكلّ تأكيد في أن تأخذ بثأرها.

اقتربتُ منه ولكنني أحسستُ بأنّه متحفّظٌ.

بعد الذي حدث البارحة، بدا لي غريبًا أن أتكلّم مع فيثاغورس.

عدتُ أدراجي سريعًا ونظرتُ إلى نفسي في المرآة الكبيرة الموجودة في الغرفة.

هذا هو معنى أن أكون إلهة، أن أتذكّر بأنني «كلّ شيء» وأنّ كلّ شيء موجود في داخلي. أن أكون قطّة هو أن أكون محدودة داخل كياني الجسدي البسيط.

فركتُ عينيّ - فليكن، لقد تخلّيتُ عن العيش باستمرار في فكرة أنني كلّ شيء- وواصلتُ نقاشًا عاديًا مع القطّ السيامي.

- بعد هذه الهزيمة، لن تجرؤ الجرذان مرّة أخرى على أن تأتي إلى هذه المنطقة.

ردّ عليّ مباشرةً، مؤكّدًا:

- سوف تجرؤ.

- وسوف نقهرها من جديد. لدينا هانيبال.

- سوف يصبح عددها أكبر، ولن نعود نستفيد من عامل المباغتة.

- ومع ذلك سوف ننتصر.

قال بلهجة حاسمة:

- لم يعد بوسعنا البقاء هنا.

بدا متوتّرًا وعصبيًا. أدركتُ أنّه قد أصبح الآن كما لو أنّه أعمى، لكونه محرومًا من المعلومات الدقيقة المقدّمة من عينه الثالثة، وأنّ اتّصاله بالإنترنت بالنسبة إليه مثل نعناع الهرّ الحقيقي بالنسبة إلى فيليكس: مخدّرٌ مسبّبٌ للإدمان.

دار فيثاغورس في الغرفة.

قال مضطربًا:

- يجب أن نبحث عن متجرٍ خاصٍّ بالهواتف لكي نعثر على بطارية، وأشرطة وتيار كهربائي. أو الأفضل من ذلك، ما يلزمنا هو بطارية قابلة للشحن بالطاقة الشمسية، وبذلك لن نعود مرتبطين بمصادر كهربائية بلدية والتي سوف تتعطّل كلّها تدريجيًا، إن لم تكن قد تعطّلت أصلًا.

قالت اسميرالدا التي كانت قد استيقظت للتوّ وحاولت أن تفعل شيئًا مفيدًا:

- «متجرٌ خاصّ بالهواتف»؟ حبّذا لو تشرح لي ما المقصود بهذا، أعتقد أنني أستطيع العثور على هذا.

أشار فيثاغورس إلى العدّة المثبّتة على ظهره.

تدخّل القطّ الرئاسي، الذي استيقظ هو الآخر:

- أنا أعرف أين توجد متاجر هذه الأدوات. هناك العديد منها في جادة الشانزليزيه.

سألتُ:

- هل يمكنني الذهاب معكم؟

أوضح فيثاغورس:

- كلا، ليس أنتِ، يا باستيت، سوف أحتاجكِ في أمرٍ آخر.

توقّف عن الدوران دائريًا في الغرفة ولفظ كراتٍ من الوبر كلّ خمس دقائق، وهذه علامة على قلقٍ وتوتّرٍ شديدين بالنسبة إليه.

وبدافع التضامن معه، قلّدته في ذلك.

قال:

- ما أن نستعيد الاتصال بالإنترنت، سوف يكون علينا أن نبحث عن مكانٍ آمن. الآن لدينا مسؤوليات جديدة. يجب أن نقود كلّ هذه القطط التي لحقت بنا. إنّ البقاء هنا والاستمتاع بنصرنا العابر سوف يؤدّي إلى هزيمة مؤكّدة.

بدا أنّه لا يزال في غاية القلق.

اقترحتُ عليه، وأنا أقدّم له قليلًا من الكافيار الذي تبقّى من الليلة الماضية:

- فلنعد إلى الاختباء في الغابة.

- سوف نُطوَّقُ بسهولةٍ ونُحاصرُ ونُغزى بعددها الكبير جدًّا.

- إذًا، هل نرحل عن المدينة ونحن نحمل معنا مخزوننا من الأغذية؟

- بل سوف نستقرُّ بدلًا عن ذلك في مكانٍ يمكننا فيه أن ندافع عن أنفسنا بسهولة ضدّ هجومٍ واسعٍ من قبل الجرذان.

أمضينا السهرة في انتظار أن يعود فولفغانغ واسميرالدا من رحلتهما. وقد وصلا بعد حينٍ وهما يلوّحان بالمواد المطلوبة في فمهما. عملنا، نحن الأربعة، بعد ذلك على توصيل الأشرطة من أجل إعادة شحن البطاريات. وفي النهاية، وبعد ساعات طويلة من العمل، استطاع فيثاغورس أن ينعم باستعادة عينه الثالثة.

لم ينتظر للحظة واحدة لكي يغوص في عالم الإنترنت.

دُرنا وتحلّقنا حوله، ولكنني أعلم أنّه في هذه اللحظة يكون بالفعل بعيدًا، محلّقًا في مكانٍ آخر، فوقنا، على البعد الذي يقدّمه هذا الجهاز السحري المصنوع من قبل البشر.

قال أخيرًا:

- لقد وجدتُ المكان المناسب.

توقّفنا، اسميرالدا وفولفغانغ وأنا، عن الحركة الدؤوبة واقتربنا منه.

- لقد بحثتُ عن مكانٍ في باريس لا توجد فيه لا أنفاق ولا أقبية ولا قطارات الأنفاق ولا مجارير. إنّه مكانٌ ضيّقٌ جدًّا يُسمى جزيرة البجع.

- جزيرة؟

- في الحقيقة، هي جزيرة في النهر.

صرختُ، وقد أزعجتني فكرة أن أكون محاطة بالمياه:

- ولكننا لا نُجيد السباحة!

- سوف يمكننا الوصول إليها عبر الجسور، وبعد ذلك سوف نصبح في مكانٍ يمكننا أن ندافع عن أنفسنا فيه بسهولة أكثر من وجودنا في مجرّد حيٍّ عادي. تبقى أمامنا مشكلتان. في البداية، سيكون من الضروري العثور

على وسيلة لنقل كلّ الطعام إلى جزيرة البجع لكي نستطيع أن نتّخذ لنا مقرًّا هناك. ومن ثمّ سوف يلزمنا كائنٌ بشري يكون خبيرًا بنسف الإنشاءات لكي ينسف الجسور حالما نستقرّ على الجزيرة.

– بعد كلّ ما أنجزناه وحدنا، ألا تعتقد أننا نستطيع النجاح من دون مساعدة البشر؟

– ليس في هذه المرحلة. أنا آسف، فأنا خبيرٌ في تلقي المعلومات الرقمية، ولكن ليس في مجال المتفجّرات.

– كانت ناتالي تنشط في ورشة بناء، وقد رأيتها تنسف بيوتًا.

– ممتاز. هذا بالضبط ما يلزمنا.

– لا أعلم أين هي حاليًا.

قال فيثاغورس:

– أستطيع العثور على خادمتكِ بفضل قلادتك المُرشِدة. إنّها موصولة مع هاتفها الذكي المزوّد بدوره بجهازٍ خاصّ لتحديد المواقع (جي بي أس). علينا فقط أن نأمل أن يكون هاتفها لا يزال مشحونًا.

استغرق من جديد في الإنترنت، ثمّ أعلن:

– لقد شكّلت القطط جماعةً في غابة الغرب، وقد أقام البشر الشيء نفسه في غابة الشرق، في قلب غابة فانسن. أقصد، ليس كلّ البشر، إنّهم بشكل أساسي أطفالٌ صغارٌ قُتِل آباؤهم خلال الحرب. وقد انضمّت ناتالي إلى هذه الجماعة التي يبدو أنّها تتوفّر على وسائل الاتّصال.

– هل أنت متأكّدٌ من أنّ ناتالي موجودة هناك؟

– إلى أي مرحلة من التواصل كنتِ قد وصلتِ معها، يا باستيت؟

أجبتُ لكي أواصل التأثير عليه وإبهاره:

– كنتُ قد بدأتُ أنجح في التكلّم معها.

بكلّ تأكيد، كانت هذه كذبة.

– ممتاز. بمساعدتها سوف نبني ملجًا فوق جزيرة البجع.

ألحّ فولفغانغ على السؤال:

– هل فعلًا لا يمكننا أن ننجح في القيام بذلك من دون البشر؟

– الجرذان أكثر عددًا منّا بكثير، وسوف تتكاثر بسرعة ودائمًا بأعدادٍ كبيرة تفوق قدرتنا على قتلها.

لم ترق لي أبدًا فكرة أن نعود ونعبر المدينة من الغرب إلى الشرق لكي نذهب للبحث عن خادمتي. مع ذلك، أدركتُ جيّدًا أنّه حتى وإن كانت قدرتي على الإرسال وقدرتها على التلقّي ضعيفتين، فمع ذلك أنا المؤهّلة أكثر من غيري على أداء هذه المهمّة الحسّاسة بنجاح.

– هل سترافقني، يا فيثاغورس؟ سوف أحتاج إلى أن يتمّ إرشادي على نحوٍ أكثر دقّةً إلى آثار ناتالي.

– كلا، سأنظّم عماية لجوء جيشنا إلى جزيرة البجع.

اندهشتُ لكونه لم يعد «متحمسًا للاتصال» تجاهي، بعد كل ما عشناه معًا، وكلّ ما تقاسمناه بين بعضنا، وكلّ ما قلناه لبعضنا.

– وكيف سأتصرّف بعد ذلك لكي أعود وأنضم إليك؟

– سوف يكفيكِ أن تتابعي مسار نهر السين. هناك ثلاث جزر: جزيرة متوسّطة، وهي جزيرة سانت لويس، وجزيرة كبيرة، وهي جزيرة المدينة، وجزيرةٌ صغيرة، وهي جزيرة البجع. لا يمكن أن تخطئي في العثور عليها.

قالت اسميرالدا:

– سوف أذهب معكِ. ربّما سنكون أقوى إذا ما كنّا اثنتين معًا.

اقترح فولفغانغ:

– يمكنني أنا أيضًا أن أرافقكِ. لن يكون عددنا نحن الثلاثة كبيرًا.

– سوف أذهب بمفردي! اسميرالدا، إذا كنتِ تريدين حقًّا أن تساعديني، أودّ أن تُرضعي أنجيلو بغيابي.

تقدّم فيثاغورس نحوي، وقال:

– ممتاز، في هذه الحالة، سوف يحدث تغييرٌ في خطّتنا. سوف يذهب

فولفغانغ واسميرالدا لحماية وحراسة الملجأ المضاد للقنابل النووية مع جيشنا الصغير من القطط، وأنا سأرافقكِ حتى نصل إلى غابة فانسن.

إذًا، لقد تطلّب الأمر أن أهدّد بالذهاب إلى هناك بمفردي لكي يلحق بي... كما لو أنّه بالفعل قد نسي عناقنا وممارستنا للجنس.

أقلقني فيثاغورس. أحسستُ بأنّه يشعر بالخجل من الاستسلام لمبادراتي وتقرّبي منه. إلّا إذا كان لا يزال يخاف من الوقوع في الحبّ.

يبدو أنني لن أفهم أبدًا سلوك الذكور. وأعتقد أنني مع هذا الذكر بالذات قد صادفتُ ذكرًا «معقّدًا».

-23-

الطريق الدائري

بدأت المغامرة حالما غادرنا القصر.

بدت لي حياتي القديمة (مع الوسادة الحمراء والأطعمة الخاصّة بالقطط والتلفزيون ووعاء شربي الخاصّ، وفيليكس...) بعيدة جدًّا وصارت من الماضي.

أصبحنا، فيثاغورس وأنا، من الآن فصاعدًا نئنّ تحت تحدّيات جديدة وفي بيئات جديدة.

أصبحنا نتقدّم في عالمٍ محفوفٍ بالمخاطر، ومليءٍ بالمفاجآت، وثريٌّ بالمعلومات والمعارف. أصبحتُ أنجذب أكثر فأكثر إلى كلّ ما يدهشني وكلّ ما كنتُ أجهله. أصبحتُ أشعر أنّ كلّ هذا يغذّي وعيي ويُتيح له أن تتوسّع مداركه أكثر فأكثر.

روائح. صخبٌ. ضجيجٌ. لقاءات. رؤى. أحاسيس. مشاعر.

أصبح كلّ ما هو جديد يُبهرني.

بالنسبة إلى هذه الرحلة نحو غابة الشرق، آثر فيثاغورس أن يسلك الطريق الدائري. وذلك بكلّ بساطة لأنّه لا توجد على هذا الطريق لا فتحات المجاري ولا مخارج قطار الأنفاق، ولا أكوام القمامة على طول هذا الشريط الإسفلتي العريض، الأسود اللون الذي يطوّق المدينة. وبالتالي، سوف تكون بكلّ تأكيد مخاطر تعرّضنا لهجمات من قبل قطعانٍ من الجرذان أقلّ احتمالًا.

حينما وصلنا إلى مستوى محطّة بورت مايو لقطار الأنفاق، اكتشفنا حطام آلاف السيارات المهجورة.

شرح لي فيثاغورس:

– لقد استولت موجة من الهلع على جميع البشر في المدينة عندما دقّ جرس الإنذار بشأن الطاعون. وفي حين حبست غالبية الناس أنفسهم في منازلهم، أراد بعضهم أن يحاولوا الفرار بسياراتهم لكي يصلوا إلى الطريق السريع في الغرب، الطريق «أيه 13». استطاعت الدفعة الأولى من السيارات أن تعبر المخرج دون صعوبة، ولكن سرعان ما عرقلت حالات الازدحام والاختناق المروري حركة السير على الطرقات. وتحوّل الجري نحو الحياة إلى جريٍ نحو الموت. لا بدّ أن بعضهم قد حاولوا المرور عنوةً، فصدموا الآخرين وانتهى بهم المطاف إلى أن وضعوا أنفسهم في حالةِ حصارٍ.

– لا بدّ أنّه كان لهم نبوخذ نصر خاصّتهم وقد حثّهم على الذهاب نحو البحر حتى يكون عدد الذين اتخذوا خيار الفرار كبيرًا إلى هذا الحدّ.

واصل فيثاغورس شرحه:

– الطريق السريع «أيه 13» أيضًا لا بدّ أنّه قد قُطع تمامًا من جرّاء الازدحام في وقتٍ قصيرٍ جدًّا.

– وبعد ذلك ما الذي حصل برأيك؟

– وسط هذا الذعر العامّ والهروب الجماعي، لا بدّ أنّ سائقي السيارات الذين حوصروا في سيارتهم قد حاولوا الفرار جريًا على الأقدام عبر الغرب، من يدري إن كان بعضهم قد نجح في ذلك...

تقدّمنا، فيثاغورس وأنا، على أسطح السيارات المهجورة. وهذا ما قلّل فرصة أن نتعرّض للقاءٍ مشؤومٍ مع الزواحف أو البشر أو الكلاب أو الجرذان. من على هذه الأمكنة العاليّة، رأينا على الأرض السائقينَ من ذوي الحظّ السيئ وهم منهارون على مقاود سياراتهم، وكذلك الجرذان وهي تزحف من حولهم.

– الآن وقد أكلت الجرذان لحم البشر، لن يعود أيّ شيء يُخيفها.

دوّت أصواتُ انفجارات قويّة من بعيد، كما لو أنّها تؤكّد على أقواله. لقد تعرّضت شاحنة صغيرة لرجالٍ يرتدون زيًّا موحّدًا برتقالي اللون إلى هجومٍ من قبل حشودٍ من الجرذان. فدافعوا عن أنفسهم باستخدام أسلحتهم الرشّاشة وباستخدام قاذفات اللهب، ولكنّ الجرذان غمرتهم بأعدادها الهائلة، وتوقّف تدريجيًا أزيز الرصاص ليحلّ محلّه أصوات صريرٍ حادٍّ تُعلن النصر.

أشار فيثاغورس:

– سيكون علينا أن نتصرّف بسرعة. لم تتناول الجرذان بعد ما يكفي من لحم القطط حتى نصبح من بين أولوياتهم، ولكننا على الأرجح سوف نكون الهدف التالي على قائمة طعامهم.

أسرع فيثاغورس، وتردّدت أصداء قفزاته على الأسطح المعدنية حولنا. حاولتُ أن أتّبع الإيقاع نفسه وكدتُ أن أنزلق أكثر من مرّة، ولكنني حظيتُ بالوقت الكافي لكي أتجنّب السقوط إلى الأسفل حيث كانت هناك جرذانٌ جاهزة لتتلقّفني.

كان عليّ أن أركّز جيّدًا وأن أنظر بدقّة إلى المكان الذي أنزل فيه عند كلّ قفزة.

كانت أسرابٌ من الغربان تحوم في السماء، من فوقنا، وعبرنا في بعض الأحيان أسرابًا من البعوض كانت تشكّل سحبًا هائجة تغطّي المكان.

أمرني رفيقي في الرحلة:

– دعينا لا نضيّع الوقت.

قفزنا، فيثاغورس وأنا، من سطحٍ إلى سطح، جنبًا إلى جنب، بطريقة متزامنة تمامًا. حتى أنفاسنا كانت تخرج متزامنة ومتناغمة.

انكمشتُ على نفسي، وتمدّدتُ، هبطتُ على أقدامي، وانطلقتُ من جديد. ولكثرة ما مشيتُ، سخنت كفوف أقدامي. كان رتل السيارات هذا لا ينتهي. وازدادت شيئًا فشيئًا أعداد الجرذان التي كانت تتوعّدنا.

كان علينا بشكلٍ خاصّ أن نحذر السقوط.

بعد مضي ساعة من السير، وافق فيثاغورس على أن نتوقّف لاستراحةٍ قصيرة. وجدنا ملاذًا داخل سيارة شاحنة.

هناك، داخل الشاحنة، نظرتُ إليه مليًّا، وشعرتُ من جديد بغريزة محبّة صافية في نظرته. ولأنني لم أجرؤ على أن أطلب منه أن يحتضنني برقّة وحنان (الأمر الذي كنتُ أرغبُ فيه أكثر من كلّ شيء آخر في الدنيا، في تلك اللحظة)، طلبتُ منه أن يروي لي تتمّة حكاية البشر والجرذان.

لعق أحد قوائمه لكي يبرّد كفّه، ومرّره على أذنه، واعتبر بأنّه لا يزال لدينا في الواقع متّسعٌ من الوقت بما يكفي لفعل هذا، ثمّ استأنف سرده من حيث توقّف خلال آخر درسٍ لنا.

– بدءًا من أعوام التسعينيات من القرن العشرين، لم تعد تُعتبَر القطط رمزًا للسحر والشعوذة، وإنّما للحرية. وغدا القطّ الأسود رمز الحركة الفوضوية. وأصبح مناصرو هذا الحزب يرسمون قططًا على أعلامهم.

– ما معنى «فوضوية»؟

– إنّها حركة سياسية تهدف إلى إسقاط الحكومات القائمة من أجل العيش بدون أيّ زعيم. إنّهم ضدّ الشرطة، وضدّ الجيش، وضدّ المتدينين، وضدّ كلّ شكل من أشكال السلطة.

– هل كان عددهم كبيرًا؟

– كلا، ولكنّهم كانوا ملتزمين بعزمٍ وإصرار. لقد اغتالوا على سبيل المثال بعض الملوك، وبعض الوزراء، وحتى بعض الرؤساء.

– لكي يأكلوا ما في خزائنهم من كافيار؟

– ولشدّة زعزعة استقرار الحكومات، تسبّب هجومٌ فوضويٌّ في سارايفو ضدّ إمبراطورٍ نمساوي إلى اندلاع الحرب العالمية العظمى الأولى.

– ما معنى «حرب عالمية»؟

– هذا يعني أنّ جميع البشر الأحياء يكونون في حالة حربٍ.

– كلّ البشر من دون استثناء، وفي كلّ مكان على الكوكب؟

– كانت هناك مناطق نزاعٍ أكثر سخونة من سواها.

– وأين كنّا نحن في كلّ هذا؟

– في عام 1914، شكّل الإنكليز كتيبة من القطط مهمّتها الكشف عن الغازات السامّة قبل أن يتأثّر بها البشر.

– وبالتالي كان على القطط أن تموت في سبيل إنقاذ البشر... هل نجحت في ذلك؟

– لقد تسبّبت الحرب العالمية الأولى بموت 20 مليون شخصٍ. استمرّت أربعة أعوام، تلتها عشرون سنة من السلام.

– إنّها مدّة طويلة.

– كان هذا هو الوقت الضروري من أجل إظهار جيلٍ جديدٍ من البشر الذين كانوا يجهلون الآثار المدمّرة التي تخلفها الحرب. وشُنّت الحرب العالمية الثانية من قبل دكتاتورٍ ألماني يُدعى هتلر.

– هو الآخر كان يكره القطط، أعتقد أنني أتذكّر هذا الشيء، أليس كذلك؟

– في الواقع، كان يعاني من رُهاب القطط. في هذه الحرب، انخرط المزيد من البشر، وهم بالملايين والملايين. واستخدموا أسلحة أكثر فتكًا ودمارًا، وبالتالي كان هناك أيضًا المزيد من القتلى الذين فاقت أعدادهم على أعداد القتلى في الحرب الأولى.

– هذه هي نظريتك التي تقول ثلاث خطوات إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء؟

– وبعد ذلك، من جديد ثلاث خطوات إلى الأمام حتى الانهيار التالي. تسبّبت الحرب العالمية الثانية بمقتل خمسة وستين مليونًا من البشر. ثمّ خلال سنوات، أصبح الروس والأمريكيون في حالة عداء وفي حالة تأهّبٍ عسكريٍ دائم، لكنّ القنبلة الذرية جعلتهم يفكّرون في الأمر ويمتنعون عن مهاجمة بعضهم. وبدل أن يخوضوا حربًا جبهوية، اختاروا «حربًا باردة».

– وما معنى هذا؟ هل كانوا يتقاتلون وسط الثلج؟

– كانوا يستخدمون بلدانًا من العالم الثالث لكي يتواجهوا من خلالها، ولكن من دون خوض الحرب بطريقة مباشرة. في عام 1961، قرّر الجيش الأمريكي أن يصنع قطًّا إلكترونيًا للتجسّس على سفارة روسيا. لقد أدخلوا أجهزة كهربائية ومعدّات إلكترونية إلى داخل جسمه.

– كما هو حالك الآن إلى حدّ ما؟

– سوى أنّه في تلك الحقبة، لم تكن التقنيات الإلكترونية مصغّرة إلى هذا الحدّ. لقد أجروا عملية لذلك القطّ الذي كان يُدعى كيتي، لكي يركّبوا بطارية كبيرة داخل بطنه، موصولة إلى لواقط صوت موضوعة في أذنيه وهوائي معدني في ذيله. كانت المهمّة تُسمى «عملية الهُريرة الصوتية». في اليوم المحدّد، وضع العلماء كيتي أمام السفارة. وُجِّهَت كيتي لكي تدخل إلى المبنى المُستهدَف، ولكنّه عصى الأوامر وخرج منه. والذين كانوا يتجسّسون صوتيًا، سمعوا دويّ ضجيجٍ صاخب.

– هل تعطّلت المادة الإلكترونية؟

– دهست سيارةُ أجرةٍ كيتي. ولكن رغم كلّ شيء، أعاد العسكريون الأمريكيون التجربة، وقد أجريت عمليات جراحية لما يقرب عشرة قطط بهذه الطريقة لكي تُحوّل إلى جواسيس إلكترونية. ولكن لم ينجح أيّ منها في تنفيذ مهمّته.

– ربّما كان عليهم أن يأخذوا كلابًا، فهي أكثر طاعةً.

بينما كنّا نتناقش، لمحتُ كائنًا بشريًا جريحًا يصعد باتجاهنا، وتسلّق حتى وصل إلى زجاج السيارة وتفوّه بكلماتٍ غير مفهومة. كان جسمه مغطّى بأورامٍ وانتفاخاتٍ خضراء اللون. كنتُ مشغولةً جدًّا بسرد فيثاغورس ولذلك لم أعِره المزيد من الانتباه.

– خلال هذه الحرب الباردة، في عام 1963، أُرسِلَت قطّة إلى الفضاء الخارجي. كان اسمها فيليسيت. لقد أُطلقت في كبسولةٍ على متن مركبة فضائية فرنسية قامت برحلة فضائية لمدّة عشر دقائق، منها خمس دقائق في حالة انعدام الوزن، وأُعيدت إلى الأرض حيّة. وكانت هذه أوّل قطّة تصبح رائدة فضاء.

تخيّلتُ قطّة وحيدة في مركبة فضائية، وقلتُ في نفسي ليتني كنتُ في مكانها.

- من بين القطط الشهيرة، يمكنني أن أذكر أيضًا الآنسة شيبي، التي رافقت أوّل رحلة إلى القطب الشمالي، وكذلك القطّ ستابس، أوّل قطّ يُنتخَبُ عُمدةً، في عام 1997، لمدينة تالكيتنا في ولاية ألاسكا.

شعرتُ بالفخر لكوني قطّة.

- في الوقت الحالي، هناك عشرة ملايين قطّ في فرنسا، وخمسون مليونًا في أوروبا. وثمانمئة مليون في العالم.

الرجل المريض الذي كان يحاول تسلّق شاحنتنا استسلم وسقط على الأرض من جديد.

- وكم هو عدد البشر؟

- ربّما سيبلغ عدد البشر عمّا قريب ثمانية مليارات.

إذا، يبلغ عدد البشر عشرة أضعاف القطط.

- وكم هو عدد الجرذان؟

- إنّ عملية إحصائها أصعب بكثير، ولكن مع تزايد المدن الكبيرة ذات الأقبية المليئة بالمجارير وأنفاق المترو، يُعتَقَد أنّها قد تكاثرت على نحوٍ كبير.

- أعطني رقمًا، حتى ولو كان تقريبيًا.

- على الإنترنت يُقدّر أنّ عدد الجرذان يزيد على عدد البشر على الأقل بثلاثة أضعاف: أي حوالي 24 مليارًا.

- أكثر منّا بثلاثين مرّة!

لم أكن أدرك أنّ الوضع كان لصالح هذه القوارض اللعينة إلى هذه الدرجة.

- في الواقع، هناك على الأرجح أكثر من هذا العدد بكثير لأنّه لم يمتلك أيّ عالم بشري الشجاعة للذهاب والبحث عنها وإيجادها في العالم السفلي لإحصائها. الأمر يتعلّق بتقديرٍ إجمالي. ولكنني وجدتُ دراسةً أكثر إثارةً للقلق بكثير. لقد اكتشف عالمٌ بشري أنّه من جرّاء ارتفاع درجات الحرارة،

تصبح الجرذان أكبر حجمًا وأكثر بدانةً باضطراد. وأنّ الحرارة سوف تزيد من خصوبتها ولكن أيضًا ستزيد عدد الأمراض التي تنقلها دون أن تُصاب هي نفسها بهذه الأمراض.

- أيّ حجم؟

- لقد ذكر الباحثون الذين أعدّوا هذه الدراسة إمكانية أن يتضاعف الحجم.

- إذًا نحن جميعًا هالكون.

- حتى هذه اللحظة، التكنولوجيا التي يستخدمها البشر تحميهم وتحمينا نحن أيضًا، ولكن إذا قُتِل العلماء لكي يحلّ محلّهم رجال دين وسياسيون دوغمائيون، وإذا نسي البشر معارفهم العلمية وفضّلوا أن يستهلكوا طاقتهم في تدمير بعضهم بالصراع بين الجماعات المتنافسة بدل أن يتوحّدوا من أجل الكفاح ضدّ الجرذان، فإنّ هذه الجرذان سوف تصبح من كلّ بدٍّ أسيادهم. إنّها ليست سوى مسألة وقتٍ.

- هنا؟

- ليس فقط في باريس، وإنّما في كلّ مدن البلاد، ومن ثمّ العالم. ليس هناك مكانٌ واحدٌ على الكوكب لا توجد فيه جرذانٌ، وليس هناك مكانٌ واحدٌ لا تُحاصر فيه الجرذان، كما هي الحال هنا، البشر وكلّ الأجناس الحيوانية الأخرى لكي تفرض هيمنتها.

كيف سيكون عالمٌ تنتصرُ فيه الجرذان؟ سوف يختبئ البشر والقطط في الغابات، والأرياف، وسوف يهجرون المدن الكبيرة. وسوف يزرع قمبيز وحشوده من المحاربين ذوي الأنياب القاطعة الرعب.

عبثًا أحسستُ أنني منسجمة مع الكون ومسايرة له، فلا أدري لماذا أرى طاقة الجرذان كطاقة سوداء لن تساهم في الارتقاء العام للوعي والضمير.

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أحسستُ أنّ مسؤوليتي، في هذه اللحظة التي أعرف فيها التهديد، جسيمة.

سألتُ القطّ السيامي:

- كيف وصلنا إلى هذه الحال؟

– من خلال القضاء على الكثير من الأجناس البرّية من أجل إعطاء الأولوية للأجناس الأليفة أو الأجناس التي تفيد كماشية، قضى البشر بشكلٍ خاصّ على الحيوانات الطبيعية المفترسة للقوارض: مثل النسور والذئاب والدببة والثعالب والثعابين.

– لقد حطّموا التوازن الهشّ الذي يحافظ على انسجام الطبيعة. يا له من خطأ شنيع!

– وبإنشاء شبكة المجاري، قدّموا لها هدّية ممتازة لا تنزعج فيها أبدًا. ولكن يجب الاعتراف أيضًا بأنّ الجرذان موهوبة بذكاءٍ وبقدرة استثنائية على التكيّف.

– ولكنّها مع ذلك أقلّ قوّة منّا.

– نحن ننام من خلال العيش لدى البشر. هنا حيث تضطرّ الجرذان إلى القتال من أجل أن تتغذّى، نحن نتلقّى الأطعمة الخاصّة بنا دون أن نبذل أيّ جهد. هنا حيث إنّها تنهمك في القتال كلّ يوم، نحن لم نعد نواجه أيّ خصمٍ. مَنْ بوسعه أن يكونَ مفترسَ القطّ؟

لا بدّ لي من الإقرار بأنّه قبل نشوب الأزمة الحالية، لم أكن أعرف حتى الشعور بالخوف أمام جنسٍ آخر. لم أكن أعرف سوى الشعور بنفاد الصبر أو الانزعاج.

بل لم أكن أعي أنّ العيش في هكذا راحة كان قد خدّر أحاسيسي.

– ربما تكون الجرذان هي الجنس المهيمن القادم. إنّها ذكيّة واجتماعية لا ينبغي الاستهانة بها.

– إذًا، كيف يمكن احتواؤها؟

– من خلال توحيد صفوفنا. البشر بحاجةٍ إلينا، مثلما نحن بحاجةٍ إلى البشر. ما لم ننجح في التفاهم من أجل مكافحة الخصم المشترك، سوف نُهزمُ جميعًا. ولهذا السبب أنا هنا الآن، معكِ يا باستيت. هيّا بنا، دعينا لا نُضيّع المزيد من الوقت، لا يزال أمامنا طريقٌ طويل ينبغي علينا أن نقطعه قبل أن نصل إلى غابة فانسن.

بدا فيثاغورس بالفعل أنّه يُصدّق أنني قادرة على بثّ رسائل نحو البشر.

لم أعد أجرؤ على أن أكشف له الحقيقة المخبّية للآمال. في الواقع، بعد وعيي الاستثنائي للحقيقة، في اليوم الذي مضى، شعرتُ بأنني لستُ على مستوى المهام التي أوكِلَت إليّ. كنتُ أتطلّع إلى أن يمارس الحبّ معي مرّة أخرى لكي يمنحني من جديد طاقته. أمّا هو، فقد بدا أنّ لديه اهتمامات أخرى.

غادرنا قمرة السيارة الشاحنة واستأنفنا هرولتنا على أسطح السيارات. كنتُ على وشك أن تنفد قواي حينما أخرجَنا فيثاغورس أخيرًا من الطريق الدائري لكي نذهب إلى منطقة مغطاة بالأشجار.

كانت غابة فانسن تشبه كثيرًا غابة بولونيا.

لم نر في الأفق لا كلابًا ولا قططًا، ولا جرذانًا، ولا بشرًا.

أعلن فيثاغورس وهو يحدّد مسارًا:

– تُشير إشارة جهازها الخاصّ بتحديد المواقع (جي بي أس) إلى أنّ خادمتكِ موجودة في هذه الأنحاء.

تقدّمنا بين الأشجار الضخمة، وسط طبيعة كانت أكثر صمتًا بكثير من وجهة نظري. حتى شعرات شواربي لم تستشعر أيّ حضورٍ في الأنحاء. فجأةً، وقبل أن نتمكنّ من التصرّف، وجدنا أنفسنا نُقذَفُ في الهواء ونُحبَسُ بشبكة سميكة من الحبال.

إنّه فخٌّ.

لقد تأخّرنا كثيرًا وفات الأوان. عبثًا تخبّطنا، فقد احتُجزنا داخل الشبكة. وعند كلّ حركةٍ قمنا بها لكي نفلت من الشبكة، كان جرسٌ صغيرٌ يُصدرُ رنينًا. حاولتُ أن أشقّ الحبال بأسناني فرنّ الجرس الصغير رنينًا أقوى.

أمرني فيثاغورس:

– لا تتحرّكي بعد الآن!

بقينا هناك، معلّقين بين السماء والأرض، في حالة انتظار. علق أحد قوائمي في حبال الشبكة. وكان ذلك يؤلمني.

ولكنني انتهيتُ إلى إغماض عيني. أمّا فيثاغورس، فبدا أنّه قد نام قبلي. أرغمتني وضعيتي غير المريحة في الشبكة على أن أتصوّر نفسي ككيانٍ مستقلّ. قلت:

– قبل أن أموت، أودُّ أن أقول لكَ بأنني أحبّكَ.
– شكرًا.
لقد أزعجني. لماذا لم يُجبني بأنّه هو أيضًا يحبّني، وأنّه يعشقني، وأنني كلّ شيء بالنسبة إليه؟
– يبدو أنّكَ فاقدٌ للحسّ بكلّ شيء، يا فيثاغورس. ولكن مع ذلك، اعترفْ بأنّه كان أمرًا مذهلًا واستثنائيًا عندما دمجنا جسدينا.
– في الواقع.
لقد أغضبني، أغضبني، أغضبني.
لم أستطع أن أمنع نفسي من الإلحاح عليه بالسؤال:
– وما هو الحبّ، بالنسبة إليكَ؟
– إنّه... شعورٌ خاصّ.
– هل يمكنك أن تكون أكثر تحديدًا؟
– إنّه شعورٌ عميق.
– الذي شعرت به معي؟
– كيف يمكنني أن أوجز هذا؟ لا بدّ من إيجاد عبارة تشرح هذا الإحساس الخاصّ.
هزّ فيثاغورس رأسه قليلًا:
– بالنسبة إليّ، الحبّ هو عندما أكون في حالٍ حسنة مع الآخر مثلما أكون حينما أكون وحدي تمامًا.
بدا راضيًا من كونه عثر على العبارة الدقيقة التي تعرّف، بالنسبة إليه، هذا الإحساس.
– حسنًا، أمّا بالنسبة إليّ، فعلى العكس من ذلك تمامًا، الحبّ هو عندما أكون أفضل حالًا مع الآخر ممّا أكون عليه عندما أكون وحدي.
كان على وشك أن يفتح فمه، ثمّ عدل عن ذلك. واكتفى بأن تثاءب.
في الحقيقة، سألتُ نفسي إن لم تكن رغبته في عدم الارتباط بأحدٍ هي بكلّ بساطة شكلٌ من أشكال الأنانية، في نهاية المطاف. ألا يمكن أن يكون كائنًا أنانيًا كريهًا ملتفتًا فقط نحو طاقة سرّة بطنه؟ مثل جميع الذكور، في الحقيقة. كيف استطعتُ أن أكون على هذه السذاجة لكي أعتقد أنّ هذا قطّ

يمكن له أن يكون مختلفًا لكونه سياميًا، ولأنه يمتلك عينًا ثالثة، ولأنّه بدا أكثر ثقافةً؟ رغم أنّ أمّي كانت قد حذّرتني. «إنّهم جميعًا ضعفاء ومخيّبون للأمل، إنّهم غير قادرين على امتلاك مشاعر حقيقية، إنّهم لا يعرفون أن يحبّوا حبًّا حقيقيًا». كيف استطعتُ أن أعتقد أنّ هذا الذكر يمكنه أن يكون استثناءً من القاعدة؟

مال فيثاغورس برأسه.

– ممتاز... أنا أعترف أنني أفضل حالًا معكِ، يا باستيت، مما أكون عليه عندما أكون وحدي....

بدا أنّ قوله هذا قد كلّفه الكثير بحيث أصبحتُ في حالة مزرية، ومنزعجة. ابتلع ريقه، ثمّ أضاف:

– أنا أفضلُ حالًا معكِ، حتى في هذا الفخّ... حتى وأنا معلّقٌ فوق الأرض في شبكةٍ... حتى مع احتمالات قاتمة جدًّا تلفّ مستقبلنا.

آه منكم أيّها الذكور! لن أعتاد على ذلك يومًا. إنّه يخاف كثيرًا من أن يعترف بأنّه كان على علاقةٍ معي! إنّه يخاف كثيرًا من أن يعترف بأنّه هو أيضًا، مثلي تمامًا، قد راوده إلهامٌ خلال اقتران جسدينا.

في النهاية، ليس هناك سوانا، نحن الإناث، من يجرؤن على امتلاك مشاعر عميقة والتعبير عنها دون خجل.

ما كنتُ لأرغب في أن أكون ذكرًا، لأنني كنتُ سأشعر بأنني أعاني من إعاقة في المشاعر.

قلتُ:

– البارحة، راودني حدسٌ بفضلك. لقد أدركتُ أنّ ما كنتُ أشعر به دائمًا –وهو أنني لم أكن محصورة في جسدي– كان حقيقةً.

اعترف قائلًا:

– أنا آسف، لم أذهب بعيدًا إلى هذا الحدّ.

فجأةً، أدركتُ أنّ وصوله إلى الإنترنت وإمكانية أن يرى كلّ شيء ويفهم كلّ شيء عبر عينه الثالثة الإلكترونية قد أفقده القدرة على هذا الإحساس الطبيعي ألا وهو الحدس.

أمّا أنا، فلا أحتاج إلى كلّ معدّاته، يكفيني أن أغمض عينيّ، وأن أحلم

وأن أتّصل بطاقة الحياة التي تسري في الكون من أجل الوصول إلى المعارف القيّمة، والتي هي ربّما أثمن من معارفه.

أخذ نفسًا، وقال:

– أنا آسف لأنني لستُ أكثر حنانًا في هذه اللحظة، لكنني... هذه المرّة أخاف من الموت بالفعل.

أمّا أنا، فلا.

ما هو الموت؟ منذ أن أدركتُ أنني لم أكن مخلوقة سوى من أتربة عائمة في الفراغ، موحّدة ببساطة بفكرة أنني صنعتُ نفسي بنفسي، يبدو لي الموت مجرّد تنظيم «آخر» للجزيئات.

وطالما أفهم هذا، لماذا سأخاف من تغيير الحالة؟ ففي نهاية المطاف، أن أموت ليس سوى تغيير تنظيم الكمية الشحيحة من المادة التي أتكوّن منها.

على أيّ حال، اليوم، أشعر أنني فيلسوفة أكثر من فيثاغورس، الذي يرتجف لفكرة انتهاء حياته الطويلة. إنّ تدمير عمارته من الجزيئات في الفراغ يبدو له مأساةً لأنّه يعتقد نفسه مهمًّا. يعتقد نفسه مختلفًا عن بقيّة الكون. وأيضًا هذا الإحساس بالاختلاف عن الآخرين هو الذي منعه من أن يعيش اندماج جسدينا بمتعة عميقة كالتي عشتها أنا.

لو كان مدركًا لكلّ هذا، لعرف أن يحبّ حبًّا حقيقيًا.

كانت رؤيته لنفسه محدودة بغلافه الجسدي المقطوع عن الآخرين، في حين أنني أدركتُ أنني بلا حدود. نعم: أنا بلا نهاية وخالدة. أشعر أنني بخير، حتى وإن كان جسدي معرّضًا لخطر أن يفقد تنظيمه في بنيته العامّة. لم أشعر بأدنى قلق، سوف أحيا بطريقة أخرى.

أغمضتُ عينيّ وحلّق ذهني بعيدًا عن هذا الجسد المحبوس في شبكة.

حلمتُ أنني فيليسيت في مكوكها الفضائي وأنني أطير نحو القمر.

-24-

الوقوع في الفخّ

أيقظتني أصواتٌ.

طُوِقنا من قبل شبّانٍ من البشر مجهّزين بأقواسٍ ونبال. وكانوا جميعهم يرتدون أقنعة واقية من الغاز. كان بعضهم يحملون بنادق. كانوا متّسخين وثيابهم ممزّقة.

رددنا على ضربات عصيهم بالتكشير عن أنيابنا والمواء الحادّ، لكنّ حبال الشبكة منعتنا أن نكون فعّالين بالفعل.

كان الذي بدا أنّه قائدهم يرتدي قلادة مصنوعة من رؤوس الجرذان. وبناءً على أوامره، سحب صبيٌّ حبلًا لإنزالنا. تكاثروا علينا لكي يربطونا، معلّقين بقوائمنا، بأغصانٍ طويلةٍ. نقلونا من المكان وساروا بنا حتى وصلوا إلى حفرةٍ مليئةٍ بسائلٍ تفوح منه رائحة قويّة. لقد تعرّفتُ على رائحة الزيت الأسود الذي كان قد لطّخني في ورشة ناتالي للبناء.

نجح فيثاغورس في أن يقول من وضعيته غير المريحة:

– لا بدّ أنّهم حفروا هذه الحفرة وملأوها بالنفط لحماية مخيّمهم من هجمات الجرذان.

وبعد أن تجاوزوا هذه العقبة، نزع الشبّان أقنعتهم الواقية من الغاز.

لم أرَ حولي غير وجوهٍ عدائية، بل كان بعضهم ينظرون إلينا، كما بدا لي، بشراهة.

وصلنا إلى فسحةٍ تشتعل في وسطها نيرانٌ كبيرة.

هناك، وعلى الرغم من أنّ رأسي كان نحو الأسفل، استطعتُ أن أتبيّن أنّ بعض الأرانب والكلاب والقطط كانت تُشوى على ألسنة اللهب وهي معلّقة على أطراف عصيٍّ طويلة.

وضعونا على الأرض.

قلتُ شاكيةً:

– أعتقد أنّ مهمّتنا سوف تنتهي حتى قبل أن تبدأ.

– أنا آسف. على شبكة الإنترنت، ليست هناك معلومات حول طبائع وأخلاق هذه الجماعة.

هكذا ينتهي الروّاد.

وبينما كنتُ أرى كائنًا بشريًا يشذّب غصنًا، سوف يُستخدمُ، بكلّ تأكيد، كسيخ شواء لي شخصيًا، قلتُ:

– أنا سعيدة لأنني عرفتُكَ، يا فيثاغورس.

أنا التي كنتُ أحسّ بأنني أسمى بكثير من فيليكس، سوف أنتهي مثله تمامًا.

قال القطّ السيامي، مدهوشًا:

– وكأنّهم لم يُلاحظوا مأخذ الناقل التسلسلي العام (يو أس بي) خاصّتي وهاتفي المثبّت في الحقيبة الصغيرة.

– سوف ينزعونه عنك في لحظة الطهي، إنّهم ليسوا مستعجلين.

أغمض فيثاغورس مرّة أخرى عينيه، بحثًا عن المعلومات.

أشار:

– خادمتكِ ليست بعيدة عن هنا. لا بدّ أنّها موجودة في واحدة من هذه الخيام. هيّا، نادها!

فبدأتُ أموء بأعلى صوتي، ولكن لم يسفر ذلك عن أيّ نتيجة. مغامرةً بخسارة كلّ شيء أو كسب كلّ شيء، بدأتُ أخرخر على تردّدٍ منخفض: *ناتالي! تعالي، أنا بحاجةٍ إليكِ.*

ومن ثمّ حدثت المعجزة.

في البداية، تعرّفتُ على رائحتها، ثمّ اقترب شبحها. رأيتها، ورأتني.

تناقشت خادمتي بحيوية وانفعال مع بني جنسها الشبّان وهي تُشير إليّ بإصبعها وتلفظ اسمي وكذلك اسم رفيقي في المغامرة.

بدا أنّ الكائن البشري ذا القلادة المصنوعة من رؤوس الجرذان غير موافقٍ على ما تطلبه خادمتي. فغادرت ناتالي وتوارت عن الأنظار ثمّ عادت مع كائنةٍ بشريّةٍ أخرى كانت تشبهها كثيرًا.

أخبرني فيثاغورس، وهو يراجع في الوقت ذاته الإنترنت، بهوية تلك الأنثى:

– هذه أختها ستيفاني. هي من كانت تُدير دار الأيتام التي انطلقت منها المجموعة الصغيرة من البشر الشبّان لكي يقيموا هنا. وبعد ذلك، جاء أيتامٌ آخرون لكي يعزّزوا صفوفهم هنا.

– لماذا يجادلون كثيرًا؟

– على الأرجح لأنّ ستيفاني وحدها تمتلك ما يكفي من السلطة عليهم من أجل إقناع زعيم الأطفال بأن يُطلق سراحنا.

وهي تتحدّث بصوتٍ قويٍّ جدًّا، أشارت ناتالي إلى العين الثالثة للقطّ السيامي. وعندئذٍ غيّر الفتى من طريقة تعامله، وأصغى إلى شروحاتها، وقبل في النهاية، وذلك بعد عدّة دقائق، بأن يعطي الأمر بفكّ الوثاق عن قوائمنا.

ما أن أصبحتُ على الأرض وتحرّرتُ من أربطتي، قفزتُ إلى بين ذراعي خادمتي، ولعقتُ خدّها (أعرف أنّ هذا سلوكٌ خاصّ بالكلاب، ولكن في تلك اللحظة كنتُ سعيدةً للغاية بأنّها أنقذت حياتي بحيث أصبحتُ غير مبالية بطريقتي في التصرّف).

ظلّ فيثاغورس أكثر حذرًا.

– الآن، يا باستيت، يجب أن تنجزي ما تبقّى من مهمتّكِ، هيا، أخبريها بأنّه عليها أن تساعدنا في تحويل جزيرة البجع إلى محمية ضدّ الجرذان.

خرخرتُ ولقاء ذلك، داعبتني خادمتي على نحوٍ أقوى. تحدّثت معي بنبرةٍ لطيفة وعطوفة، وهي تبتسم وتردّد اسمي.

بدا فيثاغورس وكأنّه يعتقد أنّها تفهمني.

كرّر طلبه:

– هيّا، اشرحي لها كلّ شيء.
– لا.
– لمَ لا؟
– لقد كذبتُ عليك: لا أستطيعُ بعد أن أتحدّث معها بوضوح.
– ألا تُجيدين إرسال فكرةٍ نابعة من قطّة نحو الذهن البشريّ؟ ولكن هذه الخرخرة الخاصّة التي أصدرتِها للتوّ بدت أنّها جعلتها متجاوبةً جدًّا!
– أحاول. أهدّئها. أجعلها في بعض الأحيان تفهم حاجاتي، ولكنني لا أستطيع أن أذهب بعيدًا أكثر من هذا.
حسنٌ، ها قد قلتها، والآن بات يعرف الحقيقة. وعلى كلّ حال، لقد أراحني أن اعترفتُ له بهذه الحقيقة. لم أستطع أن أواصل التضليل إلى ما لا نهاية.
قال متذمّرًا:
– إذًا، لقد قمنا بكلّ هذه الرحلة عبثًا. لماذا لم تخبريني بذلك في وقتٍ مبكّر؟
– لا بدّ أن تكون هناك طريقة لإرسال الرسائل نحوهم، أنا متأكّدة من ذلك! يجب منحي القليل من الوقت أيضًا.
خرخرتُ على كلّ الترددات التي استطاعت حنجرتي أن تكتشفها.
لكن عبثًا. لم أتلقّ مقابل ذلك سوى مداعباتٍ.
وبدأ الليل يهبط تدريجيًا.
بعد ذلك بقليل، ذهبت ناتالي واستلقت تحت خيمة من القماش. وأنا تكوّرتُ على نفسي عند قدميها، وأغمضتُ عينيّ، وبعثتُ خرخرةً أكثر حدّة لكي أهدّئ نفسي. ولكنني كنتُ أعلم في قرارة نفسي بأننا جميعًا ذاهبون إلى الهلاك، وذلك بسبب خطئي أنا.
لماذا لا أنجح في جعل بشرٍ يفهمونني؟
نمتُ بدوري. ليس هناك أيّ وقت يجعلني أتخلّص قليلًا من الشعور بالذنب مثل الوقت الذي أكون فيه في طور النوم. اعتقدتُ أنّه لا يزال هناك الكثير من التقدّم الذي يجب عليّ أن أحرزه لكي أصبح مفيدة للمحيطين بي.

-25-

اللقاء وسط السُّحب

بدأتُ أحلم.

رأيتُ في المنامِ أيضًا نهايةَ البشرية وسيادة الجرذان بدون منازع.

كانت الجرذان تكبر حجمًا باضطراد، وتزداد عددًا دون تباطؤ، وتغدو أكثر وحشية وافتراسًا.

أقبل جسمٌ ضخمٍ نحوي، كان قمبيز، ملك الجرذان، محمولًا من قبل ستّة جرذان صغيرة من بني جنسه.

كان يتربّع على أريكةٍ مثل كائنٍ بشري ويحمل قلادة مصنوعةً من رؤوسٍ صغيرة جدًّا للقطط حول رقبته. وهو ينظّف أسنانه باستخدام مخالبه، قال لي: «أنا أيضًا أؤيّد التواصل بين الأجناس».

ثمّ، وفي تكشيرةٍ، أوضح، قائلًا: «أنا مستعدٌّ للتواصل معكِ، يا باستيت. سؤالي الأوّل هو التالي: هل تُفضّلين أن تُؤكلي الآن في الحال، أم بعد قليل؟».

وانفجر مقهقهًا بضحكةٍ تشبه كثيرًا ضحكة البشر.

استيقظتُ مرتجفةً، وفركتُ عينيّ وأرغمتُ نفسي على أن أعود إلى النوم لكي أحلم بشيءٍ مختلف.

في حلمي الثاني، حدّثني فيثاغورس: «إذا نجحتُ في تلقي الفكر البشري فهذا لأنني وجدتُ المُرسلة المناسبة، وهي في هذه الحالة صوفي. ليست هناك جسورٌ، ولكن يوجد على الأرجح معبرٌ في مكانٍ ما. يكفي أن يكون

هناك من بين البشر شخصٌ، أنثى أو ذكر، يكون قادرًا على أن يُصغي إليكِ. اعثري على الشخص المناسب، وسوف ينجح الأمر، يا باستيت».

فتحتُ عينيّ من جديد. كان فيثاغورس نائمًا وحده بعيدًا عنّي بعض الشيء، ولكنني كنتُ مقتنعة بأنّ ذهنه قد أرسل إليّ هذه الفكرة. هذه المرّة، لديّ هدفٌ واضح، وهو أن أعثر في الحلم على الذهن البشري القادر على التحاور معي في هذا الزمكان الهارب من قوانين العالم الطبيعي.

ركّزتُ تفكيري، وأغمضتُ عينيّ، وفي هذا الحلم الثالث وجّهتُ ذهني، مثل سحابة صغيرة وخفيفة، لكي، بدل أن يتمدّد ويتوسّع، يتكوّر على نفسه وينفصل عن جمجمتي ويُحلّق عاليًا في السماء. صعد عاليًا فوق الغابة، وانضمّ إلى سحابة واسعة واستطاع منها أن يميّز كلّ وجوه النفوس البشرية.

رأيتُ وجه ناتالي، ولكن عينيها كانتا مغمضتين، مثل الكثير من الوجوه الأخرى التي كانت عيونها مغمضة.

ها أنا ذا إذًا أحلّق بذهني فوق هذه الوجوه البشرية النائمة. تشكّل الأنوف والشفاه فيها نتوءات بارزة. والجفون المطبقة تشبه خصلاتٍ من العشب. فجأةً جذبت صورة منعكسة انتباهي. بزغ ما يشبه فاكهة ملساء ووردية وسط رموشٍ طويلةٍ تشير إلى الجفون التي بدأت ترمش.

الشفاه التي كانت تقع تحتها تمامًا تمطّت في ابتسامةٍ، ثم انفتحت لكي تقول:

– طاب نهارك، يا «ذهن قطّة».

اقتربتُ، وأجبتُ بالفطرة:

– طاب نهارك، يا «ذهن كائنٍ بشريّ».

كان فيثاغورس على حقّ. التواصل الذهني والروحي مع كائنٍ بشريٍّ أمرٌ ممكن، يكفي فقط العثور على المُستجيب المناسب! ماذا قال، سابقًا؟ «هناك بكلّ تأكيد معبرٌ في مكانٍ ما». ما كنتُ لأصدّق أبدًا بأنني أستطيع العثور على هذا المعبر من خلال عالم الأحلام.

– هل يمكننا حقًّا أن نتحاور؟

- بكلّ تأكيد. هنا نحن متحررون من الحدود المادية لعالم اليقظة. أنتِ تعرفين ذلك بكلّ تأكيد، وإلّا لما كنتِ هنا ولما تحدّثتِ إليّ.

- هذه هي المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا الأمر لي.

- أمّا أنا، فكلا. أنا أجيد التحدّث إلى أذهان كلّ الدواب وإلى أذهان كلّ النباتات. ومنذ أن أدركتُ أنّ هذا ممكن، بدأتُ أجرّب ذلك، والآن أمارسه تقريبًا كلّ مساء. إذا كانت هذه هي المرّة الأولى بالنسبة إليكِ، فأهلًا وسهلًا بكِ في هذه التجربة. سوف ترين، إنّها تجربة مثيرة.

حينما دقّقتُ فيها على نحوٍ أفضل، لاحظتُ أنّ وجهها هو وجه امرأة عجوز، تشبه صوفي بعض الشيء، ولكنّه مدوّرٌ أكثر وشعرها قصير.

سألتني:

- ما اسمكِ؟

- باستيت.

- اسمٌ ظريفٌ جدًّا. لا بدّ أنّ فيه إشارة إلى اسم الإلهة المصرية.

- وأنتِ؟

- أنا أُدعى باتريسيا.

- لا يبدو أنّكِ تفاجأتِ بحديثي إليكِ.

- أنا عرّافة بشرية، يا باستيت، وأنتِ، بطريقتكِ، عرّافة قطّة. كلانا سفيرتان لجنسنا الخاصّ. نحن، أنتِ وأنا، نجيد الخروج من غلافنا الجسدي. لدينا هذه الموهبة التي تجعلنا مختلفتين عن الآخرين.

- كنتُ أجهل أنّ هذا الأمر بوسعه أن يكون بسيطًا إلى هذه الدرجة.

- أعتقد أنّ العرّافين القطط موجودون منذ زمنٍ طويلٍ، ولكن على نقيض البشر، لا تحتفظون بذكراهم. عندنا، نحن البشر، حينما يمتلك أحدهم سلطات، نروي تاريخهم شفهيًا، أو في الكتب، أو في الأفلام السينمائية... ولكن، عندكم، أنتم القطط، هذا الأمر يُنسى لأنّه ليس لديكم سندٌ للذاكرة. حينما تموتين، يا باستيت، سوف تعتقد القطّة العرّافة المقبلة هي الأخرى بأنّها فريدة وأنّها العرّافة الأولى.

تبًّا، إنّها على حقّ.

أنا أمتلك هذه الموهبة الخاصّة منذ ولادتي، وحتى يومنا هذا لم أفعل شيئًا سوى محاولة أن أكتشف كيف يمكنني استخدامها. يُجيد ذهني بشكلٍ فطري التواصل مع كلّ شيء، ولكن ليس في العالم الطبيعي، بل عليه الذهاب إلى عوالم موازية مثل عالم الأحلام.

– يا باتريسيا، كان بودّي أن أتبادل معكِ الكثير من المعلومات الأخرى، لكن هناك أمرًا طارئًا.

– أنا أُصغي إليكِ، يا باستيت.

– أين يوجد جسدكِ المادّي؟

– منذ إنذار الطاعون، أعيشُ مختفيةً في شقّةٍ وأبقى على قيد الحياة بفضل المخزونات الغذائية التي استطعتُ أن أخزّنها. أستطيع أن أصمد لبضعة أيام أخرى. وماذا بشأنكِ؟

– أنا أُقيمُ في مخيّمٍ في غابة فانسن. ربّما سيكون عليكِ أن تلحقي بي وأن تتدخّلي لكي تنقلي إلى البشر معلومات، وحدنا، نحن القطط، نملكها.

– أنا أصغي إليكِ.

– لقد شكّلنا جيشًا سبق له وأن هزم الجرذان في معركة في الشانزليزيه. وقد اكتشفنا كنزًا، هو عبارة عن مخزنٍ كبيرٍ للأغذية في الملجأ المضاد للقنابل النووية في القصر الرئاسي. والآن نريد أن نبني ملاذًا في جزيرة البجع. وهو مكانٌ لن تستطيع فيه الجرذان أن تزعجنا والذي سوف تتأكّدون من أنّكم لن تُصابوا فيه بالطاعون.

– مهلًا، مهلًا، اِروي لي كلّ شيء بالتفصيل واشرحي لي ما الذي تنتظرينه بالضبط من تدخّلي.

فرويتُ لها مغامراتي الأخيرة. أبدت باتريسيا اهتمامًا بالغًا بما رويته. كان حوارنا طبيعيًا، وفطريًا، ومن ذهنٍ منفتح إلى ذهنٍ منفتح. كلّ ما تمنّيتُ دائمًا أن أتبادله مع ناتالي في الحياة الواقعية، حصلتُ عليه مع هذه العرّافة في الحلم.

وما أن انتهى سردي، سألتُها:

- هل سبق وأن كان لديك قطٌّ؟
أجابت:
- كلا، حينما كنتُ طفلةً كان لديّ كلبٌ كنتُ أحبّه كثيرًا.
- لم يكن لديك يومًا قططٌ؟
- لطالما وجدتُ أنّها... متغطرسة للغاية.

- نحن، «متغطرسون»؟ بالمقارنة مع خضوع الكلاب لا بدّ أنّنا بدونا لكم أكثر استقلالًا، وهذا ما حيّركم.

- أنا آسفة، ولكن لم أفهم قط لماذا لم تكن القطط لطيفة أكثر حيال البشر.

- «لطيفة»؟ تخيّلي أنّ كائناتٍ من المفترض أنّها تخدمكِ، تحتجزك في شقّة. تخيّلي أنّ هذه الكائنات نفسها التي من المفترض أنّها تطيعكِ، تسمح لنفسها أن تخصي ذكركِ، فقط لكي لا تنزعج من روائحكِ أو صرخاتكِ أثناء ممارسة الجنس. ومن ثمّ تخيّلي أن تُمنَعي من التعبير عن كّل ما هو من طبيعتكِ وكلّ ما هو في أعماقكِ. وعندما تكوني طيّبة لدرجة أنّكِ تقدّمين فأرة ميّتة، لا يُقدّمُ لكِ حتى الشكر. تخيّلي أن يتمّ إطعامكِ بأطعمة تجهل حتى مكوّناتها.

اعترفت، قائلةً:

- إنّها مخلّفات مسحوقة ومختلطة. عبارة عن عظام البقر، وعيون الخنازير، وغضاريف الخراف، وبعض الصويا، والطحين، بل وأحيانًا القليل من النشارة.

- علاوة على كلّ هذا! تخيّلي، يا باتريسيا، أنّ بعد حرمانكِ من متعة تناول الطعام الحقيقي، وحرمانكِ من الحياة الجنسية، يُفرضُ عليكِ سيّدًا، واسمًا، ومكانًا. وأنتم تروننا «متغطرسين»! أما أنا، فأرى أننا لسنا حقودين كثيرًا حيال هؤلاء الكائنات التي من المفترض أنّها تخدمنا.
- منْ الذي أخبركم أنّه من المفترض أنّ البشر خدمكم؟
- بالفعل هم........خدمنا.
- كلا.

– عفوًا؟

– أغلبية البشر يعتبرون أنفسهم سادة وسيّدات لكم.

– هل لكِ أن تكرّري عليّ ما قلتِه، من فضلك؟

– ولكنّهم...

– أعتقد أنّه لا يستطيع أيّ جنس حيواني أن يملي أمرًا على جنسٍ آخر. فالأرض تخصّ على نحوٍ منصف، كلّ أشكال الحياة، حيوانية كانت أو نباتية، التي تغطّيها. ومن الناحية الموضوعية ليس لأيّ جنسٍ الحقّ في أن يعلن نفسه «فوق الآخرين». لا البشر ولا القطط.

– ومع ذلك، اعترفي، يا باتريسيا، بأنّ البشر أقلّ براعةً من القطط. إنّهم يدركون القليل جدًّا من الأشياء. جميع حواسهم مصابة بالضمور. لا يرون بها أثناء الليل.

– هذا صحيح. إنّهم لا يرون سوى طيفٍ مختزلٍ من الألوان. ولا يسمعون الموجات فوق الصوتية. ولا يستطيعون أن يكتشفوا الحقول المغناطيسية أو انتقال الطاقة.

– صحيح. هذه هي الحقيقة بالضبط.

– هذا لا يعني أننا أقلّ شأنًا، بل يعني أننا مختلفون فحسب. في الواقع، حسب رأيي، جميع الأجناس الحيوانية مكمّلة لبعضها، وهذا هو سرّ اندهاشي الدائم أمام التنوّع الحيوي المذهل لهذا الكوكب. هذه المليارات من الأنواع المختلفة من الحشرات، والثدييات، والطيور، والأسماك، والنباتات هي بالنسبة إليّ الأكثر أهمية للحفاظ عليها.

– إذا لم نتحرّك معًا، البشر والقطط، فإنّ التنوّع الحيوي سوف يتقوّض. سوف تقضي الجرذان على الأجناس التي قد تبدو أنّها منافسة لها. وبالتالي، من فضلك، الآن وقد نجحنا في التواصل، أنتِ وأنا، يا باتريسيا، اشرحي الوضع الراهن لبني جنسكِ لكي ننجح معًا في إنقاذ ما يُمكن إنقاذه.

وافقت باتريسيا على طلبي، ووعدتني أن تتصرّف حال استيقاظها.

أكملتُ ما تبقى من ليلي مع الإحساس اللذيذ بالواجب الذي أدّيته.

وأخيرًا.

-26-

دبلوماسية في الغابة

عندما فتحتُ عينيّ، كان فيثاغورس يقف أمامي. كان ينظر إليّ بانتباهٍ وتركيزٍ شديدين.

رويتُ له كلّ شيء:

- لقد نجحتُ! لقد عثرتُ على المعبر وتحاورتُ مع كائنة بشرية.

لم يبدُ مبهورًا بما رويتُ، وراح يلعق قدمه.

قال:

- أعلم. الجميع هنا يتحدّثون عن الأمر.

- آه، هل جاءت باتريسيا؟

- نعم.

- وهل نقلت توجيهاتي؟

- تقريبًا.

- «تقريبًا»؟

- ربّما صاحبتكِ باتريسيا لديها ذهنٌ قادرٌ على التواصل مع أذهان الحيوانات ولكن لسوء الحظّ لديها إعاقة خفيفة بالنسبة إلى التواصل مع بني جنسها.

قادني إلى نقطة يمكنني منها أنا أرى باتريسيا. كانت جميلة جدًّا. كانت ترتدي ثيابًا مزركشة بالكثير من الألوان مع ريشٍ. وكان جسدها مغطّى بالمجوهرات اللامعة. إلّا أنّها حينما فتحت فمها لم يصدر أيّ صوت منه.

شرح لي فيثاغورس:
- إنّها خرساء.
قلتُ:
- لم أفهم. في عالم الأرواح، هي...
- لقد طوّرتْ موهبة تواصلٍ في عالم الأرواح بالضبط لأنّها لا تستطيع أن تتواصل في عالم البشر. وهذا يُدعى «التعويض». في عالمهم، كانت لديها وظيفة...
- عرّافة.
- أنا أفضّل تسميتها «ساحرة». لقد بحثتُ على الإنترنت لأرى ما الذي يُقال عنها. من خلال ما فهمته، إنّها مهووسة بحركة العهد الجديد الروحانية التي تعيش وحدها في منزلٍ معزول. وهي صمّاء وبكماء. يأتي إليها الناس لرؤيتها لكي تقرأ لهم مستقبلهم في خطوط أكفّهم. وهي تتواصل معهم من خلال الكتابة. ولكن يُقال أيضًا بأنّها قد قامت بعدّة زيارات إلى مراكز الطب النفسي، كما أنّ العديد من الشكاوى قُدِّمت ضدّها بتهم الاحتيال.
- إذًا، أتكون مجنونة؟
- على أيّ حال، من الصعب أخذها على محمل الجدّ.
أنا التي كنتُ أعتقد بأنني قد نجحتُ أخيرًا، تواصلتُ مع كائنة بشرية هي لا تستطيع أن تتواصل مع بني جنسها!
- وبالتالي، هل هذا فشلٌ؟
لم يشاركني فيثاغورس خيبة أملي.
- ليس تمامًا. تُجيد باتريسيا لغة الإشارات. هي تتحدّث باستخدام يديها وتقومُ فتاةٌ بترجمة ذلك إلى لغة البشر. وهذا يسير على نحوٍ أسرع من الكتابة. وخطابها متماسك بما فيه الكفاية لكي يجذب انتباه الآخرين.
- اللعنة، مع كلّ هذه التدخلات الوسيطة، لن يكون من السهل تمرير رسالتنا!
اعترف فيثاغورس وهو يغمز لي بعينه (وهذه أيضًا إحدى حركات البشر)، وقال:

- إنّها بالفعل معجزة أن تنجحي في هذا الإنجاز الهائل الذي يُعتَبَر مأثرة.

لم يغمز سوى بعينٍ واحدة وكان هذا مُبهرًا للغاية. حاولتُ أن أقوم بنفس الحركة ولكنني لم أنجح في ذلك. واصلتُ مراقبة باتريسيا التي تحدّثت بحركات يديها الغريبة.

انتهى المطاف بالفتيان الأشقياء إلى أن اجتمعوا لكي يتناقشوا بشكلٍ جماعي. كان زعيمهم ذو القلادة المصنوعة من رؤوس الجرذان عدوانيًا وهائجًا في حديثه، وقد أشار بإصبعه إلى ناتالي وأختها التي ردّت بنبرةٍ أكثر عنفًا. تابعت باتريسيا ومترجمتها حوارهما بالحركات. أشار الزعيم البشري بإصبعه إليّ وهو يرسم تكشيرة عدوانية.

في النهاية، وبإشارةٍ، رفع العديد من البشر أياديهم.

سألتُ فيثاغورس:

- ماذا يفعلون؟

- إنّه تصويتٌ. من أجل معرفة رأي الأغلبية حول ما ينبغي فعله الآن.

- وماذا تقول الأغلبية، إذًا؟

- لا أعلم. يبدو أنّهم لا يزالون منقسمين في الرأي. أشعر أنّه سيكون هناك الكثير ممن هم على استعدادٍ للذهاب إلى جزيرة البجع مقارنة بالذين سيعارضون ذلك.

فجأةً، رنّ جرسٌ. حالة استنفار عامّة. حلّل فيثاغورس الوضع وشرح لي بأنّ الجرذان قد أصبحت أخيرًا بعددٍ كبيرٍ جدًّا بحيث سمحت لنفسها بأن تضحّي بما يقارب مئة جرذٍ منها لكي تعبر الحفر المليئة بالنفط والتي كان من المفترض أنّها تعزل المخيّم.

جرذانٌ انتحارية!

وبعد أن تجاوزوا صدمة الرعب الأولى، التقط البشر الشبان أنفاسهم ونظّموا صفوفهم من جديد. ارتدوا من جديد أقنعتهم الواقية من الغاز وكذلك ارتدوا بزّاتهم الواقية. كانت جميع الأسلحة من أقواس وبنادق وقنابل يدوية مفيدة في ردّ رتل المهاجمين الزاحفين، الذين كانوا يشكّلون نهرًا حقيقيًا من الفراء البنّي.

لم يبدُ أنّ عدد الجرذان الغازية قد نقص.

رنّ هذا الهجوم جرس الإعلان عن الرحيل السريع من هذا الملجأ والذي كان غابة فانسن. إذ لم يعد من الممكن بعد الآن التفكير في البقاء هنا.

انهمكت مجموعة من البشر الشبّان في تجميع الحقائب والأكياس.

سألتُ رفيقي في المغامرة.

– هل تعتقد أنّهم أدركوا أنّه يجب الذهاب إلى جزيرة البجع؟

– على أيّ حال، لا أرى إلى أين يمكنهم أن يذهبوا إن لم يذهبوا إلى تلك الجزيرة.

انطلق العديد من البشر الشبان نحو فسحةٍ وأخرجوا الشاحنات والسيارات والدراجات النارية والدراجات الهوائية التي كانت مخفية خلف الأشجار الكثيفة. كانت الغالبية العظمى من هذه المركبات في حالة سيئة وبدت أنّها قد زوّدت برؤوس مدبّبة أو نصال حادّة على مصدّاتها الأمامية. لا بدّ أنّها كانت عبارة عن هياكل وحطام المركبات التي كانت متروكة على الطريق الدائري، فَجُلِبَت وأُصلِحَت وحُسِّنَت.

جلسنا، فيثاغورس وأنا، في شاحنةٍ صغيرةٍ مع ناتالي وأختها وباتريسيا. كان السائق صغيرًا جدًّا في السنّ.

تقدّمت كلّ السيارات والشاحنات والمقطورات في رتلٍ على طريقٍ.

أُقيم جسرٌ فوق الحفرة المليئة بالنفط وسلك موكبنا المعبر الوحيد.

لفظت ناتالي اسمي واسم باتريسيا. أدرتُ رأسي نحوها. اعتقدتُ أنّها قد فهمت ما قُمتُ بإنجازه وسط سحابة الأرواح. إذ بدت نبرة صوتها تنمّ عن الإعجاب. فشعرتُ بأنني ربّما حقّقتُ إنجازًا تاريخيًّا.

ولكن في هذه اللحظة الراهنة، هناك أمورٌ أكثر إلحاحًا لا بدّ من تسويتها: تعرّضت شاحنتنا الصغيرة إلى مشكلة في محرّكها وتوقّفت فجأةً. حاول السائق الفتي أن يُدير المحرّك من جديد، ولكن عبثًا لم تتقدّم الآلة.

لاحقتنا الجرذان ونجح أحدها في أن ينسلّ من ثقبٍ كبيرٍ في أرضية

الشاحنة الصغيرة. انقضضتُ عليه وقتلته. ولكن لسوء الحظ، كان الثقب واسعًا جدًّا بحيث مررتُ عبره وسقطت! وفي هذه اللحظة بالذات، أقلعت الشاحنة من جيد. رأيتُ، مرعوبة، المركبة تبتعد عنّي، وتهرول نحوي قرابة ألف جرذٍ.

ركضتُ، وحشدُ الجرذان يلحق بي.

فجأةً توقّف الزمن وتجمّد كلّ شيء من حولي في مكانه.

خرج ذهني من جمجمتي، وراقب الوضع.

مرّة أخرى بدت لي باستيت هذه، وهي في الأسفل عبارة عن الغلاف الجسدي لذهني، في خطر. ألا يجدر بذهني أن يغادر ذلك الغلاف الجسدي؟

-27-

على ضفاف النهر

منْ أكون؟

ألستُ سوى قطّة في خطرٍ داهمٍ حاليًا؟

إنّ إدراكي لقوة تفكيري أدّى إلى أن أهرب من جسدي لكي أتلاشى في الكون.

أهذا أمرٌ جيّد؟ أهذا أمرٌ سيّئ؟

وكلّما فكّرتُ في ذلك، أدركتُ أنّ هذه ستكون فكرة خاطئة.

فإذا كنتُ لم أعد «محصورة»، إلّا أنّ ذهني يجازف بمواجهة الكثير من الصعوبة في هذه المسألة.

ازداد عدد الجرذان على الأرض واقتربت منّي، لكن الشاحنة الصغيرة أبطأت من سرعتها لتنعطف نصف استدارة، وانفتحت البوابة الخلفية حينما أصبحت بجانبي.

صرخ فيثاغورس:

- هيّا اصعدي!

رفعتني يد نانالي، وأُغلِقَت البوابة قبل أن يتمكّن أيّ جرذٍ من محاولة القفز إلى صندوق الشاحنة. عاد ذهني فجأةً إلى جسدي. أسرعت المركبة وتخلّصت دون صعوبة من مطارديها.

- شكرًا لأنّكم لم تتخلّوا عني.

- ما زلتُ أحتاج إليكِ وأعتقد أنّ خادمتكِ أيضًا تحرص كثيرًا على الإبقاء عليكِ حيّةً إلى جانبها.

في الواقع، داعبتني هذه الأخيرة وردّدت اسمي بمحبّة ومودّة. وخرخرتُ تقريبًا دون إثارة الانتباه إلى ذلك.

بعد كلّ هذه العواطف، كان الإحساس بأنني محبوبة مثيرًا لارتياحي، حتى وإن لم يكن ذلك بالطريقة الصحيحة ولا من قبل الأشخاص المناسبين.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة العاكسة للشاحنة وتأكّدتُ مرّة أخرى أنّ غلافي الجسدي جذّابٌ جدًّا بالفعل. لقد أدركتُ سبب رجوعهم إلى الوراء من أجل انتشالي. أنا فعلًا جميلة جدًّا.

ماذا قال فيثاغورس؟

«ما زلتُ أحتاج إليكِ».

أعتقد أنّ لدى الكون مشروعًا يخصّني وأنّ هذا المشروع يظهر كلّ يوم على نحوٍ أكثر وضوحًا. إنّ بعض الكائنات موجودة هنا لكي تذكّرني كلّما نسيتُ ذلك.

كان موكبنا يضمّ قرابة عشرين مركبة يتكدّس فيها قرابة مئة من البشر الشبان والمواد: بعض الخيام والأسلحة والمعدّات.

تجنّبنا السير على الطريق الدائري وسلكنا الأرصفة المحاذية لنهر السين. في مقدّمة الموكب، سارت شاحنة رباعية الدفع وخاصّة بالسير في الطرق الوعرة ومصدّها الأمامي مزوّد بقطعة معدنية ضخمة مثلّثة الشكل (وسوف يخبرني فيثاغورس فيما بعد أنّ هذه القطعة هي عبارة عن سكّة حراثة) وفتحت الطريق، وهي تُزيل السيارات والأنقاض لتُلقي بها في المياه السوداء للنهر.

أنا لا أحبّ السير في مؤخّرة موكبٍ، إذ أخاف دائمًا، في حال حدثت مشكلة، أن يواصل من هم في مقدّمة الموكب سيرهم رغم كلّ شيء دون أن يُلاحظوا بأنني لم أعد موجودة ضمن الموكب.

ولا بدّ أنّ سائقنا أيضًا كان لديه هذا القلق نفسه، لأنّه ضاعف من سرعته

وتجاوز كلّ الرتل ليسير مباشرة خلف الشاحنة التي تسير في المقدّمة، والتي سرعان ما اضطرّت للتوقّف بسبب تراكم الجثث التي كانت تسدّ الطريق. توقّفت شاحنتنا الصغيرة في مكانها، وهذا ما لم يرق لي. ضغط فيثاغورس على زرّ فتح زجاج النافذة، لكي يفحص الوضع على نحوٍ أفضل.

وبينما كنا مرغمين على أن ننتظر إلى حين أن تُزال العقبة، بدا لي أنّ الجرذان من حولنا تزداد عددًا على نحوٍ مضطّرد.

روى لي القطّ السيامي، قائلًا:

– لقد حوِّلت قصّة من العصور الوسطى إلى فيلمٍ سينمائي، باسم، *عازف المزمار من هاملين*. وهي مستوحاة من قصّة حقيقيّة حدثت في عام 1284 في مدينة هاملين هذه، في ألمانيا. تقول الأسطورة إنّ هذه المدينة تعرّضت على نحوٍ مفاجئ إلى غزوٍ من قبل الآلاف من الجرذان التي خرّبت كلّ شيء في طريقها. ضاق السكان ذرعًا بالمشكلة وبدأوا يعانون من نقصٍ في الغذاء. لم يجد السكان أيّ وسيلة دفاعية لمكافحة هذه الجرذان الغازية. ذات يوم، حضر رجلٌ وعرض إنقاذ المدينة مقابل الحصول على مئة جيلدر ذهبي. وافق العمدة، وراح عازف المزمار يعزف على زمّارته لحنًا شجيًّا، وسحر الجرذان التي لحقت به وهو يسير نحو النهر حتى غرقت جميعًا في مياهه. ولكنّ العمدة، وعلى الرغم من أنّ المدينة أُنقِذَت، رفض أن يمنحه المبلغ الذي كان قد وعده به، وطرد سكان هاملين، الذين نسوا الخدمة التي أسداها لهم، الزمّار ورموه بالحجارة، ساخرين منه ومستهينين بالتهديد الذي كانت الجرذان تشكّله عليهم. توعّد الموسيقي بأن ينتقم لنفسه منهم. عاد بعد بضعة أيام، مستغلًا عتمة الليل، وعزف على زمّارته وجذب هذه المرّة كلّ أطفال المدينة والذين قادهم إلى النهر، حيث غرقوا على غرار الجرذان.

علي أن أعترف بأنّه بعد الذي حصل لصغاري، أبهرتني هذه الحكاية. بدا لي أنّ هذه طريقة مثيرة للانتقام من الجاحدين.

– هذه الحكايات التي ينقلها البشر إلى بعضهم تسمح لهم بأن يحفظوا في ذاكرتهم أحداث الماضي التي واجهوا خلالها الكوارث والمآسي.

– أنا أبتهجُ كثيرًا حينما تروي لي قصصًا وأحبّها، يا فيثاغورس.

اعترف فيثاغورس، بدوره:

– وأنا أحبّ كثيرًا أن أروي بعضها. ربّما وُلدتُ لكي أروي قصص البشر للقطط...

– ومن خلال البدء بي؟

– أنتِ يا باستيت، لديكِ هذه الميزة: تُجيدين الإصغاء إلى القصص، والاستمتاع بها. ليست القطط كلّها مثلكِ.

في الواقع فكّرتُ من جديد بفيليكس الذي كان غير مبالٍ ولم يكن يهتمّ بأيّ شيء، ولم يكن لديه أيّ طموح، ومن جرّاء ذلك، ولأنّه لم يكن ينتظر إلّا القليل من الأشياء من الحياة، لم يتلقّ إلّا القليل.

في النهاية، وفي سبيل فتح الطريق أمام حركة السير، شهّر البشر الشبّان أنابيب أطلق عليها فيثاغورس اسم «بازوكا». وانفتح المعبر وسط دويّ انفجارٍ، واستأنف الموكب السير في طريقه.

انضممنا بعد مضي بعض الوقت إلى بقية بني جنسنا المتبقين في قصر الإليزيه.

احتفى بي أنجيلو، هذه المرّة. شكرتُ اسميرالدا على إبقائه معها. لاحظتُ أنّ عدد القطط الموجودة قد تضاعف وتعرّفتُ حتى على نبوخذ نصر بين الحشد. لا بدّ أنّه قد علِم بانتصارنا وفضّل أن يستدير لكي يأتي وينضمّ إلينا.

حينما اكتشف بشر الموكب ما هو موجودٌ خلف الجدران الإسمنتية والباب الفولاذي للملجأ الرئاسي المضاد للقنابل النووية، انبهروا غاية الانبهار.

فتحوا علب المحفوظات وفتحوا القوارير التي لم تكن محتوياتها في متناولنا حتى تلك اللحظة. لقد استحوذوا على صناديق من الأغذية والأسلحة، وعلى بذلات وأقنعة حماية (من أجود الأنواع التي كانوا يستخدمونها)، وتزوّدوا بالذخائر، والأدوية ومستلزمات الجراحة التي باشروا باستخدامها في معالجة الجرحى.

وبعد مضي ساعتين أو ثلاث ساعات، تم تكديس كلّ ما كان يحتويه

الملجأ في شاحنات وسياراتٍ. تشكّل الموكب من جديد وسلكنا الطريق من جديد لكي نذهب إلى جزيرة البجع. جاء أنجيلو وفولفغانغ واسميرالدا معنا في الشاحنة الصغيرة. وقد سارت القطط الأخرى ومعها الأسد خلفنا وهم يهرولون.

أخبرتُ هانيبال بأنه، في الوقت الراهن، من الأفضل أن نتجنّب التهام الأطفال البشريين لأنهم حلفاؤنا ضدّ الجرذان.

قدّرتُ بأنّ عددنا بات الآن قرابة ثلاثمائة قطّ وقطّة، بالإضافة إلى قرابة مئة بشريٍّ. إنّه جيشٌ صغيرٌ جميل.

استخدم فيثاغورس عينه الثالثة لكي يُراقب تجمّعات الجرذان، من خلال كاميرات الفيديو الدقيقة. من حسن حظّنا، لم تكن الجرذان قد حظيت بعد بالوقت الكافي لإعادة تشكيل جيشٍ كافٍ لكي يجرؤ على مهاجمتنا.

وسرعان ما وصل موكبنا إلى أرصفة النهر. فتحت الشاحنة الكاسرة للجليد الطريق بين الخردة المعدنية وحطام الإسمنت والخرسانة.

نظر فيثاغورس بدوره إلى المنظر الخارجي.

قال:

– لقد أحسنّا صنعًا بالمغادرة.

– هل كانت الجرذان على وشك أن تهاجمنا؟

– لقد ازداد عددها على نحوٍ كبير بحيث باتت تتجمّع في هذه المنطقة المحيطة. إنّ جرذًا أضخم حجمًا من الآخرين وقف على قائمتيه الخلفيتين لكي يحمّس ويشجّع حشد الجرذان الأخرى، يبدو لي أنني رأيته خلال معركة الشانزليزيه.

– ملك الجرذان؟ أنا أسميته قمبيز، وكنتُ على وشك أن أنال منه.

– إنّه يحاول حشد المزيد من الجرذان من أجل قضيته. من الآن فصاعدًا، كانت جحافل القوارض تتجمّع وتتوجّه نحو العاصمة انطلاقًا من الضواحي. لقد أصبح عددها أكبر بخمسة أضعاف من عددنا.

– كم من الوقت بقي لنا، بحسب رأيك؟

– فلنتقدّم وسوف نرى جيّدًا.

هل قال: «إنّ عددهم أكثر من عددنا بمئة مرّة»؟

-28-

فيثاغورس

هبّت الرياح قويّةً ولكن موكبنا تقدّم بشكلٍ جيّد رغم العواصف. بدأ النهر الأسود يميل إلى تلوينات رمادية وبدأت الأمواج تتكسّر على الضفاف، وتبلّلنا أحيانًا في طريقها.

سرنا قدمًا إلى الأمام، منزعجين من الرياح العاتية والعواصف، ولكننا كنّا كثيري العدد ومسلّحين بما فيه الكفاية بحيث لا يمكن، في الوقت الحالي، لأيّ كان أن يوقف تقدّمنا. على يسارنا، كان برج إيفل يدير شعاعه الضوئي.

قال فيثاغورس:

– في البداية فكّرتُ بأنّه سيكون علينا أن نستقرّ هناك في الأعلى، على قمّة ذاك البرج المعدني، ولكن نظرًا لعددنا الكبير، بدا لي أنّه من الصعب تنفيذ هذه الفكرة عمليًا.

أبديتُ له ملاحظة:

– ثمّ إذا ما هاجمتنا الجرذان، لن نستطيع أن نقفز من ذلك العلو الشاهق.

حينما فكّرتُ في حياتي، قلتُ في نفسي إنني أملكُ حياةً مثالية: إذ يحمل كلّ يوم نصيبه من المفاجآت.

لقد مات منْ كان الغدُ بالنسبة إليه أمسًا آخر.

مات من يعلم في الصباح ما سيحدثُ له في ساعة ما بعد الظهيرة.

مات من لا يطمح سوى إلى الجمود والأمان.

اتّخذتُ خيار عرض جسدي للاختبارات، ولكنّ ذهني هو الذي تحسّن. فمن خلال مواجهته لما هو غير متوقّع وللنكسات، تعرّف ذهني على نفسه على نحوٍ أفضل، وبات يعرف ما يريده وما يستطيع فعله، وأصبح منسجمًا وأصبحتُ أُجيد توجيهه كامتدادٍ لجسدي.

كان فيثاغورس على حقّ، إذ لا بدّ أنّ عقلي قد اختار هذه الحياة لكي يقوم بتجارب ويواجه المحن: إنّ المحن تفيد في تثقيفي وتربيتي.

لم تكن حياتي بحاجةٍ إلى أن تكون سهلة ولا مثالية حتى تكون رائعة ومذهلة. إنّ طريقة فهمي لها هي وحدها تمنحها معنى.

لا أشعر بأنني في حالة منافسة مع أحد.

أنا لديّ مساري الخاصّ الفريد الذي لا يُضاهى.

أنا...

يا إلهي، لقد أصبحتُ قطّة فيلسوفة. إنّه التأثير السيّئ الذي مارسه فيثاغورس عليّ. ربّما يجب عليّ أن أبدأ بحلّ المشكلات المباشرة قبل أن أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة الوجودية.

أرى الآن المشهد على نحوٍ أفضل.

كانت بعض الجرذان تُبرزُ في بعض الأحيان خطمها، وتراقبنا، ولكنّها لم تجرؤ على مهاجمتنا في الوقت الراهن على الأقلّ.

سيكون علينا أن نتصرّف بسرعة.

وأخيرًا أشار فيثاغورس لنا بأنّ جزيرة البجع أصبحت على مرأى منّا. ووفق الجزء الصغير الذي رأيته منها، كانت عبارة عن لسانٍ من الخضرة وسط النهر. وصلنا إلى جسر بئر حكيم الذي كان يمتدّ منه سلّمٌ ينزل إلى الجزيرة نفسها. فشكّل البشر الشبّان حينئذٍ سلسلة من أجل إفراغ المركبات ونقل صناديق الغذاء، والمعدّات والأسلحة.

تمدّدت اسميرالدا تحت مقعدٍ. وما كادت أن تنام حتى جاء أنجيلو يرضع من ثدييها. كان هذا الصغير لا يكفّ عن تناول الطعام! ولكنني لم أعد أشعر بأنّها تسرق منّي ابني. ففي نهاية المطاف، هل يكفي أن تلدي كائنًا حتى يخصّك وحدك؟ نظرًا إلى مغامراتي الأخيرة، أعتقدُ أنّ الشعور الذي يولّد

كلّ الصراعات هو الرغبة في التملّك. رغبة المرء في تملّك شريكه، وتملّك الأرض، وتملّك خدمنا من البشر، وتملّك الغذاء، وتملّك المرء لأطفاله. لا أحد يخصّ أحدًا وحده. المخلوقات ليست أشياءً. في نهاية المطاف، إذا كان أنجيلو يرغب في أن تكون لديه أُمّان اثنتان، هذا خياره. علاوة على ذلك، هذا الأمر يصبّ في مصلحتي، لأنّه يتيح لي أن أمتلك لحظات خاصّة بي دون أن أكون ملاحقة طيلة الوقت لكي أقدّم حليبًا. أنا أرى في التخلّي عن رغبة التملّك مصلحة أولى: القليل من الراحة لحلمات أثدائي.

انطلقتُ في زيارة جزيرة البجع.

كان يوجد في زاويتها الحادّة في الجهة الشرقية تمثالٌ لرجلٍ يستلُّ سيفًا على حصانٍ يعدو.

علّق فيثاغورس، وهو ينضمّ إليّ، قائلًا:

– هذا التمثال يُدعى *فرنسا الناهضة*.

سألت:

– هل سبق وأن اندلعت حروبٌ، بالتحديد هنا، على جزيرة البجع هذه؟

– كلا، هذه جزيرة اصطناعية أُنشِئت في عام 1820. وهي ضيّقة المساحة للغاية بحيث لا يمكن لها أبدًا أن تكون هدفًا لأيّ أطماع كانت. طولها تسعمئة مترٍ، وعرضها أحد عشر مترًا. لم يسبق قط أن سكنها أحدٌ. إنّها تستخدَم كمسندٍ حاملٍ للجسور الثلاثة التي تعبر من فوقها.

هرولنا على الممرّ الطويل الذي يجتاز الجزيرة من طرفٍ إلى آخر. على زاويتها الحادّة في الجهة الغربية يوجد تمثالٌ آخر أكثر مهابةً من الأوّل.

أخبرني فيثاغورس:

– إنّه نسخة طبق الأصل من تمثال الحرية الموجود في نيويورك. ولكن إذا كان ارتفاع التمثال الأصلي يبلغ ستّة وأربعين مترًا، فإنّ ارتفاع هذا التمثال لا يبلغ سوى أحد عشر مترًا.

– وماذا يمثّل هذا التمثال؟

– إنّه تمثال امرأة عملاقة. تحمل في يدها اليمنى مشعل الحرية الذي يُنير العالم، وفي يدها اليسرى تمسكُ بلوائح القانون التي تُستخدم كقواعد السلوك الجماعي.

– هل هذه إلهة؟

– كلا، ليست كلّ التماثيل بالضرورة آلهة. هذه امرأة بسيطة تُعتبَر رمزًا للإنسانية الحرّة.

كان لجزيرتنا إذًا جانبٌ ذكوري وجانبٌ أنثوي.

من حولنا مباشرةً، كان الشبّان منهمكين في تنصيب الخيم. كانت ناتالي متوتّرة، وبدأت تنشط على أزرار لوحة مفاتيح هاتفها الذكي (المزوّد لحسن الحظّ بنظام بطارية تُشحن على الطاقة الشمسية). أغمض فيثاغورس عينيه وأدركتُ أنّه يغوص في شبكة الإنترنت خاصّته.

همس، قائلًا:

– إنّها تقوم بجرد مخزونات المواد في المواقع المحيطة بنا.

– أيّ نوعٍ من المواد؟

– طوب خرساني، إسمنت، صهاريج، مجارف، معاول، وفوقها كلّها... المواد المتفجّرة.

ثمّ ضبّت خادمتي هاتفها الذكي، ونادت بعض الأفراد الشبان وتحدّثت معهم لبرهةٍ، قبل أن ينتشروا للذهاب إلى إكمال مهمتهم، والتي تشتمل على الأرجح على جلب هذه المواد من المناطق المحيطة.

بدا أنّ كلّ شيء يأتي في مكانه الصحيح ويُنفّذ على ما يُرام.

وشرط النجاح التامّ هو أن تستطيع باتريسيا نقل رسالتي وتوجيهاتي إلى بني جنسها. رأيتُ في الحقيقة أنّ العرّافة تجلس في زاويةٍ. كانت تأكل، وتبدو مشغولة الذهن. في الواقع، لم تتوقّف عن تناول أغذية وشعرتُ بأنّها تهدّئ جسدها من خلال ملئه بالطعام.

في هذه الأثناء، بدأ البشر الشبّان ببناء جدران حماية باستخدام الصناديق. ظلّت الرياح تهبّ قويّة وجاءت أمواج المياه الداكنة للنهر تتحطّم على

الضفّة. كان فيثاغورس يراقب الأرصفة ويعاينها في محاولةٍ لاكتشاف مهاجمين محتمَلين. لاحظت القلق البادي عليه.

قلت:

– اروِ لي بقية حكاية البشر والقطط.

– أنا آسف، لم أعد أرغب في ذلك. الآن حان دوركِ لتروي لي حكاياتكِ. كيف نجحتِ في أن تبثّي رسائلك نحو باتريسيا هذه؟

– في الواقع، لطالما اعتقدتُ أنّ كلّ الكائنات الحيّة التي لها جهازٌ عصبيّ تمتلك عقلًا وأنّ هذا العقل قادرٌ على التحرّر من غلافه الجسدي. لطالما راودني حدسٌ بأنّ عقولنا أشبه بالهواء، أو بالأحرى أشبه بسحابةٍ، أو حتى أفضل من ذلك، أشبه بسحابةٍ قادرة على عبور كلّ شيء وعلى التمدّد إلى ما لا نهاية.

– من أين جاءتكِ هذه الفكرة؟

– من حلمٍ. حلمٌ رأيتُ فيه أن ذهني يتمدّد تمامًا مثل بخارٍ إلى خارج جمجمتي ويصبح أوسع رقعةً باضطراد. وما أن أصبح هذا البخار فوقي، وجدتُ نفسي في الأعلى. ورأيتُ هذه القطّة في الأسفل، والتي من المفروض أنّها أنا، ولكنني كنتُ أكبر منها. كان ذهني أكبر بكثير من غلافي الجسدي.

نظر إليّ فيثاغورس بطريقة مختلفة.

– أمرٌ غريبٌ ما تروينه لي، لأنّ إحدى التجارب التي أجرتها صوفي حول الحيوانات تدعم ما تقولينه. لقد روت لي ذلك، ومن ثمّ أرتني ذلك. كانت هذه التجربة قد أُجريت على حيوانٍ خاصّ، ليس قطًّا وإنّما دودة. الدودة الشريطية. وهذه الدودة لها رأس وعينان، وفم، ودماغ وجهاز عصبي.

كانت صوفي قد جلبت العديد منها ووضعتها في متاهات كانت توجد في بعض الأماكن منها مكافآت، أي كان فيها طعامٌ، وفي أماكن أخرى منها عقوبات، وهي عبارة عن صعقات كهربائية. كانت تصادف الطعام أو الصعقات الكهربائية حسب تنقّلاتها في المتاهات.

– مثل مسار للحياة؟

- بالضبط. لقد تركتها لوقتٍ طويلٍ ثمّ استعادتها و... قطعت رؤوسها. وللدودة الشريطية خصوصية، وهي أنّ لحمها ينمو من جديد.

- بما في ذلك الرأس؟

- نعم، بما في ذلك الرأس. كانت الديدان قد ذُبِحت وبعد برهةً تشكّل رأسها من جديد. فوضعت صوفي في المتاهات هذه الديدان برؤوسها الجديدة، وبالتالي دماغها الجديد. فذهبت مباشرةً في الاتجاه الذي يوجد فيه الطعام وتجنّبت باستمرار الأماكن التي كانت ستتلقى فيها صعقات كهربائية.

لم أستطع أن أصدّق أذنيّ.

غمغمتُ:

- هذه التجربة تؤكّد فرضيتي: العقل والذهن لا يكونان فقط داخل الجمجمة.

نظر إليّ فيثاغورس بنظرته العميقة.

- عندما أراجع الإنترنت، ينتابني أنا أيضًا هذا الشعور بأنني أتابعُ عقلًا متحرّكًا في عالمٍ غير مادي لا متناهٍ. وهذا هو السبب، في جزءٍ منه، الذي يجعلني أستمتع بذلك كثيرًا.

- أنت لديك الإنترنت لتخرج به من جسدك، وأنا أمتلك الأحلام للقيام بذلك. حيث لا يعود هناك حاجز الأجناس، فقط تلتقي الأذهان بأذهانٍ أخرى.

ظلّ فيثاغورس يحدّق فيّ بعينيه الواسعتين الزرقاوين اللتين تبرزان وسط فرائه الرمادي والأسود. أعتقدُ أنني أبهرته في تلك اللحظة أكثر مما كان قد أبهرني بسردياته عن التاريخ.

- وماذا رأيتِ في عالمكِ «عالم الأحلام الذي تتساوى فيه كلّ الأرواح وتستطيع أن تتواصل مع بعضها»؟

- لقد لمحتُ ذهن ناتالي، ولكنّه كان مغلقًا. أعتقد أنني لن أتمكّن يومًا من التواصل معها.

اعترف قائلًا:

- حتى وإن استطعتِ أن تتحدّثي معها، هي لن تستطيع أن تتواصل. بالنسبة إليها، أنتِ لستِ سوى دمية وَبَرية تموء.

إنّه على حق.

- كنتُ أعتقد أنّها اختارتني لأنها قد أحسّت منْ أكون بالفعل. وحقيقة أنّها قد أطلقت عليّ اسم باستيت وأنّك قد شرحت لي مدلول هذا الاسم تشجّعني على السير في هذا الطريق ليس إلّا.

- ولكنكِ عثرتِ على معبركِ المناسب ألا وهو «العرّافة-الساحرة» خاصّتكِ.

- باتريسيا هي أنا الأخرى في عالم البشر. هي أيضًا أدركت أننا لسنا سوى أذهان حبيسة داخل دعامة جسدية. هي أيضًا رغبت في التواصل مع الحيوانات، ومع النباتات، هي أيضًا رائدة.

وفي حين كنتُ أقول هذا، عبرت ذهني فكرة غريبة: هل في الواقع أنا لا أتواصل مع باتريسيا ذهنيًا في الحلم على نحوٍ أفضلٍ من تواصلي مع فيثاغورس الذي أتحدّث معه باللغة نفسها؟

سوف تكون هذه المفارقة الأعظم: التواصل على نحوٍ أفضل من دون كلام، حتى مع كائنات من جنسٍ مختلف!

اقترب فيثاغورس منّي وحكّ رقبتي بخطمه. ظننتُ أنّه قد فهم فكرتي ويسعى إلى طريقة أخرى للارتباط بي، من خلال تلامس فرائنا. ابتعدنا عن المجموعة. أشار عليّ فيثاغورس بأن أتبعه نحو أعلى تمثال الحرية. صعدتُ معه إلى الشجرة المجاورة، ومن هناك استخدمنا الغصن الأقرب لنقفز منه إلى العمود الحجري ونلتقي عند قدمي المرأة البرونزية. منحت طيّات ردائها الشبيهة بطيّات القماش مخالبنا إمكانية التشبّث والتسلّق وأتاحت لنا الصعود حتى وصلنا إلى قمة رأسها.

جلسنا هناك وراقبنا الأنحاء المحيطة.

- هذه دار الإذاعة، من هناك يبثّ البشر موجات الاتصالات والتلفزيون والراديو.

- إنترنت؟

- على الأرجح. لستُ متأكّدًا من ذلك. على أيّ حال، هنا ألتقط الإشارة على نحوٍ جيّد.

تنفّستُ الهواء واستنشقته بعمق.

قال لي:

- انظري إلى هناك في الأعلى.

- النجوم؟

- والكواكب. لقد راودتني ذات مرّة هذه الفكرة بأننا... نحن القطط لسنا في الأصل من كوكب الأرض. من مكانٍ آخر، لا أدري أين، ربّما هناك كوكبٌ آخر ظهر فيه أسلافنا. ربّما قاموا بإطلاقِ صاروخٍ مع روّاد فضاء من القطط التي حطّت هنا، قبل زمنٍ طويلٍ جدًّا.

- في صاروخٍ مثل فيليسيت؟ لماذا سنكون أتينا إلى هنا بالتحديد؟

- ربّما أتينا لاستعمار هذا الكوكب الذي كان لا يزال بدائيًا ومسكونًا بكائنات فظّة على مستوى الوعي الناشئ.

- إذًا لماذا نسينا من أين جئنا؟

- لأننا طوّرنا أدوات العقل لا أدوات الذاكرة. نحن لا نجيد لا الكتابة ولا القراءة، ومن جرّاء ذلك، ليست لدينا وسائل متينة لتثبيت المعلومات وحفظها. ليست لدينا ذاكرة على المدى الطويل. ربّما يكون الروّاد الأوائل قد رووا حكايتنا لأطفالهم، الذين ردّدوها بدورهم لأطفالهم فيما بعد. ولكثرة ما سُرِدَت، ربّما تكون قد تعرّضت للتشويه بعض الشيء وأصبحت بكلّ تأكيد محلّ تشكيكٍ، قبل أن تصبح مجرّد حكاية، مجرّد أسطورة. ثمّ نسيها الجميع. مثل كلّ شيء لم يتم تدوينه على أساسٍ ثابت.

حيّرتني الفكرة وكشفت حركات طرف ذيلي إثارتي.

- لا بدّ أنّ الحكاية لم تُفقَد بالكامل طالما أنّه تمّ تقديس باستيت والآلهة الذكور والإناث من ذوي رؤوس القطط في الهند والصين واسكندنافيا.

- يتذكّر بعض البشر على نحوٍ أفضل منّا حقيقة أصولنا. لأنّ الكتابة والكتب تمنح البشرَ وسيلةَ الحفاظ على أثرٍ ملموسٍ لكلّ ما حدث في الماضي. هذه هي ميزتهم الأكبر، وهذه هي ثغرتنا الأكبر. إنّ الذاكرة

المكتوبة هي مفتاح خلود الحضارات. من دون الكتب، يمكن أن تصبح جميع الحقائق موضع تشكيكٍ ومحلّ تساؤل، وكلّ ما جرى إنجازه يغدو منسيًّا على نحوٍ تدريجي.

لعقتُ نفسي، وحرّك فيثاغورس أذنيه.

– أحاول أن أتخيّل كوكبًا مع قططٍ تمتلك تقنية متقدّمة جدًّا. ستكون عبارة عن مركبات أصغر حجمًا وأكبر سرعةً تقودها قططٌ. وطائرات بوسعها أن تطير على ارتفاعاتٍ أعلى.

وسمحتُ لنفسي أن أوضّح الأمر:

– وتكون على شكل طائرٍ رشيقٍ أيضًا.

– تصوّرتُ هذه القطط وهي ترتدي ثيابًا.

– من جلد الجرذان؟

– وربّما حتى من القطط ثنائية الأقدام.

في كلّ مرّة أضاف فيها فكرةً، رغبتُ في أن أُتممها.

اقترح:

– قططٌ تأكل كبد... الفئران.

– ما هو الكبد؟

– طعامٌ أثيرٌ جدًّا عند البشر، مثل الكافيار.

– أُريد أن أتذوّق شيئًا من كبد فئرانك هذا.

استمرّ في التفكير، مثبتًا عينيه نحو النجوم. ضربت الرياح شواربنا على خدودنا.

اقترحتُ عرضًا بديلًا لأزايد عليه:

– قططٌ يكون لديها... بشرٌ صغارٌ كحيوانات منزلية أليفة؟

– كلا، البشر غير موجودين سوى على الكرة الأرضية.

– هل أنت متأكّدٌ من ذلك، يا فيثاغورس؟ أنا رأيتُ قططًا كبيرة في لباسٍ مثل ألبسة سكان المدينة وهي تداعب بشرًا صغارًا عراة مفعمين بالفرح. رأيتُ تلك القطط وهي تعدّ لهم طعامهم الخاصّ، وتنظّف صندوق الفضلات خاصّتهم.

دخلنا، فيثاغورس وأنا، في مزايدة للفرضيات حول حضارة محتَمَلة للقطط، ولكنني خشيتُ من أن يكون خيالنا محدودًا بما سبق لنا ورأيناه عند خدمنا البشريين. ثمّ انتهينا بأن نمنا، متكوّرين على بعضنا.

نمتُ.

حلمتُ.

غادر ذهني جسدي وانضمّ، كسحابة رقيقة لتفكيرِ قطّة، إلى سحابة كبيرة لتفكيرِ كلّ الكائنات الحيّة الواعية.

من جديد رأيتُ وجوهًا بشرية نائمة، مغمضة العينين، ووجدتُ من جديد وجه باتريسيا، وجفونها مفتوحة، وروحها متجاوبة كما في المرّة السابقة.

– صباح الخير، يا باستيت.

– لم أكن أعلم، يا باتريسيا، أنّكِ كنتِ...

– سابقًا، كنتُ أستاذة مادة التاريخ في الجامعة. وجدتُ نفسي بدينة بعض الشيء، فتناولتُ دواءً من أجل التنحيف. ولكن كان لهذا الدواء آثارٌ جانبية ضارّة. في البداية، عانيتُ من حالات صداعٍ نصفي، ثمّ أُصبتُ بحالات دوخة وغثيان، ولاقيتُ صعوبات في القدرة على التحدّث والتعبير عن الذات. حينما أدركتُ أنّ لهذه الأعراض صلة بالدواء، كان الأوان قد فات. رفعتُ دعوى قضائية على الشركة الصيدلانية المصنّعة لهذا الدواء، وربحتُ الدعوى: مُنِع الدواء من التداول، ولكن الضرر كان قد أصابني. في كلّ يومٍ كان يمضي، كنتُ أفقدُ القليلَ من القدرة على الإرسال والتلقي. أي القدرة على الكلام والسمع. وجدتُ نفسي تدريجيًا محبوسةً في رأسي، وحيدة مع نفسي. كان ذلك شعورًا غريبًا. وإذ حُرمتُ من اثنتين من حواسي الرئيسية، عمدتُ إلى تطوير حاستين أخريين لكي أعوّض عنهما، وأهرب وأبقى على اتصالٍ مع العالم الخارجي. يُقال بأن يكون المرءُ ضريرًا هو أسوأ الإعاقات الجسدية، ولكن بالنسبة إليّ، كان الصمم هو أسوأ الإعاقات. حينما يكون المرءُ أصمّ لا يعود يُدرك حجم المساحة التي يتواجد فيها لأنّ الأذنين تسمحان أيضًا بإعطاء هذه المعلومة، هل كنتِ تعرفين ذلك؟

– هل لأنّكِ كنتِ «محبوسةً في رأسكِ» أصبحتِ عرّافة؟

- هذا لأنني كنتُ محبوسة، كما تقولين، بحثتُ عن بابٍ للخروج، ثمّ... ليس هناك الكثير من المهن «العادية» بالنسبة إلى الصمّ-البكم. بحث عقلي عن وسيلة للاستمرار. في الحياة، أعتقد أنّ كلّ شيء يتوازن، وكلّ إعاقة تتوازن بالمقابل ببروز موهبة خاصّة.

قلتُ لها:

- على كلّ حال، أحسنتِ! لقد نجحتِ في نقل رسالتي إلى الآخرين. أهنّئك على هذا النجاح.

- أحسنتِ، أنتِ، يا باستيت. فبفضل خطّتكِ نحن هنا الآن.

- لكي أعترف لكِ بكلّ شيء، هذه ليست خطّتي، بل هي خطّة رفيقي، فيثاغورس. إنّه هو منْ يعرف كلّ شيء، وهو منْ ينظّم كلّ شيء، إنّه هو من وجد جزيرة البجع، وهو من يمتلك العين الثالثة. أنا لستُ سوى... تلميذته.

- فيثاغورس؟ هل تعلمين أنّ هذا الاسم هو اسم كائنٍ بشريٍّ شهيرٍ جدًّا من العصور اليونانية القديمة؟ لقد كان ذكيًّا جدًّا وحكيمًا جدًّا. حينما كنتُ أستاذة في الجامعة، كنتُ مختصّة بتلك الحقبة من التاريخ وكنتُ مولعة بالشخصية التي تحمل اسم صديقكِ نفسه. برأيي، إنّه الكائن البشري الأكثر إدهاشًا على الأرض على الإطلاق.

بكلّ تأكيد، كانت باتريسيا متفاجئة.

- هل تودّين أن تعرفي عن حياته على نحوٍ أدقّ تفصيلًا؟

- بكلّ تأكيد.

- كانت والدته تعتقد أنّها عقيمة ولا تنجب أطفالًا، فذهبت تستشير الكاهنة بيثيا في معبد أبولو في دلفي وتنبّأت لها هذه الكاهنة بولادة طفلٍ سوف يتحلّى بكلّ الصفات الحسنة. ولذلك أسمته والدته «فيثاغورس»، الاسم الذي يعني «معلنٌ من قبل بيثيا». لقد ولِدَ في عام 570 قبل الميلاد في جزيرة ساموس الإغريقية وكان والداه تاجري مجوهرات.

«كان فيثاغورس، وهو لا يزال فتيًّا، جميلًا جدًّا، ورياضيًا بارعًا. وحينما بلغ السابعة عشرة من عمره، لم يصبح عازف الهارب والفلوت فحسب، بل وكذلك فاز بجميع مسابقات رياضة الملاكمة اليونانية القديمة، في الألعاب

الأولمبية. ذات يوم، طلب منه والده أن يزور مصر لكي يسلّم لكهنة معبد ممفيس الخواتمَ المرصّعة التي كانوا قد طلبوها.

– كهنة مصريون من الذين يقدّسون باستيت؟

– على الأرجح نعم. بيد أنّه استغلّ زيارته إلى معبد ممفيس لكي يتلقّى أسرار الدين المصري.

– لا بدّ أنّه كان يملك قطًّا.

– بينما كان يتلقّى التعليم من الكهنة المصريين، هوجِمَت البلاد من قبل الجيش الفارسي للملك...

– قمبيز الثاني؟

– هل تعرفين هذه الحكاية من قبل؟

– هذا يشكّل جزءًا من الثقافة العامّة لكلّ قطٍّ وقطّة...

– شاهد الفتى فيثاغورس، عاجزًا، تدمير المعبد والتنكيل العلني أمام الجمهور بالفرعون السابق، وقتل الكهنة والأرستقراطيين.

– وقتل قططهم أيضًا؟

– في الواقع، قُتِلت القطط أيضًا. لم يحظَ فيثاغورس بالوقت سوى ما يكفيه للفرار إلى يهودا، إسرائيل الحالية. هناك، استُقبِلَ من قبل الكهنة العبرانيين وتعلّم الدين اليهودي.

– كان رحالة عظيمًا.

– نعم، الأمر الذي كان نادرًا في ذلك العصر، لأنّ الرحلات كانت خطيرة جدًّا. لكنّ يهودا أيضًا تعرّضت لغزو محاربي المملكة البابلية، العراق الحالي، الذين أسروه وأخذوه معهم كعبدٍ.

– لم يكن محظوظًا.

– أجل، لأنّه في حبسه التقى مع كهنة الديانة الأورفكية، الذين كانوا قد أُسروا في تراقيا، والكهنة الكلدانيين. وبالتالي تلقّى تعاليم هذه الأديان، ثمّ وبمساعدة الكهنة، نجح في الفرار وانطلق نحو الشرق، نحو الهند.

– هل كانت تلك البلاد بعيدة؟

– بعيدة جدًّا. هناك، أكمل من جديد تعليمه الديني بالديانة الهندوسية.

وما أن تعلّم جيّدًا، عاد إلى دلفي التي عاش فيها قصّة حبّ مع بيثيا الجديدة وتلقّى تعاليم كهنة المعبد. ثمّ عاد إلى جزيرته الأمّ ساموس، ولكن بما أنّ اليونان كانت تحت سيطرة طاغية، آثر أن يُكمل سيره نحو الغرب واستقرّ في كروتون، في جنوب إيطاليا. وقد استطاع أن يُقنع سكان تلك المدينة بأن يدعوه يبني فيها مدرسةً. في مقابل ذلك، عرض عليهم بأن يتكفّل بالإدارة السياسية والاقتصادية للمدينة. في تلك المدرسة، كان الطلاب يتعلّمون الرياضة كما الطبّ، والهندسة كما الشعر، وعلم الفلك كما الجغرافيا، والسياسة كما الموسيقى، وحتى التغذية النباتية.

– أنا أعرف أنّه هو من اخترع كلمتي «الفلسفة» و «الرياضيات».

– فعلًا. لقد حفظتِ درسكِ جيّدًا.

تركتُ باتريسيا، التي كانت مسكونة تمامًا بحياة هذه الشخصية، أن تستأنف سردها.

– كان انتقاء طلبة جدد في المدرسة صارمًا جدًّا. وكان معيار الانتقاء يقوم على أساس الذكاء والبسالة لا غير. كان على كلّ طالبٍ جديدٍ يلتحق بالمدرسة أن يترك كلّ شيء لكي ينضمّ إلى هذه المؤسسة التعليمية. بيد أنّ المدرسة الفيثاغورسية كانت الأولى التي تقبل في حرمها نساءً وغرباء وعبيدًا. الأمر الذي لم يكن من الممكن تصوّره في ذلك العصر.

– كم كان عدد التلاميذ فيها؟

– كان العدد بين مئتين وثلاثمئة تلميذ، لا أكثر. عدا صفوف الدراسة، كانت هناك أيضًا ورشات للبحث والتحليل. وقد قضى فيثاغورس حياته في السعي إلى إقامة صلة وصلٍ بين الروحانية والعلم. وبدا له أنّه قد عثر على دربٍ بين الأرقام. خلال السنة الدراسية الأولى، تعلّم تلامذته قدرة العدد (1) مع وحدة الكون. وفي السنة الدراسية الثانية، كانوا قد تلقّوا أسرار العدد (2) مع ثنائية الرجل / المرأة، النهار / الليل، الحرارة/ البرد. وخلال السنة الدراسية الثالثة، كان فيثاغورس يعلّم قدرة العدد (3)، مع ثلاثية: الجسد –الذكاء– العقل. في السنة الدراسية الرابعة، قدرة العدد (4) مع العناصر الأربعة: الهواء، الماء، التراب، النار.

هذا أمرٌ غريب، يتردّد صدى كلّ شيء في ذهني كما لو أنّه أمرٌ بديهي. أشعر أنني أعرف هذا سابقًا ومنذ زمنٍ طويلٍ.

– كان فيثاغورس يعتبر أنّ هناك طريقتين لرؤية الكون: المادة البسيطة التي يمكن لمسها والأرقام. كان يعتقد أنّ المادة هي نتيجة لجزيئات دقيقة في الفراغ مرتبطة بقوانين الرياضيات.

تبًّا. هذا ما يؤيّد ما كنتُ أحسّ به على الدوام.

– لقد اكتشف قواعد أساسية لضبط المقاييس، مثل نظرية فيثاغورس، التي استخدِمَت فيما بعد كقاعدة للقياس لكلّ المهندسين المعماريين، ولكن أيضًا الرقم الذهبي الذي ينظّم تناسق الأشكال. كان شعاره: «كلّ شيء عبارة عن رقم». وأخيرًا، وضع أوّل سلّم موسيقي، من خلال وترٍ على لوحة متدرجة.

– هل يمكن لكائنٍ بشريٍّ واحدٍ أن يحقّق العديد من الاكتشافات في العديد من المجالات؟

– في عام 450، أُصيب أحد نبلاء مدينة كروتون، يُدعى سيلون، بالإحباط من جرّاء فشله في اختبارات الدخول إلى المدرسة الفيثاغورسية، فأقنع السكان بالثورة ضدّ هذه المؤسسة التعليمية. اتّهم الفيثاغورسيين بأنّهم نخبويون ولا ينشرون معارفهم بين جميع الناس. وزعم بأن هناك كنزًا مدفونًا في داخل المدرسة. هاجم السكان المدرسة، وحرقوها، وقتلوا التلاميذ والأساتذة الذين حاولوا عبثًا الدفاع عن معلّمهم.

– وهل كان فعل رجلٍ حسودٍ واحدٍ كافيًا ليجعل كل نظامه ينهار؟

– قُتِلَ فيثاغورس. كان في الخامسة والثمانين من عمره. وأُحرقت كلّ كتاباته، ولكنّ فكره ظلّ يحيا عبر تلاميذه الذين شهدوا، من خلال ذاكرتهم، على اكتشافاته ومعارفه. ومن بين أشهر وارثي فلسفة فيثاغورس، نجد الإغريقيين سقراط وأفلاطون، وأيضًا المعماري الروماني فيتروفيوس.

– هل تعتقدين أنّ رفيقي فيثاغورس القطّ قد يكون تجسيدَ فيثاغورس البشري؟

– سؤالكِ محيّرٌ جدًّا لا سيما وأنّ فيثاغورس (ربّما من جرّاء زيارته

للهند) كان يؤمن بالتقمّص ويزعم أنّه يحتفظ في ذاكرته بكلّ حيواته السابقة، سواءً كانت بشرية أو حيوانية. وعلاوة على ذلك، كانت لديه قطط عديدة كان يحبّها حبًّا جمًّا.

– على أيّ حال، يزعم صديقي فيثاغورس أنّه قد اختار اسمه بنفسه.

– لقد حلمتُ ذات يوم أنّ حبّي لهذا الفيلسوف الإغريقي ربّما يكون عائدًا إلى كوني تجسيد أحد تلامذته الذين قتلوا معه في حريق المدرسة. هذا الصراع بين البرابرة غير المتعلّمين، والبشر المثقّفين موغلٌ في القدم وأبدي.

– يعتقد فيثاغورس، رفيقي القطّ، هذا الاعتقاد نفسه. يزعم أنّ الذين لا يفهمون يريدون دائمًا، بدافع الغيرة والحسد، أن يقتلوا الذين يفهمون.

– أعتقد أنّه يجب تثقيف الجميع، ولكن من أجل الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، يجب في المرحلة الأولى تهيئة الأذهان. إذا لم تكن الأذهان مهيّأة، فإنّ المخلوقات سوف تفهم كلّ شيء على نحوٍ خاطئ، وتستخدم الأدوات للتدمير بدل أن تستخدمها للبناء، وتحوّل المعلومات الحقيقية إلى أكاذيب بغية استعباد معاصريها أفضل استعباد. «إذا لم يقترن العلم بالضمير أدّى إلى خراب النفس»، هكذا كان يقول رابليه، أحد كبار إنسانيي عصر النهضة.

أصبحتُ أشعر أنّ ما نعيشه حاليًا في جزيرة البجع له علاقة وثيقة مع الكثير من أزمات الماضي. أُدرك أنّ هذه المعركة التي أشارك فيها ليست سوى حرب عصابات أو حرب لكسب الرزق. إنّها حرب الحضارة ضدّ البربرية. كانت هناك معركة قمبيز الثاني ضدّ كهنة باستيت، ومعركة سيلون ضدّ تلامذة فيثاغورس، معركة الإرهابيين المتعصّبين ضدّ المدارس العلمانية. والآن الجرذان.

قلتُ:

– أنا أخشى المعركة المقبلة.

– أنا أيضًا. إذا انهارت حضارتنا، سيكون علينا أن ننتظر زمنًا طويلًا قبل أن تُتاح لها الفرصة في أن يُعاد بناؤها.

– لدي أيضًا طلبٌ خاصٌّ بعض الشيء أقدّمه إليكِ، يا باتريسيا. في

لحظة المعركة، هل يمكنك أن تطلبي من البشر الشبّان أن يبثّوا مقطعًا موسيقيًا خاصًا؟

ثمّ قررنا أن نعود إلى أجسادنا لكي نتهيّأ للاستيقاظ في عالم المادّة.

استعادت سحابة ذهني الفضية شكلها الدائري وعادت تنكمش على بعضها في القُمرة الضيّقة داخل جمجمتي.

-29-

جزيرة البَجع

رفعتُ أجفاني ورمشتُ برموشي.

تلاشى الضوء بسحبٍ بنفسجية اللون، ومدّ الليل ظلامه كاشفًا عن النجوم.

استيقظ فيثاغورس بدوره. نزلنا من التمثال، انطلقنا لكي ننضمّ إلى البشر في مخيمهم.

جاء أفرادٌ، حينما علموا بوجودنا، إلى المكان بأعدادٍ كبيرة لكي ينضموا إلينا في الدفاع عن قضيتنا. جاء بشرٌ يانسون، وصلوا إلى حافة نفاد مخزوناتهم، من كلّ الأعمار ومن الجنسين، ولكن أيضًا جاءت قططٌ منفردة وجائعة، عزمت في نهاية المطاف على القبول بالعيش الجماعي في سبيل النجاة من الموت.

عاد البشر الشبّان الذين كانت ناتالي قد أرسلتهم في مهمّة ومعهم صهاريج ومركبات ثقيلة مليئة بمواد البناء. وبناءً على أوامرها، شرع الجميع بشكلٍ عاجل في وضع مواد متفجّرة تحت جسر بير حكيم، وتحت جسر الشبكة الجهوية السريعة في إيل دو باريس RER، الذي يمرّ فوق الجزيرة، ثمّ تحت جسر غرونيل (الروابط الثلاثة مع ضفاف النهر)، قبل أن توقَفَ الشاحنات في وسط الجزيرة، بالقرب من سلّم جسر غرونيل.

قادت خادمتي العمليات. عند إعطائها إشارة من يدها، حدث انفجارٌ وانهار أوّل جزء من الجسر الذي يربط الجزيرة بمنطقة باسي. صفّق بعض

البشر لنجاح العملية، وماءت بعض القطط. ثمّ انهار برج المترو العلوي. ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى لاقى ساعدا جسر بير حكيم المصير نفسه.

لم تعد هناك بعد الآن أيّ وسيلة للوصول إلى الضفاف البرية للنهر. ها قد انقطعنا عن كلّ شيء، مطوّقين بمياه النهر الداكنة.

ظهر الأسد هانيبال. قال بصوتٍ عالٍ ما كنّا نشعر به جميعًا: نحن محميون، ولكننا أيضًا محبوسون.

وحده فيثاغورس بدا أنّه غير قلق.

أغمض عينيه واستخدم عينه الثالثة لكي يستقي معلومات أبعد بكثير مما تستطيع عيناي أن تريا وشواربي أن تستشعر.

أعلن:

– الجرذان تتجمّع حول بعضها. ويمكنها أن تهاجمنا في أيّ لحظة. على الجميع أن يلتحقوا بمواقعهم الدفاعية.

أغمضتُ عيني بدوري.

دون أن أحلم، ظهرت لي سحابةُ ذهني، التي توسّعت وشعرتُ بالحياة التي تنبض في كلّ مكانٍ من حولي.

لمحتُ بشرًا خائفين، مختبئين في البيوت على الضفاف المقابلة، كانوا يراقبوننا من خلف نوافذهم. لمحتُ حمائم تطير، وهي مدهوشة بكلّ هذه الحركة النشيطة حول جزيرة البجع.

وأخيرًا التقطتُ طاقة الجرذان التي كانت ترصّدنا من ضفاف النهر. بل استطعتُ أن أسمع صوت مخالبها وهي تحتكّ بالأرض.

تجمّعت النوارس والغربان بكثافةٍ على الأغصان الأعلى لأشجار الجزيرة، ولكنّها ظلّت صامتة.

سمعتُ صوت صريرٍ يتصاعد. كانت الجرذان تشحذ قواطعها لكي تبثّ الخوف في صفوفنا.

انضممتُ إلى خادمتي ناتالي التي داعبتني وشوشت لي بشيءٍ ما بلغتها. ردّدت اسمي.

بدأتُ بالخرخرة.

غيّرتُ طول الموجة لكي أشير إلى أنني لستُ خائفة، وإلى أنّه ليس هناك أيّ شيء يدعوها هي الأخرى للخوف.

بكت ناتالي. لعقتُ دموعها المنسابة (وأحببتُ أكثر فأكثر مذاقها المالح) وضممتُ نفسي إليها. الكائنات التي تكون لنا معها ألفة طبيعية تمنحنا الرغبة في أن نتفوّق على أنفسنا، ومن ثمّ هناك كائناتٌ أخرى تجعلنا نتمهّل وتضخّ فينا الطاقة من خلال جعلنا نعتقد أنّها مهمّة بالنسبة إلينا (مثل صديقها الذكر توماس).

إنّ أنجيلو وفيثاغورس وناتالي، وكذلك باتريسيا منذ بعض الوقت، هم الكائنات التي أحتاج إليها. ربّما سيأتي يوم ويعود فولفغانغ أو اسميرالدا أو هانيبال إلى هذه الحلقة القريبة منّي، ولكن في الوقت الراهن، أريدُ أن تكون هذه الحلقة ضيّقة، إذ لا ينبغي لي أن أتشتّت بينهم.

استخدم الشبان من حولنا المادة المستجلبة من ورشات البناء لتشييد أبراج مراقبة وكبائن حراسة. وأخذت دوريات حراسة، مسلّحة بالمناظير أو بقاذفات اللهب أو بأسلحة رشّاشة، مكانها في تلك الأبراج والمراصد.

شعرتُ بعواطفهم وانفعالاتهم.

اضطرابٌ مشوبٌ بقلقٍ محسوس.

شعرتُ بأنفاسي التي بدأت تتصاعد.

شعرتُ بقلبي الذي بدأت دقّاته تتسارع.

شعرتُ بالموت الذي يقترب.

-30-

مخالب وأسنان

الانتظار لا يُطاق.

انضمّ أنجيلو واسميرالدا وفولفغانغ إليّ بالقرب من جمر نار المخيّم.

ماء فولفغانغ:

– جميع هذه الأحداث تتيح لي الفرصة للتفكير. خادمي، رئيس الجمهورية، فرّ متخليًا عنّي. وقد رأيتُ البشر يقتلون بعضهم واستخلصتُ من ذلك الاستنتاج التالي: لم أعد أحبّ البشر.

لفظ القطّ الرئاسي هذا الكلام بنبرة محايدة.

ذكّرت اسميرالدا:

– أنا أيضًا تخلّت عنّي خادمتي، ولكنني لا أحقد عليها لأنّ الظروف كانت استثنائية.

قلتُ:

– أمّا أنا، فقد عثرتُ على خادمتي. ربّما سوف تعثران أنتما أيضًا على خادميكما، ذات يوم.

واصل فولفغانغ حديثه:

– كلّما فكّرتُ أكثر، اعتبرتُ أنّه إذا ما انتصرت علينا الجرذان بعد انتصارها على البشر، فهذا لأنّها أفضل منّا وتستحقّ أن تحكم العالم.

دار أنجيلو من حولنا، جاهزًا للعب.

قلتُ:

– لا يمكننا أن نحكم على جنسٍ بأكمله في وقت الأزمة. بالنسبة إليّ، أنا لا أخاف من المستقبل. لقد عشتُ حياة جميلة، ومن الطبيعي أن أصادف بعض «المصاعب العابرة». أنا أعتقد أنّ الكائنات إذا كانت تقلق وتتوتّر وتتواصل، فهذا من أجل مقاومة هذا العدوّ الحقيقي، ألا وهو البطالة.

– حقًّا؟ هل هذا لأنّكِ تعتقدين بأنّه من دون ذلك، لن يتطوّر أيّ نوع ولا أيّ فرد؟

من مكان وقوفي، بدا لي أنني أرصد خلسةً بعض الجرذان خلف السيارات المتروكة على ضفاف النهر. لا بدّ أنّها مُحبَطة للغاية لكونها غير قادرة على أن تُباغتنا عبر المجارير أو الجسور. فمن أجل القيام بذلك، سيكون عليها أن تسبح.

تذكّرتُ كيف أنّ عنصر الماء أتاح لملك الجرذان ولقسمٍ كبيرٍ من قواتها الفرار من دون أن نتمكّن من ملاحقتها.

أتمنى أن تكون ناتالي قد أخذت هذا الأمر في الحسبان في خطّتها الدفاعية.

تحت تأثير القلق، التهمت القطط الطعام بنهم واستهلكنا مخزون الكافيار والأطعمة الخاصّة بالقطط. ومن جرّاء ذلك، وصل بنا الحال إلى أن نتناول أطعمة غريبة في قوامها وفي ألوانها غير الطبيعية تمامًا، أطعمة خاصّة بالبشر. لم يكن الطعام كلّه لذيذًا، ولكن كانت هناك مفاجآت سارّة، مثل ذلك الطعام الذي سمّاه فيثاغورس مايونيز، والذي كنتُ مولعًا بتناوله إلى درجة أنني كنتُ دائمًا أدسّ كلّ شواربي فيه.

وإذ لم يجد أنجيلو شركاء في اللعب الممكن، راح يتسلّى مع حلزون، بدا هو الآخر غير راضٍ عن كلّ شيء. حسدتُ لبرهةٍ لامبالاة ابني، مثلما كنتُ أتمنى في بعض الأحيان أن أجهل كلّ ما علّمني إياه فيثاغورس حول تاريخ نوعنا الذي عُبِدَ تارةً، واضطُهِد تارةً أخرى من قبل البشر.

ومن ثمّ، بينما بدأت السماء تميل من اللون البرتقالي نحو الأرجواني، أُطلِق الإنذار من قبل قطٍّ، راح يجول وهو يموء بأعلى صوته:

«إنّها تهاجم!»

وفي الحال أطلقت الشاحنات العنان لأبواقها المنبّهة لكي تُطلق الإنذار. غطّى هذا الضجيج بسهولة على صوت صرير قواطع خصومنا.

أطلق هانيبال زئيرًا.

ركضتُ أجثم على قمّة تمثال الحرية لأنني من هناك كنتُ أحظى برؤية بانورامية على الساحة.

ألقى أعداؤنا جماعيًا بأنفسهم في الماء. كانت الجرذان بالعشرات، بل بالمئات، بل بالآلاف، بل بعشرات الآلاف، بل وربّما بمئات الآلاف!

وبات سطح مياه السين، الذي كان حتى ثوانٍ مضت يهتزّ بأمواجٍ رمادية، مغطّى الآن بما يشبه سجّادة منسّقة من الفراء البني.

من جانبنا، انتظرناها بثباتٍ وحزم، وقد أصبحنا الآن قرابة ستمئة قطٍّ وقطّة، ومئتي شابٍ بشري.

ظلّ فيثاغورس في هيئة غير قلقة، مواصلًا الاتصال بالإنترنت حيث ظلّ يراقب بفضل عينه الثالثة تقدّم خصومنا من خلال كاميرات المراقبة.

أعطت ناتالي الأوامر وهي تصيح بقوّة. انتشر الشبّان البشريون بحيوية حول الشاحنات والصهاريج، ومدّوا أنابيب ضخمة جعلوها تنزل في النهر. وشغّلوا أجهزة التحكّم.

دغدغت رائحةٌ معروفةٌ منخاريّ.

أخذت القطط جميعها وضعية القتال في مواجهة الأمواج الأولى من الجرذان التي ستبلغ قريبًا ضفاف جزيرة البجع.

نظرًا لعددها الكبير، سمحت الجرذان لنفسها بأن تشنّ الهجوم من جميع جوانب الجزيرة في وقتٍ واحدٍ.

نزلتُ من جديد عن تمثال الحرية. شعر أنجيلو بالخوف، ففقد الرغبة في اللعب وذُعِرَ تمامًا. كانت كلّ أعضاء جسمه ترتعش. أمرته بأن يلجأ إلى خلف هانيبال وأن يحذر بألا يصبح بين أقدامه. ثمّ ذهبتُ إلى المكان الذي كان من المتوقّع أن تصل موجة الجرذان إليه أوّلًا.

فجأةً دوّت أصداء أغنية كالاس في الأجواء، بصوتٍ عالٍ ومهيب.

لقد نجحت باتريسيا إذًا في إقناع الشبان البشريين في بثّ المقطوعة –

التي أُخِذَت من الإنترنت على الأرجح- وبثها على كلّ مكبّرات الصوت في المركبات.

بينما كانت الموسيقى تتصاعد، اقترب المهاجمون.

من الضفّة، قامت الجرذان، التي لم تغطس في المياه بعد، برفع صوت صرير قواطعها لكي تشجّع خطوطها الأولى في الجبهة. حتى أنّ بعض الجرذان نجحت في الردّ على هذا النداء وهي تسبح.

رغم أنني لا أتحدّث لغة الجرذان، إلّا أنني فهمتُ فكرتهم؛ وهي تتلخّص في كلمة واحد فقط: «القتل».

لم أستطع أن أمنع رعشةً سرتْ في كلّ أنحاء جسدي.

كانت أغنية كالاس هي نقطة انطلاق لطاقتي وحماستي. استمدَدْت منها القوّة.

اصطكّ فكاي. إنّها حضارة القواطع ضدّ حضارة الأنياب.

سحبتُ مخالبي من بين فرائها.

كانت الجرذان السابحة في النهر متجمّعة على بعضها كثيرًا بحيث باتت تشكّل كتلة رمادية متموّجة.

فجأةً، شرع قطيعٌ من الجرذان السريعة جدًّا في استخدام هذه السجّادة المتحرّكة لكي تجري فوق أجساد بني جنسها. انقضّ قطيعٌ من القوارض علينا.

وضعت ناتالي أصابعها في فمها وصفّرت. غطّ ما يقارب عشرة شباب بشريين، مسلّحين بأقواسٍ، رؤوس سهامهم في مجمرةٍ ثمّ أطلقوها على نحوٍ متزامنٍ في كلّ الاتجاهات وهي مشتعلة باللهب. اشتعلت النيران في أطراف جزيرة البجع دفعة واحدة.

وأضاءت النيران النهر الذي كان غارقًا في العتمة.

كانت تلك الرائحة الخاصّة رائحة النفط إذًا.

أمسكت ناتالي من جهتها بقاذفة لهبٍ وأطلقت النيران على المهاجمين الأكثر قربًا منها.

ارتفع جدارٌ كبيرٌ من النار على النهر. دبّ الذعر والهلع في صفوف

الجرذان. حاولت بعضها أن تعود إلى الوراء، لكنّ غالبيتها تقدّمت إلى الأمام حيث تلقّفتها قططٌ غاضبة أو رشقاتٌ من البنادق الرشاشة.

امتلأت الأجواء برائحة الوقود والشعر المحترق.

مع ذلك، وعلى الرغم من أنّ الجرذان ضَعُفَت، إلا أنّ عددها كان كبيرًا جدًّا لكي ينجح الألوف من بينها، ورغم كلّ شيء، في الوصول إلى جزيرتنا.

وسط هذه الكتلة التي وطأت أقدامها ضفّة الجزيرة، رأيتُ شبحًا ضخمًا.

إنّه قمبيز!

كان جزءٌ من فرائه لا يزال يبعث دخانًا، ولكنّه بدا شجاعًا.

اكتشفتْه اسميرالدا أيضًا، ولكنني انقضضتُ عليه قبل أن تحظى بالوقت لتبدأ بالتحرّك. لا ينقصني سوى أن تسرق منّي غنيمتي! في النهاية، هناك حدودٌ لعدم مبالاتي بمسألة التملّك.

خلال عشرين ثانية، كنتُ أمام هذا العدو. فاحت رائحة التوابل من وبرِه المحروق، وتجعّدت شواربه، واحتقنت عيناه السوداوان بالدم. انقض كلّ منّا على الآخر.

حينما التحمنا جسدًا لجسد، قاتلنا بقوائمنا ومخالبنا وأسناننا. تدحرجنا بين الأعشاب الطويلة لضفّة النهر، غرز قواطعه الطويلة في كتفي. شعرتُ بألمٍ شديد.

هذا هو التأثير الضارّ للجسد على الذهن، إنّه يرسل إشارات ألمٍ. كززتُ على أسناني لكي لا أموء ألمًا. بالمقابل، عضضتُ بدوري ظهره بأنيابي، وتدفّق الدم إلى حلقي. أحسستُ بمذاقه. لم يكن سيّئًا. ضغطتُ بشدّة على فكّي.

جلد ذيله الطويل أذنيّ على نحوٍ أليم. لديّ حُجيرات سمعية حسّاسة للغاية، ومن جرّاء ذلك أفلتّه واستغلّ ذلك لكي يقلب الوضع لصالحه. هذه المرّة، غلبني.

جاءت اسميرالدا لنجدتي. ولكي تؤثّر عليه، انتصبت على قائمتيها الخلفيتين في وضعية كائن ثنائي الأطراف، ومستفيدة من طولها، هوت فوقه بقوّة وعضّت بكلّ ما أوتيت من قوّة بأنيابها المنطقة الدهنية من قائمته الخلفية اليمنى. أصدر صريرًا وأفلتني.

كنّا قطتين شريرتين حقيقيتين.

أغنية كالاس التي واصلت صداحها بنغمات عالية، ملأت الجوّ في الوقت نفسه الذي تصاعد فيه دخان النهر الذي اندلعت النيران في أطرافه.

تردّد ملك الجرذان، الجريح، في أن يعاود القتال ضدّنا نحن الاثنتين.

شعرتُ بالحنق الذي يعتملُ في نفسه.

لماذا كلّ هذا العنف، طيلة هذا الزمن الطويل؟

أنا متأكّدة من أنّه يمكن للمرء أن يتحرّر من الحاجة إلى علاقة توازن القوى.

حاولتُ أن أتكلّم معه:

يا قمبيز، أنا لا أحقد عليك، فلنكفّ عن زرع الموت من حولنا. فلنحاول إيجاد أرضية للتفاهم تتيح لنا أن نتعايش معًا.

لا أعتقد أنّه قد تلقّى رسالتي. كزّ على فكّيه، ونفث في وجهنا، ووصل العديد من بني جنسه وساعدوه في الفرار من المكان.

لم أفكّر حتى مجرّد تفكير في ملاحقته. توجّه نحو النهر، وركض فوق الجسر المشكّل من محاربيه، المحترقين في أغلبيتهم. لم تكن النار المشتعلة فوق سطح الماء قد انطفأت بعد، ولكن ذلك لم يوقفه. اندسّ ملك الجرذان بين ألسنة النيران، وتسلّل واختفى.

في كلّ الأحوال، كنتُ أعلم لو أنني حاولتُ اللحاق به، لانهار الجسر العائم تحت ثقلي.

انضمت اسميرالدا إليّ.

اعترفت:

– حسنًا، لا يمكننا أن نفوز في المعركة في كلّ مرّة.

لعقتْ أحد جراحي.

كم هو مزعج أن تكون لديكِ منافسة حنونة إلى هذه الدرجة! استسلمتُ لها لتلعق جرحي كما تشاء، ففي النهاية، هي التي أنقذت ابني، وحمته، وأطعمته، ورافقتني في معاركي، وأنقذتني من وضعٍ حرجٍ أثناء نزالي مع قمبيز، ولم تعاتبني حتى عندما فشلتُ. ربما لا تكون هذه قطّة سيّئة. وعلى أيّ حال، يمكنني أن أسامحها على أخطائها الأولى تجاهي.

استمرّت المعارك من حولنا في إثارة اشتباكات ضارية بين الآلاف من الجرذان التي نجحت في تسلّق تلال جزيرة البجع، وبين المئات من القطط والشبان البشريين المتّحدين.

لقد حان الوقت لكي أعود وأستأنف المشاركة في المعركة.

أسرعنا اسميرالدا وأنا وانضممنا إلى العراك وقاتلنا بأسناننا ومخالبنا.
لمحتُ من بعيد ناتالي التي، وقد استنفدت كلّ مخزونها من قاذفات اللهب، بدأت تستخدم الآن سيفًا.

بالقرب منها، كان بعض البشر يقاتلون في بعض الأحيان فقط باستخدام كعابهم. كان هانيبال لا يزال وسط الجرذان، ويعمل كآلة قتل مذهلة.

أدليتُ بدلوي في المعركة. كان احتدام الحماسة في الدفاع عن جزيرتنا المحمية يزيل عنّا كلّ تعب.

أشرقت الشمس. لا أدري كم من الوقت استغرق القتال.

توقّفت أغنية كالاس التي كانت تُعاد مرارًا وتكرارًا.

لم يعد يتحرّك أيّ شيء من حولنا.

كنتُ لا أزال ألهث بصخب، وقلبي يدقّ بقوّة، وكنتُ أشعر بلسعات جراحي.

أحسستُ بخدرٍ تامّ.

فقدتُ الإحساس بمرور الوقت تمامًا.

لقد استغرقت معركة جزيرة البجع وقتًا أطول بكثير من الوقت الذي استغرقته معركة الشانزليزيه. ولا بدّ أن عدد الضحايا أيضًا كان أكبر بكثير.

استعدتُ تدريجيًا هدوئي، وجاء فيثاغورس لينضمّ إليّ.

– سيكون هناك من كلّ بدّ بعض الجرذان التي يمكن التحاور معها ذات يوم، ولكن سيكون العثور على هذه الجرذان المستعدّة للحوار أكثر صعوبة. لا تزال الأغلبية تعيش في ثقافة العنف. بالنسبة إلى هذه الأغلبية، ينبغي القضاء على الضعفاء بطريقة منهجية. العنف هو نمط من التواصل الذي يُبهر النفوس الضعيفة. تُنهي الجرذان حياة مرضاها وجرحاها ومسنّيها.

ركّزتُ تفكيري ثمّ أوضحت:

– ألستَ أنت من علّمتني بأنّه ليست هناك أجناس سيئة، وإنّما هناك أفراد جاهلون أو خائفون؟

– ولكن يستطيع الآباء والأمهّات أن يربّوا أطفالهم على قيمٍ مختلفة. عند النمل، يُلقّنُ الصغار بقيم المساعدة المتبادلة، أمّا عند الجرذان، ففي المقدّمة تأتي قيم المنافسة وإقصاء كلّ المختلفين.

– هل هذا يعني أنّه ليس هناك أيّ أمل في التفاهم مع الجرذان؟

– ربّما سيأتي يومٌ يمكننا فيه التفاهم معها (مثلما نجحنا في أن نتفاهم مع البشر)، ولكن هذا التفاهم لن يكون إلّا مع الجرذان التي تخلّت عن الرغبة في إخضاع المختلفين عنها. لا يمكن أن نكون سلميين مع غزاةٍ قساة.

نظرتُ إلى فيثاغورس. لم يكن لديّ بعد رأي واضح حول موضوعٍ على هذه الدرجة من الأهمية. لكنّ مجرد قيامي بطرح هذه الأسئلة على نفسي، منحني الانطباع بأن ذهني يتراجع ويُعيد تموضعه في أفقٍ أوسع من الزمان والمكان. خشيتُ أن تصبح الجرذان سادة العالم، وأصبحتُ أفكّر الآن في مسألة اندماجهم في تفاهمٍ بين كلّ الحيوانات.

تُرى هل أنا ساذجة؟

حينما كان البشر يسودون العالم، كانت الأمور أكثر بساطةً. الآن وقد فشلوا هم أنفسهم، أعتقد أنّ أيّ حيوان آخر يستطيع أن يطرح رؤيته لمستقبلٍ مثالي.

في حين ساد الصوت وطال، يتخلّله بالكاد صوت تلاطم أمواج النهر وهي تنقل جثث الجرذان المحترقة، وقفتُ على قائمتيّ الخلفيتين، ومددتُ رقبتي نحو السماء، وأطلقتُ مواءً قويًّا يستمدّ مصدره من أعماقي. أطلتُ صوت المواء في اهتزازٍ على طريقة كالاس.

وسرعان ما ردّدت كلّ القطط النغمة، وبدأت بالمواء في جوقة واحدة، بطريقة تشبه إلى حدٍّ ما، ما شاهدته في حلمي.

وبعد ذلك، حاول الشباب البشريون، الذين قاتلوا إلى جانبنا، هم أيضًا، أن يغنّوا بالنغمة نفسها. حتى ناتالي دندنت بما يشبه مواءً. وحدث تطوّرٌ غريب في سعيي إلى الحوار: لم أنجح في التحدّث إلى البشر، ولكنني نجحتُ في أن أجعلهم يموؤون مثل القطط!

وأخيرًا انخرط هانيبال أيضًا في ذلك، ولكنّ ظلّ على نبرة أقوى وأخشن بكثير، وهو يسدّ كلّ منطقة الموجات المنخفضة. ساهم أنجيلو أيضًا في ذلك بصوته الضعيف والحادّ.

كلّنا معًا، شكّلنا دائرة صوتية تعبّر عن فرحتنا بإلحاقنا الهزيمة بالأعداء الذين كانوا أكثر عددًا وأكثر شراسةً ووحشيةً.

نظر إليّ فيثاغورس، وشعرتُ أنّ هذا الكائن الذي يزعم أنّه بليد الشعور، خلال هذه اللحظة القصيرة، والذي يشكّك كثيرًا بعواطفه، لا يزال يحسّ بتقديرٍ أكبر لي.

من جديد، عادت إلى أذهاني كلماته التي علّمني بها.

-31-

حكمة فيثاغورسية

«كلّ ما يحدثُ لي هو خيرٌ لي.
هذا الزمكان هو البعد الذي اختاره عقلي لكي يتجسّد.
يتيح لي أحبّائي وأصدقائي معرفة قدرتي على الحبّ.
يفيدني أعدائي والعقبات التي تنتصب في طريقي في التحقّق من قدرتي على المقاومة والكفاح.
تتيح لي مشكلاتي معرفةَ نفسي على نحوٍ أفضل.
لقد اخترتُ كوكبي.
اخترتُ بلدي.
اخترتُ عصري.
اخترتُ والديّ.
اخترتُ جسدي.
منذ اللحظة التي أدركتُ فيها أنّ ما يُحيط بي هو نابعٌ من رغبتي الخاصّة، لم يعد بوسعي التشكّي، ولا الشعور بمشاعر الغبن.
لم يعد بوسعي الشعور بأنني غير مفهومة.
لم يعد بوسعي أن أحاول فهم سبب حاجة روحي إلى هذه المحن والاختبارات المحدّدة لكي ترتقي.
في كلّ ليلة، أثناء نومي، كانت هذه الرسالة هي التي تذكّرني، على شكل أحلامٍ، كلّما أوشكتُ على نسيانها.

كلّ ما يحيط بي، موجودٌ لكي يُعلّمني.
كلّ ما يحدث لي، يحدث لكي يُطوّرني».

-32-

خطوتان إلى الوراء،
ثلاث خطواتٍ إلى الأمام

حاولتُ أن أقف على قائمتين مثل اسميرالدا. انتصبتُ واقفةً، اتّخذتُ وضعية متوازنة، وتقدّمتُ بضع خطوات لكي أحقّق أفضل توازنٍ. لم يبدُ لي المشي طويلًا على قدمين أمرًا صعبًا مثلما توقّعتُ للوهلة الأولى.

نظر فيثاغورس إليّ.

أكّد قائلًا:

– لا جدوى في شيء من تدمير النظام القديم، إذا لم يكن لدينا عالمٌ أفضل نطرحه لكي يحلّ محلّ القديم. لا ينبغي أن نغادر هذا المكان طالما لم نبتكر عالمًا جديدًا. يجب أن تصبح جزيرة البجع مختبرًا محميًّا، سوف نُصيغُ فيه طرحًا جديدًا بشأن «العيش المشترك».

نبحت كلابٌ من بعيد على ضفاف النهر.

استنتجتُ أنّ باتريسيا لا بدّ وقد استخدمت قدراتها كعرّافة في سبيل إيجاد فردٍ – جسرٍ، سوف يقود جماعتها إلى هنا. بعد الكلاب، جاءت الحمائم، والعصافير، والخفافيش التي حطّت على الأشجار النادرة في الجزيرة. لقد أبدت هذه الحيوانات مساندتها لنا من خلال التغريد والصفير.

واصلتُ الحفاظ على وضعية الوقوف بشكلٍ عمودي، ووقف فيثاغورس أيضًا على قائمتيه الخلفيتين.

– لن يتحقّق هذا دفعة واحدة. سوف يُنجزُ كلّ شيء بالتدريج وعلى

مراحل. ولكن علينا ألا نتقدّم بسرعة كبيرة، وإلّا سوف يتعرّض عملنا لخطر الانهيار.

حكّ جمجمته، ثمّ ماء:

- سوف نحتاج إلى مكانٍ لنشر المعرفة.

- مثل المدرسة الفيثاغورسية في كروتون؟

- كيف عرفتِ هذا، يا باستيت؟

لكثرة ما وقفتُ منتصبة على قائمتيّ الخلفيتين، بدأتُ أحسُّ بتشنّجاتٍ وآلامٍ في عضلاتي. جلستُ، وجاء رفيقي يستقرّ إلى جانبي.

قلتُ غير مستاءةً من مفاجأته بمعلوماتي:

- أنا أيضًا أُجيد تعليم نفسي بطريقتي الخاصّة. ولكن تابع شرح فكرتكَ. ما هو تصوّرك لسير العمل في «مدرستك»؟

- حسنًا، هنا، بيننا، سوف نُنشئ مؤسسة صغيرة على أسس جديدة. وعندما تعملُ بشكلٍ جيّد، سوف نحرص على تدريب وتأهيل بعض القطط، وربّما بعض الكلاب، لكي نصدّر معارفنا إلى خارج هذه الجزيرة.

- نجا ملك الجرذان، قمبيز، وسيحاول من كلّ بدّ أن يهاجمنا من جديد.

- سوف يحتاج إلى بعض الوقت حتى يوحّد جيشًا كبيرًا مثل الجيش الذي ضحّى به في المعركة الأخيرة. وسوف يكون هناك من كلّ بدٍّ منشقّون ومعارضون. لا أحد يريد أن يتبع المهزومين.

- ماذا سيحدث عند الجرذان؟

- للوهلة الأولى، سيتحدّى الذكور الأكثر ضخامة ملك الجرذان، لأنّهم سيعتبرون أنّه لم يكن كفؤًا بما فيه الكفاية. سوف يستبدلونه بزعيمٍ جديد، سيكون أكثر عزمًا وتصميمًا على إبادتنا، لأننا بتنا نمثّل من الآن فصاعدًا الدليل على أنّه من الممكن مقاومة الجرذان.

- وهل هذا يعني أن الحرب ستُستأنف مرّة أخرى؟

- إنّ ثقافة القوّة والعدد لدى الجرذان لا تتيح لها أن تتصوّر في هذه المرحلة بديلًا عن هزيمتنا. ولكن خلال انشغالها بتجنيد الجنود المستقبليين، سوف نعزّز التحالف بين الأجناس، من قطط وأسود، وشباب

بشريين، وكلاب وحمائم، وغربان، وخفافيش، وربّما أيضًا مع الخيول، والثيران، والخنازير... إنّ جميع من يخشون الجرذان سوف ينضمون إلينا. هنا، علينا فقط أن نصمد لأطول وقتٍ ممكن، وأن نتعلّم ونتدرّب جيّدًا حتى ينقل العالِمون معارفَهم إلى الجاهلين.

سألتُ بنزعة براغماتية:

- سوف تقتصر مدرستنا الفيثاغورسية على جزيرة البجع، لأنّ القسم الأكبر من المدينة لا يزال تحت سيطرة الجرذان. هل لدينا ما يكفي من الغذاء لكي نصمد هنا؟

- حتمًا سوف نحتاج إلى أن نشرع في نشاطٍ زراعي على جزيرة البجع، ولكن مع وجود كلّ هذا الكمّ الهائل من جثث الجرذان نصف المطهوّة، لدينا أصلًا مصدرٌ للبروتينات، بل وحتى السماد العضوي لبعض الوقت.

في هذه اللحظة بالذات، جاء أنجيلو ليرضع من ثديي، ولكنني لم أكن مرتاحة البال والذهن لكي أهتمّ به. سلّمته إلى اسميرالدا، وأشرتُ على فيثاغورس بأنني أرغب في مواصلة هذا الحديث في مكانٍ أكثر هدوءًا.

صعدنا من جديد إلى قمّة تمثال الحرية. ومن أعلى ذلك المكان، كان المشهد المطلّ على أعدائنا المنهزمين أكثر إبهارًا بكثير. كانت سجّادة الأجساد الباعثة للدخان تعاني من اضطرابٍ ما. هذه هي النتيجة التي تؤدّي إليها الحرب: توقّف حياة كلّ المشاركين فيها، دفعةً واحدة.

- كان الإمبراطور الفيلسوف، ماركوس أوريليوس، الذي كان يزعم بأنّه تلميذ فكر فيثاغورس، يقول بشأن البرابرة الذين كانوا يتهيؤون لغزو الإمبراطورية الرومانية: «علّمهم أو استعدّ لإخضاعهم».

راقبتُ جثث الجرذان وهي تطفو فوق مياه نهر السين، وتساءلتُ في نفسي إن كان كلّ هذا فعلًا ليس سوى مشكلة ناجمة عن التعليم السيئ.

- إنّ وباء الطاعون سوف يختفي من كلّ بدّ. وسوف يكون مستقبلنا المشترك رهنًا بالثقافة. لقد حان الوقت الذي ينبغي فيه على آخر البشر الحكماء أن يقدّموا معارفهم الأكثر تقدّمًا وتطوّرًا للأجناس الأخرى من الحيوانات.

بقيتُ متشكّكة لا أصدّق ذلك.

– يتشكّل مجتمعنا الآن من 480 قطًّا وقطّة (وقد فقدنا 120 فردًا منّا في المعركة)، ومن 180 كائنًا بشريًا (وقد تعرّضوا لخسائر أقلّ لأنهم قاتلوا مع الاحتفاظ بمسافة عن الجرذان، خوفًا من عدوى الإصابة بالطاعون). لا أستطيع أن أفهم كيف سيستطيع البشر أن يثقّفوا القطط طالما ليس هناك سواك أنت، يا فيثاغورس، من يستطيع أن يتلقّى معارفهم بفضل عينك الثالثة.

– سوف أبدأ بتدريب وتأهيل ما يقارب عشرة قطط، ثمّ سيقوم كلّ قطٍّ من القطط المدرّبة بدوره بتعليم ما يقارب عشرة تلاميذ، وهكذا على التوالي، وبذلك سوف نصل إلى قطّاعات واسعة من الجماهير.

– هل سيكون هذا باستمرار في اتجاهٍ واحدٍ: من البشر نحو القطط؟

– مع باتريسيا، سوف يمكنكِ أن تُجري حديثًا في الاتجاه المعاكس، ولكنني لستُ متأكّدًا من أنّه سوف يكون ضروريًا.

من الواضح أنّه يُحجّم موهبتي ويُضخّم موهبته. هذا هو تمامًا نمط تفكير الذكور.

– ومن ثمّ سوف يكون الرهان الحاسم هو الذاكرة. لا تكفي عملية التلقّي والإرسال لأنّ هذه الأنماط من التواصل تكون عابرة وسريعة الزوال، وبالتالي من الضروري جدًّا أن يتذكّر المرء. علينا أن نثبّت المعارف المكتسبة لكي لا ترتبط بالتقنيات. فالإنترنت يتطلّب وجود هوائيات، وأسلاك وكهرباء. والحال أنّ كلّ هذه اللوازم تقتصر على البشر، الذين قاموا بأنفسهم بالقضاء على عددٍ كبيرٍ من علمائهم. سوف يتوقّف الإنترنت عن العمل من كلّ بدٍّ خلال الأيام أو الأسابيع أو الأشهر المقبلة. حينما لا تعود أنظمة التغذية الكهربائية تعمل، سوف ينفصل الإنترنت وسوف تختفي كلّ المعلومات المخزّنة فيه دفعةً واحدة.

جعلتني الفكرة أرتعد من قفا رقبتي وحتى ذيلي.

– خمسة آلاف سنة من المعارف تُزال مثل الغبار الذي تكنّسه الرياح...

– ليس هناك إلّا حلّ واحد.

- وما هو؟

- الكتاب وسيلة الذاكرة بامتياز، الوسيلة الوحيدة التي تقاوم الزمن. لماذا يولي كلّ هذا الاهتمام لهذا الأمر؟ لقد رأيتُ الكتاب / الوسيلة، ولكنّه لم يكن بالنسبة إليّ سوى صفحات مليئة برسوم صغيرة وبكتابات بشرية، ولم أستوعب لماذا يضعه فيثاغورس في هذه المكانة العالية.

- ولكننا لا نجيد القراءة حتى!

- ذات يوم، سيكون علينا من كلّ بدّ أن نتعلّم القراءة، وإلّا فإنّ كلّ ما بنيناه، وكلّ ما سوف نعيشه، لن يفيد في أيّ شيء.

- هل تعتقد، يا فيثاغورس، أنّ البشر سينقرضون مثل الديناصورات؟

لعقتُ قدمي وحككتُ أذنيّ عدّة مرّات.

- ما الذي يُشغل تفكيركِ، يا باستيت؟

- إنّ البشر يضمنون لنا الراحة والإمدادات الغذائية، بفضل مفهومٍ هو بشريٌّ بامتياز مثلما كنتَ قد أسميتَه...

- «العمل»؟

- لنقل إنّ البشر يعملون، حتى الآن، من أجلنا. إنّ المزارعين ومربّي الماشية منهم يتدبّرون الأمور لكي يقدّموا اللحم والحبوب التي يتكوّن منها طعامنا الخاصّ. والحال هذه، إذا ما انقرض البشر وإذا ما تعلّمنا أن نفعل مثلهم... من التقنية والعلم والآلات والزراعة وتربية المواشي والكتابة والكتب....

- نعم، حسنًا، والآن أخبريني ما الذي يُضايقكِ؟

- هل هذا يعني أنّه سيكون علينا... بدورنا (أزعجت الكلمة فمي) أن... «نعمل»؟

أصدر فيثاغورس صوتًا يشبه صوت الفواق، ثمّ تبعه انقطاعٌ للأنفاس. أعتقدُ أنني بالتطرق إلى هذه المشكلة التي بدت لي جوهرية قد أثرتُ لديه فكرة جديدة... القراءة!

أصدر صوتًا صاخبًا من حلقه، ازداد غرابة على نحوٍ تدريجي، ووضع قدمه فوق عينيه كما لو أنّه لا يرغب في أن يرى هذه الحالة التي بات يتأرجح

فيها. بدأ يرتعش بالتشنّجات، حتى أنني في لحظة خشيتُ من أن يختنق، ولكنّه واصل إصدار هذا التجشؤ الغريب، فتابعتُ حديثي، هادئة غير مضطربة:

– لا أتخيّل نفسي وأنا أستيقظُ باكرًا لكي أغادر إلى أنفاقٍ مليئة بآخرين من بني جنسي لكي نصنع أشياء. لا أتخيّل نفسي أكتب كتبًا. لا أتخيّل نفسي أحرثُ حقولًا، ولا أتخيّل نفسي... أتعرّق! ولكي أقول الحقيقة، أجد أنّه من غير اللائق بحالتنا كقطط أن ننزل إلى مستوى التصرّف مثل خدمنا من خلال العمل.

نجح فيثاغورس في أن يستعيد تنفّسًا طبيعيًا.

– إذًا، ما الذي تقترحينه، يا باستيت؟

– في حال نجا البشر من الطاعون (وأعتقد أنّك قد أخبرتني بأنّ هذا الوباء يقتل في كلّ مرّة الكثير من البشر ولكن ليس بما يكفي لإفناء النوع)، سيكون من الواجب استعادة النظام كما كان عليه من قبل.

هزّ فيثاغورس رأسه، متشكّكًا. فألححتُ في القول:

– لقد أخبرتني بأنّهم كانوا ثمانية مليارٍ، وأننا كنّا ثمانمئة مليونٍ، هل هذا صحيح؟ وإذا ما اعتبرنا أنّ عددهم بعد هذه الأزمة سوف يتقلّص، لنقل... بمقدار النصف؟

– بالأحرى، بمقدار ثلاثة أرباع، ولكن تابعي حديثِك.

– ولكنهم مع ذلك سوف يظلّون أكثر عددًا منّا. إذًا، لندع البشر يشغلون مواقع العمل كما كانت الحال، ويديرون الحقول والمدن، ولننشغل، نحن القطط، بالتوازي مع ذلك بخلق تيارٍ روحيّ يطوّرهم.

لم تغره هذه الفكرة، ولكنني واظبتُ على الحديث:

– انظر إلى هؤلاء الشباب البشريين الذين قاتلوا الجرذان إلى جانبنا، لقد دفعوا ثمن أخطاء الأجيال التي سبقتهم، ويعرفون من الآن فصاعدًا ثمن ذلك. لقد رأوا بأننا حينما نكون معًا نستطيع أن ننتصر. لقد غيّرناهم بالفعل، وهم سيغيّرون بني جنسهم. من هنا، من مدرستنا، سوف تنطلق أسسُ عالمٍ مبنيٍّ على التفاهم بين البشر والأجناس الأخرى.

سأل مدهوشًا:

- أأنتِ، يا باستيت، من تقولين لي بأنّكِ تريدين أيضًا الوثوق بهم؟

فكّر فيثاغورس وهو يمرّر أحد قوائمه خلف أذنه. فشعرتُ بأنني مرغمةٌ على توضيح فكرتي:

- سوف نساعدهم. أنت سوف تراقب تصرّفاتهم على الإنترنت. أمّا أنا وباتريسيا، فسوف نؤثّر عليهم في عالم الأحلام.

من جهة أخرى، لمحتُ من بعيد ناتالي وهي تتناقش مع العرّافة. كانت هذه الأخيرة تعلّمها لغة الإشارات.

- وماذا لو كرّروا ارتكاب الأخطاء نفسها؟

سكتُّ، تاركةً سؤاله معلّقًا في الهواء الرطب.

بدأ البشر بالرقص حول نارٍ كبيرةٍ على أنغام لحنٍ أكثر بهجةً من لحن كالاس.

سألتُ فيثاغورس:

- ما هذه الموسيقى؟

- «الربيع» للملحّن فيفالدي. بعد قسوة طقس الشتاء تأتي من كلّ بدّ أيّام الجوّ الربيعي اللطيف، لأنّ العالم يسير في دورة. هذا ما يُعبّر عنه هذا الكونشرتو. كلّ شيء يسير في دورة، ولذلك لا ينبغي للمرء أن يقلق، بل فقط عليه انتظار أن يتم بعد...

-... أن يتمّ بعد خطوتين إلى الوراء القيام بثلاث خطوات إلى الأمام.

راقبنا البشر وهم يرقصون. كانوا يتراقصون ويتأرجحون بكلّ جمالٍ وأناقة.

حدّق فيثاغورس مباشرةً في عينيّ.

سألني:

- هل تعتقدين أنّ البشر يحبّوننا؟

فوجئتُ بأن يطرح عليّ هكذا سؤال في هكذا لحظة.

أجبتُ:

– بطريقتهم الخاصّة، نعم. في كلّ الأحوال، يعتقدون أنّهم يحبّوننا.

– وأنتِ، هل تحبّينني، يا باستيت؟

هل بدأ أخيرًا بالاستسلام لأن يكون «معتمدًا» على شخصي؟

– بالنسبة إليّ، أنا متعَبة. سأحتاج إلى أن أكون وحدي لبعض الوقت، لكي «أستجمع» قواي.

لم يفهم القطّ السيامي موقفي، ولكنّه عرِف بأنّه لا ينبغي الإلحاح عليّ في هذه اللحظة.

فأخذتُ مكاني في وضعية أكثر راحة على رأس تمثال الحرية. رأيتُ برج إيفل الذي كان شعاعه الضوئي لا يزال يدور، منيرًا مدينة البشر.

رأيتُ في الأسفل أنجيلو وهو يرضع من ثدي اسميرالدا.

رأيتُ ناتالي وبني جنسها الذين يرقصون حول النار.

عاد ذهني بهدوء لكي يُعشعش داخل جمجمتي. شعرتُ بأنني في حال جيّدة، في حالٍ جيّدة بالفعل، في انسجامٍ مع كلّ الطاقات المحيطة بي. بدا لي أنني قد عثرتُ على مكاني في الكون. لم أعد أخافُ المستقبلَ.

لم أعد أشعر بالحرمان من أيّ شيء كان.

ما الذي قد يُشعرني بالسعادة بالفعل من الآن فصاعدًا؟

بكلّ بساطة أن أواصل العيش هكذا، أن أُفاجأ كلّ يوم باكتشافات جديدة.

نفّضتُ نفسي. راح التيار المائي يجرف معه كلّ الجثث ويأخذها بعيدًا، ولو لم تكن ذكرى المعركة واضحة في ذاكرتي حتى الآن، لبدأتُ أشكّ في ما إذا كان كلّ هذا قد حدث بالفعل. هذا النهر يشبه الزمن الذي يمرّ ويحمل معه كلّ شيء: جثث المهزومين، كما آمال المنتصرين، سوف يزول كلّ هذا يومًا ما، ويُنسى.

ذكر فيثاغورس حلًّا لمقاومة مرور الزمن.

أهو «كتابٌ»؟...

ولكن كيف يمكن لفكري أن يتجسّد في صفحاتِ عملٍ من الورق؟

فكّرتُ واعتقدتُ أنني أرى بروز بداية إجابةٍ. لكي «يخلد» عقلي، سيكون عليّ أن أملي في الحلم على باتريسيا كلّ ما حدث.

سوف أروي لها القصّة، تمامًا كما رأيتها، وكما عشتها، وكما فهمتها، وما استخلصتُ منها.

سوف أصف لها كلّ شيء بالتفصيل في الزمن الحاضر.

وسوف يكون عليها هي أن تنقل، فيما بعد، ذكرياتي بكلماتٍ لكي يستطيع آخرون أن يعرفوا، ذات يوم، ما حدث بالفعل.

من المؤكّد أنّه لن يصدّق الجميع ذلك، ولكن سوف يكون هناك، من كلّ بدٍّ، بين القرّاء بعض الذين يفهمون، وبين هؤلاء، ربّما يكون هناك منْ سوف يرغبون في سرد قصّتي لأطفالهم.

هكذا، بفضل هذا الكتاب، سوف يُقاوم فكري الزمن، ولن تذهب عبثًا حياتي التي عشتها.

خاتمة

ملحوظة 1:

لم يُعامل أيّ حيوان معاملة سيّئة، ولم يُصب بجروحٍ خلال كتابة هذه الرواية (حتى من أجل مشاهد المعارك أو المطاردات أو الحركات البهلوانية الخطرة).

ملحوظة 2:

أنا أساند منظمة بيتا (الأشخاص الذين يطالبون بمعاملة مساوية للحيوانات) التي تهدف إلى تحسين وضع الحيوانات في مجتمعنا.

ملحوظة 3:

أودّ أن أثني على الروائي كلود كلوتز (المعروف أيضًا بالاسم المستعار باتريك كاوفن، الكاتب العبقري لكتاب *ط = ك.س²، يا حبيبي*، بين كتبٍ أخرى). فأثناء إجراء مقابلة معه في بيته، بوجود قطّه الخالد، حينما كنتُ صحافيًا، قلتُ في نفسي: «أعتقدُ أنّ هذه هي الحياة التي أحلمُ بها، أن يعمل المرء في بيته الهادئ مع قطّه الذي ينظر إليكَ ويُلهمك».

ملحوظة 4:

أودّ أن أُعرب عن شكري لجاري التولوزي، الطبيب البيطري جان ايف غوشيه، الذي ندين له باختراع مفهوم العلاج بخرخرة القطط. يهدف هذا العلم إلى دراسة الآثار الإيجابية للموجات المنبعثة بتردّدٍ منخفض (بين 20 و50 هرتزًا) من خلال خرخرة القطط. وهذه الموجات المنخفضة لا تعمل على طبلات الأذن فحسب، بل وعلى جُسيمات باتشيني التي هي واحدة من أربعة أنواع من المستقبلات الميكانيكية، وهي نهايات عصبية تقع تحت

الجلد، ولها تأثيرٌ مهدّئ حقيقي. كما أنّ خرخرة القطّ تؤدّي إلى إنتاج السيروتونين، وهو ناقلٌ عصبي له دورٌ في تحسين نومنا ومزاجنا، وهو بذلك يخفّض من التوتّر ويُسرّع علاوة على ذلك عملية التئام العظام.

ملحوظة 5:

لقد أفادني موقع واميز (http: / /wamiz.com) كثيرًا، فهو يقدّم شهادات مهمّة ويصف سلوكيات للقط غير نمطية.

ملحوظة 6:

سؤال بسيط أخير: وأنت، ماذا كنت ستفعل لو أنّك كنت تحت سيطرة كائنٍ يفوقك حجمًا بخمسة أضعاف، ولا يمكنك التواصل معه، ويحتجزك في غرفٍ لا يمكنك الوصول إلى مقابض أبوابها، والذي تتعلّق به لكي تتغذّى على أطعمة لا تعرف حتى ما هي مكوّناتها؟ (لاحظوا، إذا ما أمعنتم التفكير في هذا الأمر، أنّ هذا هو حال الأطفال أيضًا، ولكن، بالنسبة إليهم، هذا الأمر لا يستمرّ إلا لوقتٍ محدّد، أليس كذلك؟)



الموسيقى التي كنتُ أستمعُ إليها
أثناء كتابة هذه الرواية

سوناتات بيتهوفن، تؤديها عزفًا على البيانو العازفة هي ليم.

«كاستا ديفا»، المعزوفة الشهيرة من أوبرا *نورما* التي ألّفها فينشينزو بيليني.

«سان جاسينتو»، وهي أغنية مأخوذة من ألبوم بيتر *غابرييل*، لفنان بنفس الاسم.

الفصول الأربعة للمؤلّف أنطونيو فيفالدي، والتي يؤديها جو ساترياني (نسخة هارد روك بالقيثارة الكهربائية).

استرخوا مع روكي، ساعة من الخرخرة المتواصلة مسجّلة من قبل جان ايف غوشيه لصالح مجلّته *ايفيرفيسيانس* (يُفضّل الاستماع إليها مع فيفالدي).

الفهرس


مكتبة
t.me/soramnqraa

كيف انتهى بي المطاف إلى فهم البشر؟
منذ طفولتي المبكرة، بدوا لي على الدوام غامضين ومثيرين في آنٍ واحد.
لشدّة ما راقبتهم وهم يتحرّكون في كلّ الاتجاهات أو يقومون بحركات غير مفهومة، بل ومضحكة، بدأ الفضول يتملّكني. كنتُ أطرح باستمرار على نفسي أسئلة، من قبيل: لماذا يتصرّفون هكذا بغرابة؟

هل من الممكن خوض حوارٍ معهم؟
ومن ثمّ حظيتُ بفرصة اللقاء به «هو».
لقد ساعدني، «هو»، حقّاً في فهم تصرفاتهم وأخلاقهم، والأسباب العميقة التي تفسّر سلوكهم الغريب.
إنّ اللقاءات هي التي تغيّرنا دائماً.
من دونه «هو»، ربّما لما كنتُ سوى قطّة كغيري من القطط. ربّما، من دونه «هو»، كلّ هذه المغامرات المذهلة التي حصلت لي لم تكن لتحدث أبداً. بل ربّما، من دونه «هو»، كانت هذه الاكتشافات المذهلة ستفوتني.



الآن، إذا كان عليّ أن أحاول تذكّر اللحظة التي بدأ فيها كلّ شيء، سيتعيّن عليّ من دون شكّ أن أبدأ بأن أتذكّر حالتي النفسية والمزاجية في تلك الفترة.
أعتقد أنّي كنتُ أضجر كثيراً، وحيدة في بيتي، وأتاني الحدس بأنّه سيكون من المستحسن أن أتحادث مع المحيطين بي.


9 789933 655983